

قصة الحضارة

ول وَايريل ديورانت

الإصلاح الديني

مُراجعة
عماد أدهم

ترجمة
الدكتور عبد الحميد يونس

الجزء الثالث من المجلد السادس

٢٤



تونس



بيروت

فهرس الجزء الثالث من المجلد السادس

صفحة

الكتاب الثانى

الثورة الدينىة

١٥١٧ - ١٥٦٤

- الفصل السادس عشر : الإصلاح الدينى فى ألمانيا (١٥١٧ - ١٥٢٤) . ٣
- ١ - تيتزل ٣
- ٢ - تكوين لوثر ٩
- ٣ - الثورة تتخذ شكلا ١٦
- ٤ - نشرات بابوية ماثبة ٢٧
- ٥ - المجلس النيابى فى ورمس ٣٥
- ٦ - الراديكاليون ٤٤
- ٧ - أسس الإيمان ٥٢
- ٨ - لاهوت لوثر ٥٨
- ٩ - الثورى ٦٧
- الفصل السابع عشر : الثورة الاجتماعية (١٥٢٢ - ١٥٣٦) . . . ٧٢
- ١ - الثورة الصاعدة ٧٢
- ٢ - حرب الفلاحين (١٥٢٤ - ١٥٢٦) ٧٥
- ٣ - اللامعمدانيون يجربون الشيوعية (١٥٣٤ - ١٥٣٦) . . . ٩٦
- الفصل الثامن عشر : زونجلى - الإصلاح الدينى فى سويسرة
- (١٤٧٧ - ١٥٣١) ١١٠
- ١ - كثير فى القليل ١١٠
- ٢ - زونجلى ١١٢
- ٣ - إصلاح زونجلى الدينى ١١٥

(د)

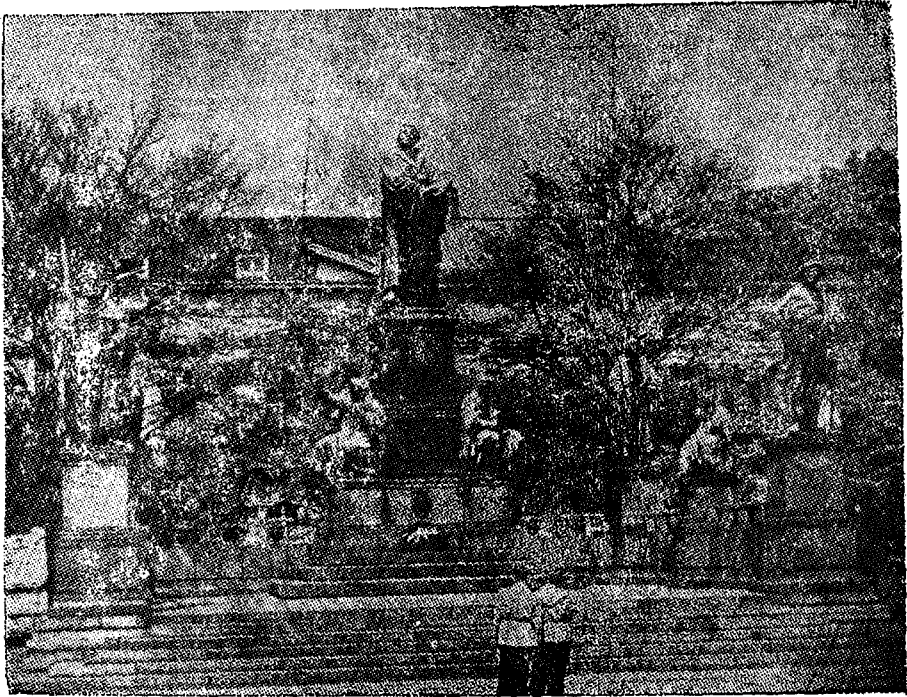
صفحة

- ٤ - إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون ١٢٢
- الفصل التاسع عشر : لوثر وأرازهوس (١٥١٧ - ١٥٣٦) ١٣٠
- ١ - لوثر ١٣٠
- ٢ - المطرطقة المتعصبون ١٤٠
- ٣ - العلماء الإنسانيون والإصلاح الديني ١٤٧
- ٤ - أرازهوس - حاشية على آرائه (١٥١٧ - ٣٦) ١٥٢
- الفصل العشرون : العمائد في حرب (١٥٢٥ - ١٥٦٠) ١٧٠
- ١ - التقديم البروتستانتي (١٥٢٥ - ٣٠) ١٧٠
- ٢ - مجالس الدايت لا توافق (١٥٢٦ - ٤١) ١٧٦
- ٣ - أسد فيتنبرج (١٥٢٦ - ٤٦) ١٨٦
- ٤ - انتصار البروتستانتية (١٥٤٢ - ٥٥) ١٩٦
- الفصل الحادي والعشرون : جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤) ٢٠٥
- ١ - شبابه ٢٠٥
- ٢ - عالم اللاهوت ٢٠٨
- ٣ - جينيف وستراسبورج (١٥٣٦ - ٤١) ٢١٨
- ٤ - مدينة الله ٢٢٧
- ٥ - معارك كالفن ٢٣٥
- ٦ - ميكايل سرفيتوس (١٥١١ - ٥٣) ٢٤٠
- ٧ - دعوة للتسامح ٢٤٨
- ٨ - كالفن إلى النهاية (١٥٥٤ - ١٥٦٤) ٢٥٤



الصورة رقم (١) ألبرخت ديور : فيليب
ميلانكون - متحف الفنون الجميلة في بوستن

(صفحة ٢٢)



الصورة رقم (٢) تمثال لوثر التذكاري في مدينة فرمز
(صفحة ٤٢)



الصورة رقم (٣) تيتيان : شارل الخامس في موبلبرج - برادو ، مدريد
(صفحة ١٩٨)



الصورة رقم (٤) رتيبه بويفن : كالفن -
المكتبة العمومية والجامعية ببيونيف
(صفحة ٢٣٥)



الصورة رقم (٥) النصب التذكاري للإصلاح الديني
(صفحة ٢٥٦)

الكتاب الثاني

الثورة الدينية

١٥١٧ - ١٥٦٤

الفصل السادس عشر

لوثر: الإصلاح الديني في ألمانيا

١٥١٧ - ١٥٢٤

١ - تيتزل

أصدر البابا ليو العاشر في اليوم الخامس عشر من مارس عام ١٥١٧ أشهر صكوك الغفران . ومما يؤسف عليه - وإن كان له ما يبرره - أن الإصلاح الديني فرض عليه أن يحارب في عهد سلطة بابوية جمعت في روما كثيراً من ثمار عصر النهضة وجانباً كبيراً من روحها ؛ فلقد أصبح ليو ، ابن لورنزو العظيم ، وقتذاك عميداً لأسرة مديتشي ، التي غدت عصر النهضة في فلورنسا ، وكان بحاجة وشاعراً وسيداً مهذباً رقيق القلب كريماً ، يعشق الأدب الكلامي والفن الرقيق . وكان حسن الأخلاق في وسط منحل ، ويميل بطبعه إلى المرح المشروع الذي يشبع البهجة في النفوس . وأضحى مثالا للسعادة في مدينة كانت منذ قرن خراباً بقلعاً . وكانت كل أخطائه جميعاً سطحية ، إذا استثنينا سطحيته هو نفسه ، ولم يكن يفرق لإقليلا بين مصلحة أسرته ومصلحة الكنيسة ، وبدد أموال البابوية على شعراء أصالتهم محل شك وعلى حروب هي موضع نظر . وكان متساهلاً في العادة يستطيب الهجاء الموجه ضد رجال الدين الوارد في كتاب « الثناء على الطيش » لاراموس ، وقد عمل إلا في فترات عارضة بالاتفاق غير المكتوب الذي منحت بموجبه الكنيسة في عصر النهضة حرية لا بأس بها للفلاسفة والشعراء والعلماء - الذين كانوا يوجهون أحاديثهم باللاتينية - إلى الأقلية المتنامية وإن تركوا عقيدة - الجماهير الراضية دون مساس .

وكان ليو ابن مصرفي اعتاد أن يبادر إلى إنفاق المال ، وبخاصة على الآخرين . وورث خزائن بابوية مفعمة بالأموال من يوليوس الثاني وأفرغها قبل أن يموت . ولعله لم يبال كثيراً بالكنيسة الضخمة التي فكر يوليوس في إنشائها وشرع في ذلك إلا أن كنيسة القديس بطرس القديمة لم تكن صالحة للترميم ، وكان لابد أن تتدفق مبالغ كبيرة لإنشاء الكنيسة الجديدة ووجدت سلطات الكنيسة من العار عليها أن تدع هذا المشروع العظيم يقبر في مهده . ولعله عرض في شيء من التردد أن يمنح في عام ١٥١٧ صك غفران لكل من يسهم في نفقات تكملة هذا المعبد العظيم . واحتج الحكام في إنجلترا وألمانيا وفرنسا وأسبانيا لأن ثروات بلادهم كانت تستنزف ، ولأن اقتصادياتها القومية تتعرض للضرر بالحملات المتكررة لتحويل المال إلى روما ، وكان ليو أحرص ما يكون على إرضاء الملوك وهم أقوياء : فوافق على أن يحتفظ هنري الثامن بربع الأموال التي تجمع من إنجلترا وقدم قرضاً قدره ١٧٥,٠٠٠ دوكات إلى الملك شارل الأول (الإمبراطور شارل الخامس فيما بعد) في مقابل الأموال المنتظر جمعها من أسبانيا ووافق على أن يحتفظ فرانسيس الأول بجزء من المبلغ الذي يجمع في فرنسا ، أما ألمانيا فقد قبلت بمعاملة أقل كرماء ، فلم تكن فيها ملكية قوية تستطيع أن تساوم البابا ومهما يكن من الأمر ، فإن الإمبراطور ماكسميليان نال مبلغاً متواضعاً قدره ٣,٠٠٠ فلورين من الإيرادات ، وفوض آل فوجر في أن يأخذوا من الأموال التي تجمع مبلغ ٢٠,٠٠٠ فلورين كانوا قد أقرضوه لالبرخت البراندنبرجي لكي يدفعها للبابا لتثبيتته في منصب كبير أساقفة ماينز . ولسوء الحظ كانت تلك المدينة قد فقدت ثلاثة من كهراء أساقفتها في عشر سنوات (١٥٠٤ - ١٥١٤) ودفعت مرتين نفقات باهظة للحصول على تأييد البابا ، ومن ثم اقترض ألبرخت ليعفيها من الدفع مرة ثالثة - ووافق ليو وقتذاك على أن يتولى رئيس الأساقفة الشاب توزيع صكوك الغفران في ماجدبرج وهالبرشتادت وفي ماينز أيضاً . وكان يصحب كل واحد من واعظي

ألبرخت وكيل لآل فوجر يراجع المصروفات والإيرادات وكان يحتفظ بأحد مفاتيح الخزانة التي تضم الأموال (١) .

وكان جوهان تيتزل وكيل ألبرخت الأول ، وهو راهب دومينيكاني اكتسب مهارة وشهرة في جمع المال . وكان عمله الرئيسي منذ عام ١٥٠٠ توزيع صكوك الغفران ، وكان يلقي عادة في هذه المهام عون رجال الدين المحليين وإذا دخل مدينة استقبله موكب من القساوسة والحكام والأثقياء من العامة وهم يحملون الأعلام والشموع ويرتلون الأناشيد ويرفعون نشرة صك الغفران عالية فوق وسادة من الخمل أو وسادة مذهبة في حين تفرع الكنيسة أجراسها وتعزف على آلات الأرغن فيها ، وهكذا استطاع تيتزل (٢) بفضل هذه المساندة أن يقدم بصفة مؤثرة صك غفران كامل لهؤلاء الذين يعترفون بخطاياهم وهم نادمون ويسهمون في بناء كنيسة جديدة للقديس بطرس حسب ما تسمح به مواردهم :

ألا فليرحمك الرب يسوع المسيح ويغفر لك بفضل ما لقي من آلام مقدسة وإنا بتفويض منه ومن رسوله المباركين بطرس وبولس ، ومن البابا المقدس منح لي وعهد به إلى في هذه الأجزاء إن أحلك أولا من كل لوم ديني مهما كانت الطريقة التي تعرضت لها ، ثم من كل خطاياك ومن كل تجاوز للحدود وكل إفراط في المملذات مهما بلغت من الجسامة ، بل حتى من أي لثم تحتفظ بتقريره وإدراكه السدة البابوية ، وبقدر ما يمتد نطاق سلطان الكنيسة المقدسة أعفيلك من كل عقاب تستحقه في المطهر بسبب هذه الآثام ، وأعيدك إلى القربان المقدس للكنيسة وإلى البراءة والظهور للذين حزتهما في العماد ، ولهذا فلإنك عند ما تموت ستغلق أمامك أبواب العذاب وتفتح لك أبواب جنة النعيم ، وإذا لم تمت الآن فإن هذا الفضل سوف يظل في أوج قوته عندما تصبح على وشك الموت باسم الأب والابن والروح القدس (٣) .

وكانت هذه الصفقة الرائعة بالنسبة إلى مؤمن تنفق مع المفهوم الرسمي

لصكوك الغفران بالنسبة للأحياء ، وها هو اسم تيتزل يتردد مرة أخرى خلال الخطاب المتضمن لتعليمات أسقفه عند ما استغنى عن الاعتراف التمهيدى إذا لجأ المتبرع إلى تقديم صلته الغفران لروح في المطهر . ويقول مؤرخ كاثوليكي : ليس من شك في أن تيتزل أعلن طبقاً لما كان يتصوره من العقيدة المسيحية وفق التعليمات المخولة له أنه لا داعى لشىء سوى تقديم المال للحصول على صلته غفران للميت في غير ما حاجة إلى الندم أو الاعتراف . ومن تعاليمه أيضاً ، طبقاً للرأى الذى كان يعتنقه ، أن صلته الغفران يمكن أن يمنع لأى روح معينة ويكون له أثر لا يخيب . وبناء على هذا الغرض فإن مما لا شك فيه أن مذهبه كان متفقاً مع هذا المثل السائر : « ما أن ترن قطع النقود في الخزانة حتى تقفز الروح من نار المطهر » . ولم تنص نشرة البابا الخاصة بصكوك الغفران على أى دليل لهذا الرأى . وكان رأياً غامضاً لأنصار فلسفة اللاهوت . . . ولم يكن يمثل عقيدة ما للكنيسة (٤) .

وسمع ما يكون نيوس ، وهو راهب فرنسيسكانى ربما كان معادياً للدومينيكان بصنيع تيتزل فكتب تقريراً عن هذا العام ١٥١٧ ، يقول : « إن ما قاله هذا الراهب الجاهل وبشر به أمر لا يصدق . لقد أعطى خطابات مختومة ضمنها أن الخطايا التى يعترزم المرء أن يرتكبها سوف تغفر له ، وقال إن البابا يملك سلطاناً يفوق سلطان الرسل والملائكة والقديسين ، بل يفوق سلطان العذراء مريم نفسها ، لأن هؤلاء جميعاً كانوا أتباعاً للمسيح أما البابا فإنه نذ للمسيح » . وقد يكون في هذا مبالغة ، ولكن مثل هذا الوصف يمكن أن يقدمه أى شاهد عيان يشير إلى ما يشهده تيتزل من مقت . ومثل هذا العداء يبدو في الشائعة التى ذكرها لوثر (٥) في ارتياب والتي استشهد بها تيتزل عند ما قال في هال إنه إذا حدث المستحيل واغتصب رجل أم الرب فإن صلته الغفران كفيل بأن يمحو عنه هذا الإثم . وحصل تيتزل على شهادات من السلطات المدنية والكهنوتية في هال بأنهم لم يسمعوا القصة قط (٦) . كان بائعاً متحمساً ولكنه لم يكن يفتقر تماماً إلى الضمير .

وكان يمكن أن ينجو من حكم التاريخ لو لم يقترب كثيراً من أراضي فردريك الحكيم الأمير المختار لسكسونيا(*) . وكان فردريك حاكماً ورعاً حسن التدبير ، ولم يكن لديه اعتراض من الناحية النظرية على صكوك الغفران وقد جمع ١٩,٠٠٠ من مخلفات القديسين في كنيسة قصره بفيتنبرج (٧) ، واتخذ التدابير اللازمة للحصول على صك غفران يرتبط بتوقيعها كما حصل على صك غفران آخر للمتبرعين بالأموال اللازمة لبناء قنطرة في تورجاو ، وعهد إلى تيتزل بأن يعلن عن فوائد هذا الصك البابوي (٨) ، ومهما يكن من أمر فإنه أمسك من البابا الكسندر السادس (١٥٠١) المبلغ الذي جمع في إمارة سكسونيا بموجب صك غفران يمنح مقابل التبرعات اللازمة للحرب الصليبية ضده الأتراك ، وقال إنه سوف يرفع يده عن المال عندما تتجسم الحرب الصليبية في صورة مادية ، ولما لم يتحقق هذا فقط احتفظ فردريك الحكيم بالأموال واستخدمها في بناء جامعة بفيتنبرج (٩) . وحرّم في أرضه وقتذاك التبشير بصك غفران عام ١٥١٧ مدفوعاً بنفوره من السماح لعملة ساكسونيا بالهجرة ، أو لعل هذا كان بدافع من التقارير عن مبالغات تيتزل ؛ بيد أن تيتزل اقترب كثيراً من الحدود حتى أن أهالي فيتنبرج عبروا الحدود للحصول على صك الغفران ، وجاء عدد من المشتريين لهذه « الرسائل البابوية » بها إلى مارتن لوثر أستاذ علم اللاهوت في الجامعة وطلبوا منه أن يشهد بفاعليتها فرفض ، وترامى الرفض إلى مسامع تيتزل فتوعد لوثر وهكذا نخلد اسمه في التاريخ .

(*) في عام ١٤٨٥ قسمت أملاك آل فيتين إلى إقليمين . وكان القسم الأصغر والأفنى ، ويشمل ليبزج ودرسدن من نصيب الابن الأصغر الدوق ألبرت ، وأصبح هذا القسم يعرف باسم دوقية ساكسونيا أو ساكسونيا الأبرشية . أما القسم الأكبر وهو أقل سكاناً ويشمل فيتنبرج وفيهار فأصبح من نصيب الأخ الأكبر وهو إرنست الأمير المختار الإمبراطوري وعرف باسم ساكسونيا إمارة المختار أو ساكسونيا الإرنسية ، وكان لهذا القسم شأن يذكر في حركة الإصلاح الديني .

كان قد أساء تقدير خصام الأستاذ إذ أن لوثر سرعان ما ألف باللاتينية خمساً وتسعين رسالة أطلق عليها اسم *Disputatio pro declaratione virtutis indulgentiarum* « بحث في بيان قوة صكوك الغفران » . ولم يعتبر آراءه من قبيل الهرطقة ولم تكن كذلك بكل تأكيد . وكان لا يزال كاثوليكياً متحمساً ليست لديه أدنى فكرة لقلب الكنيسة كان غرضه أن يدحض الادعاءات المغالى فيها بشأن صكوك الغفران وأن يصحح المساوئ التي تنشأ عن توزيعها . وشعر بأن سهولة إصدار صكوك الغفران والإتجار فيها على نطاق واسع قد أضعف الإحساس بالندم الذي يجب أن يثيره ارتكاب الإثم ، وجعل الخطيئة تبدو أمراً تافهاً يمكن تسويته وديماً بصفة تعقد مع بائع يتجر بالغفران ، ومع ذلك فإنه لم ينكر « السلطة » البابوية في غفران الخطايا ، وسلم بسلطة البابا في إحلال (إعفاء) النادم المعترف من العقوبات الدنيوية التي يفرضها عليه رجال الكنيسة ولكن وجهة نظر لوثر هي أن سلطة البابا في تحرير الأرواح من المطهر أو في تقليل مدة عقابها ، هناك تتوقف لا على السلطة التي تمثلها مفاتيح بطرس الرسول والتي لا تصل إلى أبعد من القبر — ولكن تتوقف على تأثير الشفاعة لصلوات البابا ، وهي قد تسمع وقد لا تسمع (الرسائل : ٢٠ — ٢٢) يضاف إلى هذا كله أن لوثر قال إن كل المسيحيين يشاركون آلياً في خزانة الفضائل التي كسبها المسيح والقديسون حتى وإن لم ينص خطاب بابوى بالغفران على منحهم مثل هذا النصيب . وأعنى البابوات من مسئولية مبالغت الوعاظ ، ولكنه أردف في خبث : « إن التبشير المطلق العنان بالغفران يجعل من الصعب حتى على الناس المتعلمين ، أن ينقلوا الاحترام الواجب للبابا من التساؤلات الذكية اللامحة للعامة : لم لا يفرغ البابا مطهراً من أجل الحب المقدس والحاجة الملمحة للأرواح الهائمة هناك إذا كان يفتدى . . . عدهاً من الأرواح من أجل المال للتعس الذي يبني به كنيسة ؟ (رسائل من ٨١ — ٨٢) .

وفي وقت الظهيرة في اليوم الحادى والثلاثين من أكتوبر عام ١٥١٧
ألصق هذه الرسائل على الباب الرئيسى لكنيسة القصر في فيتنبرج ، وفي
اليوم الأول من نوفمبر في يوم عيد جميع القديسين عرضت هناك المخلفات
المقدسة التى جمعها الأمير المختار ، وكان من المتوقع حضور جمع غفير . ولاشك
أن عملية إعلان هذه الرسائل على الجمهور ، والتى قام بها مقدمها لمواجهة كل
المتحدين ، كانت عادة قديمة في جامعات القرون الوسطى وأن الباب الذى
استخدمه لوثر فى لصق هذا الإعلان به ، كان قد استخدم بانتظام لوحة
النشرات الأكاديمية . وقدم لهذه الرسائل بدعوة ودية تقول :

بدافع من الحب للعقيدة والرغبة فى تسليط الضوء عليها سوف تناقش
الآراء التالية فى فيتنبرج تحت رعاية الأب الموقر مارتن لوثر ، أستاذ الآداب
واللاهوت المقدس والمحاضر الثبت لنفس العلم فى ذلك المكان . ولهذا يرجو
من هؤلاء الذين لا يستطيعون الحضور والجدال شفويّاً أن يفعلوا هذا
بخطاب .

وقام لوثر بترجمة هذه الرسائل إلى الألمانية ووزعها على الناس لكى
يتأكد من أنها سوف تفهم على أوسع نطاق . وأرسل نسخة من هذه الرسائل
إلى ألبريخت كبير أساقفة ماينز بجرأة لا نظير لها ، وهكذا بدأ الإصلاح
الدينى فى جو من الرقة والورع وعن غير قصد .

٢ - تكوين لوثر

ترى ما هى ظروف الوراثة والبيئة التى صاغت من راهب مغمور ،
فى مدينة لا يتعدى سكانها ثلاثة آلاف نسمة داود الثورة الدينية ؟ كان
أبوه هانز رجلاً صارماً فظاً يستثار بسهولة ، ومناهضاً لرجال الدين ، وكانت
أمه امرأة خجولا متواضعة تكرر كثيراً من أوقاتها للصلاة ، وكان كلاهما
مقتضداً . وعمل هانز فلاحاً فى موهراتم اشغل بالتعدين فى مانسفيلد ، إلا أن

مارتن ولد في أيسلبيين في اليوم العاشر من نوفمبر عام ١٤٨٣ ، وأعقب والداه بعده ستة أطفال . وكان هانز وجريتا يؤمنان بالعصا كوسيلة سحرية لتقويم الأخلاق ، ويقول مارتن إن أباه ثابر على ضربه يوماً حتى إنهما ظللا زمناً طويلاً يناصر كل منهما الآخر العداء ، وفي مناسبة أخرى جلده أمه حتى سال دمه لأنه سرق جوزة . وقال مارتن مفكراً فيما بعد : « إن الحياة الخشنة القاسية التي عشتها معهما هي التي دفعتني إلى أن أبدأ فيما بعد إلى الدير وأصبح راهباً » (١٠) . وليس من شك في أن صورة الرب التي نقلها له والداه عكست مزاجهما الخاص . أب قاس وقاض صارم يطالب بفضيلة عبوس ويطالب استرضاءه دائماً ويلعن أخيراً الجانب الأكبر من البشر ويدعو عليهم بأن يخلدوا في النار . وكان والداه كلاهما يؤمنان بوجود سمرة وغمفارية وملائكة وشياطين من فصائل متعددة وتخصصات متنوعة ، وحمل مارتن معه حتى النهاية معظم هذه الخرافات . وهكذا أسهم دين قام على الفزع في بيت يحتفل بالتأديب الصارم في تكوين شباب لوثر وعقيدته الدينية .

والتحق بمدرسة في مانسفيلد كان الطلبة يتلقون فيها مزيداً من العصى وكثيراً من الوعظ وجلده فيها مارتن خمس عشرة مرة في يوم واحد لأنه أخطأ في إعراب اسم . وعند ما بلغ الثالثة عشرة من عمره نقل إلى مدرسة ثانوية تديرها جمعية دينية في ماجديبرج ، وفي سن الرابعة عشرة حول إلى مدرسة سانت جورج في أيزيناخ ، وأمضى ثلاث سنوات سعيدة نسبياً أقام فيها بمنزل السيدة كوتا المريخ . ولم ينس لوثر قط قولها إنه ليس على ظهر الأرض ما هو أثنى للرجل من حب امرأة فاضلة . وكانت هذه نعمة لم يظفر بها إلا بعد اثنين وأربعين عاماً ، وفي هذا الجو الصحي استكمل السحر الطبيعي للشباب ، إذ كان سليماً معافى صريحاً ومنشراحاً من الناحية الاجتماعية . وكان يحسن الغناء والعزف على العود .

وأرسله والده الميسور الحال عام ١٥٠١ إلى الجامعة في أرفورت ، وكان

برنامج الدرس يركز على اللاهوت والفلسفة ، وكانت لا تزال كلامية ولكن المذهب الإسمي لأوكهام كان قد انتصر هناك ، ولعل لوثر قد فطن إلى رأى أوكهام الذى يذهب إلى أن البايوات والمجالس الدينية يمكن أن تخطئ ، وكان من رأيه أن فلسفة الكلام فى أية صورة من صورها غير مستحبة حتى إنه امتدح لصديق له « ألا يتعلم الروث الذى يقدم باعتباره فلسفة » (١١) .

وكان فى أرفورت بعض علماء الإنسانيات المعتدلين ، وتأثر بهم قليلا ولكنهم لم يهتموا به عندما وجدوه يحتفل بالعالم الآخر . وتعلم قليلا من اليونانية والنذر اليسير من العبرية ولكنه قرأ أمهات الكتب الكلاسية باللاتينية ، وحصل عام ١٥٠٥ على درجة الماجستير فى الآداب ، فأرسل له أبوه المزهو به نسخة غالية من مجموعة قوانين البلد هدية بمناسبة تخرجه . واغتنب عند ما بدأ ابنه فى دراسة القانون . وفجأة بعد شهرين من هذه الدراسة قرر الشاب أن يصبح راهباً ، الأمر الذى أفرع والده .

وهذا القرار يعبر عن التناقض فى خلقه ، فقد كان قوياً يفيض بالحياة إلى حد الانغماس فى الشهوات ، وكان من الواضح أنه خلق لحياة يرضى فيها الغرائز الطبيعية ، ومع أنه لقن فى البيت والمدرسة عن اقتناع أن الإنسان آثم بطبعه ، وأن الإثم معصية لإله قادر على كل شيء شديد العقاب ، فإنه لم يوفق قط ، فى الفكر أو فى السلوك ، بين غرائزه الطبيعية وبين معتقداته المكتسبة . ويبدو أنه عند ما كان يمر بالتجارب الغرامية العادية ونزوات المراهقة لم يستطع أن ينظر إلى هذه التجارب على أنها مراحل من التطور ، بل رأى أنها من أعمال شيطان نذر نفسه للإيقاع بالأرواح فى لعنة أبدية لا فكاك منها . وكان مفهومه الذى لقن له عن الله لا يكاد يشمل أى عنصر من الحنان ، ولم يكن لصورة مريم المواسية موضع كبير فى هذا اللاهوت القائم على الخوف ، ولم يكن يسوع هذا هو الابن المحب الذى لا يستطيع أن يرفض طلباً لأمه ، بل كان عيسى فى يوم الدينونة الذى كثيراً ما صور فى

الكنائس ، المسيح الذى هدد الخاطئين بعذاب جهنم الأبدى . وليس من شك فى أن الفكرة المتواترة عن الجحيم وضعت غشاوة على عقل كان شديد التساك بتعاليم الدين بحيث نسيها وهو ينتهب لذة الحياة كل يوم . وبينما كان عائداً يوماً من بيت أبيه فى أرفورت (يوليو سنة ١٥٠٥) واجهته عاصفة رهيبة ، ولمح البرق حوله ، وأصابته الصاعقة شجرة قريبة منه ؛ ونخيل للوثر أن هذا إنذار من الله وأنه ما لم يكرس أفكاره للخلاص فسوف يفاجئه الموت ويلقى حتفه دون أن يسمع اعترافه وتطارده اللعنة . ترى أين يستطيع أن يحيا حياة ينصرف فيها إلى التعبد ؟ إن هذا لا يتيسر إلا حيث يقيم حاجزاً بينه وبين العالم والشهوة والشيطان ، بين أربعة جدران ، أو يقهر النفس بالانصراف إلى التقشف ، ونذر عهداً للقديسة آن أنه لو نجا من هذه العاصفة فسوف يصبح راهباً .

وكان هناك عشرون ديراً فى أرفورت فاختار واحداً عرف بالإخلاص فى مراعاة قواعد الأديرة ، وهو دير الرهبان الأوغسطينيين ، ودعا أصدقاءه جميعاً وشرب وغنى معهم فى حفل قال لهم إنه يقوم به لآخر مرة وفى اليوم التالى استقبل فى خلوة بدر كمتدى فى الرهبة ، وقام بأحق الأعمال فى تواضع لا يخلو من الاعتزاز بالنفس ، وتلا الصلوات مراراً وتكراراً كمن نوم نفسه تنويماً مغناطيسياً ، وتجمد جسده فى مضعج بارد وصام وعذب نفسه ، أملاً فى أن يطرد من جسده الشياطين وقال : « كنت راهباً ورعاً أراعى أحكام الطائفة التى أنتمى إليها بشدة إلى حد أنه . . . إذ قدر لراهب أن يدخل الجنة عن طريق الرهبة فلأنى أدخلها لا محالة . . . ولو أن هذا الأمر طال أكثر من هذا لكنت عذبت نفسى حتى الموت بالسهر والصلاة والقراءة وغيرها من الأعمال » (١٢) . وفى إحدى المناسبات عند ما اختفى عن الأعين بضعة أيام اقتحم أصدقاؤه عليه خلوته فوجدوه يرقد على الأرض غائب الوعى ، وكانوا قد أحضروا معهم عوداً وعزف عليه واحد منهم فاسترد قواه وشكرهم . وفى سبتمبر عام ١٥٠٦ أقسم قسماً مغلطاً بأن ياتزم

الخصاصة والعفة والطاعة ، وفي مايو عام ١٥٠٧ رسم قساً ومحضه زملاؤه الرهبان نصيحة ودية وأكد له أحدهم أن عذاب المسيح إنما هو تكفير عن طبيعة الإنسان الخاطئة وأنه فتح للتائب أبواب الجنة .

وما قرأه لوثر عن الصوفيين الألمان وبخاصة عن تاولر أعطاه أملا في أن يجتاز الثغرة الرهيبة بين روح تنزع بطبيعتها إلى الخطيئة وبين إله مقسط قادر على كل شيء . ثم وقعت في يديه رسالة بقلم جون هس فساورته شكوك عقائدية زادت من اضطرابه الروحي . وتساءل قائلاً : « ترى لماذا أحرق رجل استطاع أن يكتب بمثل هذه الروح المسيحية وبهذه القوة ؟ لقد أغلقت الكتاب وأشحت بوجهي وقلبي جريح» (١٣) . وأولى جوهان فون شتاوتز ، وهو قسيس إقليمي من الرهبان الأوغسطينيين ، الراهب القلق ، اهتماماً أبويًا ، وأمره أن يستبدل بالتقشف بقراءة الكتاب المقدس وتعاليم القديس أوغسطين بكل عناية . وأعرب الرهبان عن جزعهم لما أصابه فأعطوه كتاباً مقدساً باللاتينية - وكان وقتذاك من المقتنيات النادرة - بالنسبة لأي فرد .

وفي أحد أيام عام ١٥٠٨ أو عام ١٥٠٩ استرعت انتباهه عبارة وردت في رسالة القديس بولس إلى الرومان (١ : ١٧) « إن الحق يحيا بالإيمان » وقادته هذه الكلمات في بطاء إلى العقيدة التي تذهب إلى أن الإنسان يمكن أن يزكى - أي يرجع إلى الصواب وينجو من النار - لا بالأعمال الطيبة التي لا يمكن أن تكفي أبداً للتكفير عن معصيته لإله لا حد لقدرته : بل بالإيمان المطلق بالمسيح وبتكفيره عن خطايا البشر . ووجد لوثر في تعاليم أوغسطين فكرة أخرى لعلها جددت من مخاوفه - تلك هي القدر - أن الله قدر حتى قبل الخياطة أن تحظى بعض الأرواح بالخلاص وأن يزج بالباقي في جهنم ، وأن الاختيار تم بمشيئة الله أن يكون الخلاص بالتحصية بالمسيح . ومن هذا المجال الصريح فر مرة أخرى إلى أماله الأساسي في الخلاص عن طريق الإيمان .

وحول عام ١٥٠٨ نقل إلى دير أوغسطين في فيتنبرج بناء على توصية من

شتاوبيرز ، وعين في وظيفة معلم للمنطق والفزياء ، ثم عين أستاذاً للاهوت في الجامعة . وكانت فيتنبرج عاصمة الشمال - وقلمًا كانت محل إقامة - لفردريك الحكيم وقال أحد المعاصرين عنها : « مدينة فقيرة لا أهمية لها بيوتها خشبية صغيرة ، قديمة قبيحة الشكل » ووصف لوثر السكان بقوله : « إنهم سكارى يفتترون إلى التهنيد منغمسون في العريضة إلى حد يجاوز الاعتدال ، وقد اشتهروا بأنهم أشد الناس إدماناً على الشراب في ساكسونيا التي كانت تعد أعظم مقاطعة في ألمانيا يغرّم أهلها بالشراب » . وقال لوثر إن الحضارة انتهت على بعد ميل من الشرق وبدأت المدججية وظل هناك الجانب الأكبر من حياته إلى نهاية أيامه .

ولا بد أنه قد أصبح راهباً مثاليًا وقتذاك لأنه أرسل في أكتوبر من عام ١٥١٠ مع زميل له من الرهبان ، إلى روما في مهمة غامضة للرهبان الأوغسطينيين ، وكان أول رد فعل عنده لدى مشاهدته المدينة رهبة مشوبة بالورع ، فسجد ورفع يديه وهتف يقول : « سلاماً عليك يا روما المقدسة ! » وقام بكل الشعائر شأنه شأن أي حاج ، وانحنى في إجلال أمام مخلوقات القديسين وصعد على السلم المقدس *Scala Santa* وهو يسير على ركبتيه ، وزار عشرين كنيسة وظفر بكثير من صكوك الغفران ، حتى إنه تمنى أو كاد لو كان والداه ميتين حتى يستطيع أن ينقذهما من المطهر . وارتاد المنتدى الروماني ولكن كان من الواضح أنه لم يتأثر بفن عصر النهضة ، وكان رافائيل ومايكلائجلو ومثات غيرهما قد بدأوا في تزيين العاصمة . وظل سنوات عديدة بعد القيام بهذه الرحلة دون أن يقوم بتعليق واضح جلي على تعلق رجال الدين الرومان بالدنيا ، أو على الاحلال الخلقى الذى كان شائعاً وقتذاك في المدينة المقدسة . ومهما يكن من أمر فإنه بعد عشر سنوات وصف روما عام ١٥١٠ بأنها « تدعو للمقت » ولا يزال من هذا المزيد في ذكرياته التي تتسم بالخيال المتوقد ، والتي تخطر له أحياناً في أحاديثه حول مائدة الطعام في سن الشيخوخة :

وقال إن البابوات أسوأ من الأباطرة الوثنيين وإن اثنتي عشرة فتاة عارية
كن يقمن بخدمة رجال البلاط البابوي وقت العشاء» (١٤) . ومن المحتمل أنه
لم يتيسر له الدخول في أوساط رجال الكهنوت الكبار ولم تكن له معرفة
مباشرة بأخلاقهم المنحلة التي لا شك فيها .

وارتقى بسرعة في المناصب التعليمية بعد عودته إلى فيتنبرج « فبراير
عام ١٥١١ » ونصب نائباً للأستف في طائفته . وأتى محاضرات في انكتاب
القدس ، وقام بالوعظ بانتظام في كنيسة الأبرشية ونهض بعبء العمل في
وظائفته بجد وولاء . ويقول عالم كاثوليكي مشهور : « إن خطاباته الرسمية
تم على اهتمام شديد بالذين ساورتهم المشاكوك وتفيض بعطف رقيق على
الآثم وتذصح عن لمسات عميقة من الشعور الديني والرأى العملى النادر وإن
كانت لم تخل من تشويه نهائج لها اتجاهات مخالفة للعقيدة : وعند ما اجتاح
اطاعون فيتنبرج عام ١٥١٦ لزم مكانه بشجاعة ، ورفض أن يتخلى عنه على
الرغم مما أبداه أصدقائه من قلق » (١٥) . وخلال هذه السنوات (١٥١٢ -
١٥١٧) تحولت آراؤه النديية ببطء عن المذاهب الرسمية لكنيسة . وبدأ
يتحدث عن « لاهوتنا » مقابل ما كان يدرس في أرفورت . وفي عام ١٥١٥
عزا ما أصاب العلم من فساد إلى رجال الكهنوت الذين قالوا للناس كثيراً
جداً من أمثال وحكايات خرافية من إبداع البشر وليست من الكتب المنزاة ،
واكتشف عام ١٥١٦ مخطوطة ألمانية مجهولة المؤلف أيد ما بها من التقوى
الصوفية رأيه في اعتماد الروح الكلى في الخلاص على رحمة الله إلى حد أنه
أعدّها للنشر وطبعها باسم « لاهوت ألماني Theologia Germanica » ،
ووجه اللوم إلى المبشرين بصكوك الغنران لاستغلالهم ساداجة الفقراء ، وبدأ
في مراسلاته الخاصة يبرهن على أن « ضد المسيح » الوارد في الرسالة الأولى
يوحنا شبيهه بالبابا (١٦) . ودعاه اللوق جورج صاحب أبرتين ساكسونيا عام

١٥١٧ إلى الوعظ في درسدن ، فأثبت بالدليل أن مجرد قبول فضائل المسيح يحقق الخلاص للمؤمن . وشكا اللدوق من أن مثل هذا التشدد في الإيمان أكثر من الفضيلة « سوف يجعل الناس مغرورين ومتمردين فحسب » (١٧) ، وبعد ثلاثة شهور تحدى الراهب المشهور العالم إلى مناظرته في الرسائل الخمس والتسعين التي علقها في كنيسة فيتنبرج .

٣ - الثورة تتخذ شكلا

قد توحى الصورة التي حفرها كراناخ على الخشب عام ١٥٢٠ أن لوثر في عام ١٥١٧ كان راهباً حليق الرأس متوسط القامة رشيق الجسم إلى حين ، وله عينان واسعتان يمان على العزم الجاد ، وأنف كبير وذقن يدل على قوة العزيمة ووجه يفصح في هدوء لا في لجاجة عن الشجاعة وقوة الشخصية ، ومع ذلك فإنه كتب هذه الرسائل بدافع من الغضب المتسم بالإخلاص لا عن جرأة حمقاء ولم ير فيها الأسقف المحلى شيئاً من المرطقة ولكنه تصح لوثر في لطف ألا يكتب شيئاً آخر في الموضوع لفترة ما . وقد هال المؤلف نفسه ما أثاره من غضب . وفي مايو عام ١٥١٨ أبلغ شتاوبنز أن أملة الحقيقي هو أن يقضى حياته في عزلة هادئة ولكنه كان يخضع نفسه فقد كان تلذ له المعركة .

وأصبحت الرسائل حديث الطبقة المتعلمة في ألمانيا . كان الآلاف ينتظرون احتجاجاً كهذا ، وهللت الحركة المضادة لرجال الدين وانطلقت من عقابها إذ وجدت صوتاً يعبر عنها . وقل الإقبال على شراء صكوك الغفران . ولكن كثيراً من أنصاره تصدوا لمواجهة التحدى وأجاب تيتزل ، بمعاونة بعض المحترفين ، في « مائة وست رسالة مضادة » (ديسمبر عام ١٥١٧) . ولم يسلم فيها بأى شيء ولم يقدم أى اعتذار بل « إنه أصدر في بعض الأحيان

حكماً لا يقبل التفاهم مؤيداً لآراء لاهوتية بحتة لا تكاد تتفق مع أعظم الدراسات
دقة» (١٨) . وعند ما وصل هذا المؤلف إلى فيتنبرج وعرضه بائع جوال للبيع
تألبت عليه جمهرة من طلبة الجامعة ، وأحرق المخزون لديه وقدره ٨٠٠ نسخة
في ساحة السوق - وهو إجراء استهجنه لوثر في جنبل . ورد على تيتزل في
« عظة حول صهكوك الغفران والرحمة » ، وخنمها بقوله في تحد لا نظير له :
« إذا كنت هرطيقاً في نظر من تعانى أكياس نقودهم من الحقائق التي أذكرها
فإني لا أبالي كثيراً بصياحهم لأنه لا يقول هذا إلا من رانت على عقولهم
غشاوة فلم يعرفوا قط الإنجيل» (١٩) .

وأمر جاكوب فان هوجستراين الكولوني ، لوثر وأبلا من عبارات
التنديد ، واقترح أن يحرق على السارية ، وأصدر جوهان إريك ، نائب مدير
جامعة انجولشتادت كتيباً باسم Obeilsci (مارس عام ١٥١٨) اتهم فيه
لوثر بنشر « السم البوهيمي » (هرطقات هس) . وتقويض النظام الإكليروسي
بأسره .

وفي روما نشر سيلفستر بريرياس ، رقيب الأدب البابوي ، حواراً « يؤيد
فيه سيادة البابا المطلقة بألفاظ لا تخلو تماماً من المبالغة وبخاصة عند ما يبسط
نظريته إلى نقطة خاصة بالتجارة في صهكوك الغفران ليس لها سند ولا
عليها دليل» (٢٠) .

ورد لوثر في كتيب اسمه **Resolutiones** قرارات (ابريل عام ١٥١٨)
وأرسل نسخاً منه إلى أسقفه المحلي وإلى البابا - مع تأكيدات بالمحافظة والطاعة
في كلتا الحالتين وتحديث النص في رفق عن ليو العاشر : « على الرغم من أن
في عالم الكنيسة رجالاً يجمعون بين العلم والقداسة فإن من سوء طالع عصرنا
مع ذلك أنهم لا يستطيعون أن يمسدوا يده المعونة للكنيسة وها نحن
أولاء نجد حبراً أعظم لا يبارى هوليو العاشر ، يمتاز بكمال وعلم هما بهجة
لكل آذان الناس الطيبين ، ولكن ماذا يستطيع أن يفعل وحده أرق الرجال

قلباً في مثل هذه البلبلة الكبيرة بين الأمور مهما كان جديراً بأن يحكم في أوقات خير من هذه ؟ . . . إننا في هذا العصر لا نستحق إلا بابوات من أمثال يوليوس الثاني وألكسندر السادس . . . إن روما نفسها - نعم روما ، أكثر من الكل ، تسخر الآن من الناس الطيبين ، ترى في أى جزء من العالم المسيحي غير روما ، حصن بابيلون الحقيقي ، يهزأ الناس بحرية من أحسن الأساقفة ؟ » وأكد لليو مباشرة خضوعاً غريباً بقوله : « أيها الأب المبارك أقدم تحت أعتاب قداسك تذلي وخضوعي بكل ما أكونه وما أملك هيا وسارع ، واقتل وادع واستدع واستحسن واستهجن إذا راق ذلك في نظرك . إنى سأقر بأن صوتك هو صوت المسيح ، إذ يقيم في جسلك ويتحدث . وإذا كنت أستحق الموت فلن أرفض أن أموت » (٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن كتابة قرارات **Resoluciones** كما لاحظ مستشارو ليو أكد أن المجلس المسكوني أعلى رتبة من البابا ، وتحدث مستخفاً عن المخلفات المقدسة وعن الحج وأنكر فضائل انديسين الزائدة ونبذ كل الإضافات التي قام بها البابوات في القرون الثلاثة الأخيرة على نظرية صكوك الغفران وممارستها ، ولما كانت هذه مصدرأ له أهميته للدخول البابوي ولما كان ليو في حيرة لا يدرى كيف يعول مشروعاته الإنسانية ومنازله وحروبه وإدارة وتنفيذ برنامج بناء الكنيسة أيضاً فإن الخبر الأعظم الذي استبد به القلق ، والذي لم يعبأ في مبدأ الأمر بالنزاع باعتباره ضجة عابرة بين الرهبان تصدى للأمر وأخذه وقتذاك على عاتقه واستدعى الوثر إلى روما (٧ يوليو سنة ١٥١٨) .

وواجه لوثر قراراً حرجاً فحتى إذا عامله أرق البابوات برفق فإنه قد يجد نفسه ملزماً بإيثار الصمت في أدب واعتقال نفسه في دير روماني وسرعان ما ينسأه هؤلاء الذين يهتفون له الآن . وكتب إلى جورج سبالاتان القسيس الخاص بالأمير المختار فردريك يقترح عليه أن يبادر الأمراء الألمان بحماية

مواطنيهم من التسليم الإجبارى لإيطاليا فوافق الأمير إذ كان يجلب لوثر الذى كان له الفضل فى نجاح جامعة فيتنبرج ، وفضلاً عن هذا فإن الإمبراطور ماكس رأى أن لوثر ورقة رابحة يمكن أن يلعب بها فى نزاعه الدبلوماسى مع روما فأشار على الأمير المختار أن « يهتم جداً بذلك الراهب » (٢٣) .

وفى هذا الوقت نفسه كان الإمبراطور قد دعا المجلس النيابى الإمبراطورى إلى الاجتماع فى أوجسبورج للنظر فى طلب البابا فرض ضريبة على ألمانيا للمعاونة فى تمويل حملة صليبية جديدة ضد الأتراك فرجال الإكايروس (كما رأى ليو) يجب أن يدفعوا عشر دخلهم والعلمانيون جزءاً من اثنى عشر جزءاً من دخلهم ، وكل خمسين من أبواب البيوت يجب أن يجهزوا رجلاً ورفض المجلس النيابى بل أنه على النقيض سجل مرة أخرى . . . المظالم التى كانت تهيء الدعامة التى قام عليها لوثر ، وأوضح للقاصد الرسول أن ألمانيا كثيراً ما فرضت على نفسها الضرائب للحملات الصليبية فوجدت أن الأموال تنفق فى أغراض البابا الأخرى وأن الناس يعارضون بشدة أية تنازل آخر عن المال لإيطاليا وأن المبالغ السنوية التى تدفع للبابا عن ربيع أول عام ورسوم التثبيت الدينى ونفقات القضايا الكنسية المحالة إلى روما كانت عبئاً ثقيلاً لا يطاق ، وأن التبرعات الألمانية كانت تعطى مثل ثمار البرقوق إلى القساوسة الإيطاليين . وقال أحد النواب إن مثل هذا الرفض الجرىء للمطالب البابوية لم يعرف قط فى تاريخ ألمانيا (٢٣) . وعند ما لاحظ ما كسمليان روح الثورة بين الأمراء كتب إلى روما ينصح بالحرص فى معاملة لوثر ، ولكنه وعد بالتعاون فى القضاء على الهرطقة .

وكان ليو ميالا أو مضطراً إلى التسامح ، والحق أن مؤرخاً بروتستانتياً عزا انتصار الإصلاح الدينى إلى اعتدال البابا (٢٤) واستبعد الأمر بمثل لوثر أمامه فى روما ، وبدلاً من ذلك أمره بأن يمثل أمام الكاردينال كاجيتان فى أوجسبورج وأن يجيب على التهم الموجهة إليه بالخروج على النظام والهرطقة . وأصدر

تعليماته إلى قاصده الرسول بأن يعرض على لوثر صفحاً كاملاً ومناصب في المستقبل إذا تراجع عن أقواله وأقر بذلك وإلا فإنه سوف يطلب من السلطات الزمنية أنه ترسله إلى روما (٢٥). وفي الوقت نفسه أعلن ليو عن نيته في تقديم تكريم لفردريك طالما تطلع إليه الأمير المختار الورع - ألا وهو « الوردة الذهبية » التي كان البابوات يمنحونها للحكام الزميين الذين يودون أن ينصروهم بأرفع هباتهم ، ولعل ليو عرض وقتذاك أن يؤيد فردريك كوارث للعرش الإمبراطوري (٢٦) .

وقابل لوثر في أوجسبورج الكردينال كاجيتان وهو متسلح بجواز أمان من الإمبراطور (١٢ - ١٤ أكتوبر عام ١٥١٨) ، وكان الكردينال رجلاً متضلعا في اللاهوت ويعيش حياة مثالية ، ولكنه أساء تفسير وظيفته على أنه قاض وليس دبلوماسياً ، ورأى أولاً وقبل كل شيء أن الأمر مسألة تتعلق بالنظام الكنسي وضبطه : هل يسمح لراهب أن ينتقد علناً رؤسائه - الذين أقسم أن يدين لهم بالطاعة وأن يدافع عن آراء أدائها الكنيسة ؟ ورفض أن يناقش صحة آراء لوثر أو خطأها وطالبه بأن يسحب أقواله وأن يتعهد ألا يعكس صفو الكنيسة . ولم يستطع أحدهما صبراً على الآخر ، وعاد لوثر إلى فيتنبرج دون أن يتوب وطالب كاجيتان من فردريك أن يرسله إلى روما فأبى فردريك . وكتب لوثر بياناً شائقاً عن المقابلات نشر في أرجاء ألمانيا ، وعند ما قدمه إلى صديقه فينتسل لينك أضاف قائلاً : « أرسل لك عملي النافه لكي ترى ما إذا كنت محطناً في رأيي ، طبقاً لتعاليم بولس ، أن المناهض الحقيقي للمسيحية يسيطر على البلاط الروماني وأنا أعتقد أنه أسوأ من أي تركي » (٢٧). وفي خطاب أكثر اعتدالاً بعث به إلى الدوق جورج طالب بقوله : « يجب القيام بإصلاح ديني عام للطبقات الروحية والزمنية » (٢٨) والمعروف أن هذه هي المرة الأولى التي استخدم فيها الكلمة التي أضفت على ثورته اسمها التاريخي .

واستمر ليو في محاولاته لتتوفيق ، فأصدر نشرة بابوية في التاسع من نوفمبر عام ١٥١٨ أنكر فيها كثيراً من المزاعم المتطرفة التي نسبت إلى صكوك الغفران ، فهذه لا تمحو الآثام أو الذنوب ولكنها تعني فحسب من العقوبات اللدنيوية التي فرضتها الكنيسة - لا الأحكام الزمانيون - أما بالنسبة لإطلاق سراح الأرواح من المطهر فلا سلطة البابا محدودة بصلواته التي يبتهل فيها إلى الله أن يمنح روح ميت البركة الزائدة للمسيح والقديسين . وفي الثامن والعشرين من نوفمبر قدم لوثر طلباً إلى مجاس عام يستأنف فيه حكم البابا . وفي ذلك الشهر نفسه عهد أيو إلى كارل فون ميلتيز ، وهو نبيل من الطبقات الصغرى في روما ، بأن يأخذ « الوردة الذهبية » إلى فرديريك وأن يقوم أيضاً بجهد سلمى للعودة بلوثر « ابن الشيطان » إلى حظيرة الطاعة (٢٩) .

وعند ما وصل ميلتيز إلى ألمانيا دهش عند ما وجد أن نصف أهالي البلد يجاهرون بالعداء للسدة الرومانية وأن من بين كل خمسة من أصدقائه في أوجسبورج ونورمبرج ثلاثة يؤيدون لوثر . وفي ساكسوني كان الشعور المناهض للبابوية قوياً إلى حد أنه تنصل من كل الدلائل التي تشير إلى أنه مبعوث بابوي . وعند ما التقى بلوثر في ألتنبورج (٣ يناير سنة ١٥١٩) وجدته صريحاً يوثر أن يقرع الحججة بالحجة ولا يهاب أخذاً . وربما كان لوثر في هذه المرحلة يتوق في إخلاص إلى الحفاظ على وحدة العالم المسيحي الغربي . وقام بتنازلات كريمة : أن يلزم السكوت إذا التزم خصومه بذلك وأن يكتب رسالة يعلن فيها خضوعه للبابا وأن يقر علناً بصحة الصلوات للقديسين وبحقيقة المطهر وبفائدة صكوك الغفران في الإعفاء من العقوبات الكنسية وأن ينصح الناس بالولاء للمسلم للكنيسة ، وفي غضون ذلك يجب أن تعرض تفاصيل الخلاف على أسقف ألماني يقبله الطرفان (٣٠) للفصل فيها . فسر ميلتيز كثيراً وانطلق إلى ليبتييخ واستدعى تيتزل وعنفه على تطاوله واتهمه بالكذب وخيانة الأمانة وعزله فانزوى تيتزل في دير ومات بعدها بقليل (١١ أغسطس سنة ١٥١٩) وتلقى ، وهو على فراش الموت ، خطاباً

رقيقاً من لوثر يؤكد له فيه أن بيع صك الغفران لم يكن إلا مناسبة وليس سبباً للفتنة و « أن المسألة لم تكن قد بدأت من أجل ذلك ولكن لأن للموضوع الوليد أباً آخر » (٣١) . وفي الثالث من مارس كتب لوثر رسالة إلى البابا يعلن فيها خضوعه التام فرد عليه ليو بروح ودية (٢٩ مارس) ودعاه للحضور إلى روما ليدلى باعترافه ، وعرض عليه مالا لتغطية نفقات رحلته (٣٢) . ومهما تكن من أمر فإن لوثر ، في تناقض صريح كان قد كتب إلى سبالاتان في الثالث عشر من مارس : « إني في حيرة لا أدرى هل البابا مناهض للمسيح أم أنه رسوله » (٣٣) . ورأى في هذه الظروف أن من الأسلم له أن يبقى في فيتنبرج . وهناك كانت الكلية والطلبة والمواطنون يعطفون في الغالب على قضيته ، ولقد أسعده بصفة خاصة أن يلقى التأييد من شاب ألمعي ، عالم بالإنسانيات واللاهوت ، كان قد عينه الأمير المختار عام ١٥١٨ وهو في الحادية والعشرين من عمره لتدريس اللغة اليونانية بالجامعة . وكان فيليب سفارتسرت (الأرض السوداء) قد صبغ اسمه بالهيلينية وغيره إلى ميلانكتون على يد عمه العظيم رويخلين ، كان رجلاً صغير القامة ضعيف البنية ، يعرج في مشيته ، وله تقاطيع لطيفة ، وحاجبان مرتفعان ، وعينان تمان عن الخجل ، وقد أصبح مفكر الإصلاح الديني هذا محبوباً في فيتنبرج إلى حد أن خمسمائة أو ستمائة من الطلبة كانوا يتجمعون في قاعة محاضراته ، بل إن لوثر نفسه الذي وصفه بأنه « يتحلى بكل فضيلة معروفة للإنسان » (٣٤) كان يجلس في تواضع بين تلاميذه . وقال أرازموس : « إن ميلانكتون رجل رقيق الحاشية فحتى أعداؤه يذكرونه بالخير » (٣٥) .

كان لوثر يلذ له الصراع بينما كان ميلانكتون يؤثر المسالمة والتراخي . وكان لوثر يؤنبه أحياناً على أنه حلیم أكثر مما يجب ، إلا أن أنبل بجانب للوثر وأشدّه اعتماداً قد اتضح في حبه الذي لم ينقطع لرجل يختلف عنه في المزاج والسياسة . « لقد خلقت للحرب والقتال مع الأحزاب والشياطين ، ومن هنا فإن كتبي عاصفة خليقة بمحارب . لا بد أن أجتث جذور جنود

الأشجار وبقاياها وأن أنتزع الأشواك وأقلم نباتات الأسوار وأن أردم الحفر ، فأنا خبير بالأحراج وأستطيع أن أقتحم فيها طريقاً وأن أهني الأمور ، أما الأستاذ فيليب فإنه يسير في رفق وهدوء ويفلح الأرض ويزرع ويبنر ويسقى وهو مسرور كما حباه الله في سخاء» (٣٦) .

وثمة أستاذ آخر في فيتنبرج لمع ببريق أشد من بريق ميلانكتون ذلك هو أندرباس بودينشتاين ، المعروف من محل ميلاده باسم كارلشتادت ، وقد انضم إلى هيئة التدريس بالجامعة وهو في الرابعة والعشرين من عمره (١٥٠٤) وفي الثلاثين عين أستاذاً لكرسى الفلسفة التومية واللاهوت . وفي اليوم الثالث عشر من إبريل عام ١٥١٧ سبق احتجاج لوثر التاريخي بنشر ١٥٢ مقالا ضد صكوك الغفران . وكان في مبدأ الأمر معارضاً للوثر ولكنه سرعان ما تحول إلى نصير غيور حتى لقد قال عنه الثائر العظيم « إنه أشد تحمساً مني للأمر» (٣٧) . وعند ما تحدى إليك في كتابه *Obelisci* رسائل لوثر دافع عنها كارلشتادت في ٤٠٦ قضية منطقية وإحدى هذه القضايا المنطقية تحتوى على أول بيان محدد بالألمانية عن الإصلاح الديني الألماني وعن سلطة الإنجيل العليا على مراسم الكنيسة وتقاليدها . فرد إليك وتحداه أن يدخل معه في مناظرة علنية ، فوافق كارلشتادت في الحال وقام لوثر بعمل التدابير اللازمة ، ثم نشر إليك بياناً أورد فيه قائمة بثلاثة عشر مقالا عرض أن يقيم عليها الدليل في المناظرة . وجاء في إحداها « نحن ننكر أن الكنيسة الرومانية لم تكن أعلى من الكنائس الأخرى قبل عهد سيلفستر وقد اعترفنا لشاغل كرسي بطرس بأنه خليفة المسيح ونائبه » . ولكن لوثر وليس كارلشتادت هو الذي أثار في كتابه « قرارات » *Resoluciones* مسألة أن الساطة الرومانية في القرون الأولى من المسيحية لم يكن لها من السلطان ما يزيد على سلطان عدة أساقفة آخرين من أساقفة الكنيسة ، وشعر لوثر بأن هذا التحدى موجه له وزعم أن مقال إليك قد حرره من عهده الذي قطعه على نفسه بالتزام السكوت وقرر أن ينضم إلى كارلشتادت في المباراة اللاهوتية .

وفي يونيو عام ١٥١٩ انطلق المحاربان إلى ليبتيسيج يصبحهما ميلانكتون

وستة أساتذة آخرون ، ورافقهما ٢٠٠ طالب من فيتنبرج في عربات ريفية وهم مسلحون ومسربلون بالدروع وكأنهم مقبلون على معركة ، والحق أنهم كانوا يدخلون أرضاً معادية للوثر . وفي القاعة الكبيرة المفروشة بالطنافس في قلعة بلايسينبورج ووسط جمهرة من المشاهدين المتلهفين وتحت رئاسة الدوق المحافظ جورج صاحب ألبرتين ساكسونى بدأ إيلك وكارلشتادت المناقفة بين القديم والجديد (٢٧ يونية) . ولم يكده أحد في لبيتسبورج يعبأ بأن إمبراطوراً جديداً سوف ينتخب غداً في فرانكفورت الواقعة على المين .

وبعد أن عانى كارلشتادت أياماً من براعة إيلك العالية في المناظرة ناب لوثر عن فيتنبرج . وكان ألمعياً قوى الحججة في النقاش ، ولكنه كان قليل المبالاة إلى درجة التهور ، فأنكر بشدة رئاسة أسقف روما في أيام المسيحية الأولى وذكر أشد مستعميه كراهة بأن الكنيسة الأرثوذكسية اليونانية الواسعة الانتشار لا تزال ترفض سيادة روما ، وعند ما هاجم إيلك رأى لوثر وقال إنه إنما يردد وجهة نظر هس التى أدانها مجلس كونستانس ، رد لوثر بقوله إن المجالس المسكونية يمكن أن تخطيء وأن كثيراً من آراء هس كانت صحيحة وعنده ما انتهى هذا الجدل (٨ يولية) كان إيلك قد وصل إلى غرضه الحقيقى - وهو أن يستدرج لوثر إلى أن يرتكب بنفسه جريمة هرطقة محددة ، فقد تحول الإصلاح الدينى من خلاف صغير حول صكوك الغفران إلى تحد كبير للسلطة البابوية على العالم المسيحى .

وانطلق إيلك إلى روما وقدم إلى السدة البابوية تقريراً عما دار من نقاش وأوصى بجرمان لوثر من غفران الكنيسة ، ولكن ليو لم يكن متمجعلاً إلى هذا الحد إذ كان لا يزال يراوده الأمل فى حل سلمى ثم إنه كان بعيداً جداً عن ألمانيا فلم يدرك مدى ما بلغت الثورة . كما أن مواطنين بارزين مبجلين من أمثال جوهان هولتسشوهر ولازاروس شيبينجلر وفيليبالد بيركهايمر ، دافعوا عن لوثر ودعا ديرر له بالنجاح وكان علماء الإنسانيات يطلقون

وابلا من الكتيبات تطعن في البابوية بكل ما استوعبه العصر من نقد جارح .
وعند ما وصل أولريخ فون هوتن إلى أوجسبورج عام ١٥١٨ تحول بقصائده
ضد نداء ليو يجمع الأموال للحرب الصليبية وأعرب عن أمله في أن يذهب
الحياة إلى الوطن بحقائب خاوية . وعند ما بلغته أنباء المناظرة في ليبتسيج
جى لوثر كمحرر لألمانيا وشرع قلمه ابتداء من ذلك الوقت سيفاً مصلتاً
للدفاع عن الإصلاح ، وانخرط في سلك فرسان فرانتس فون سيكنجن -
الذين كانوا يتلهفون على الثورة - وأغراه على أن يقدم إلى لوثر كل التأييد
والحماية اللتين يمكن لعصبته المسلحة أن تزوده بهما ، ورد لوثر معبراً عن
تقديره الحار ، ولكنه لم يكن على استعداد لاستخدام القوة دفاعاً عن
شخصه .

وفي مارس عام ١٥٢٠ نشر هوتن مخطوطة ألمانية قديمة كتبت في عيد
الإمبراطور هنرى الرابع (حكيم من ١٠٥٦ - ١١٠٦) ، وكانت تؤيد
هنرى في صراعه مع البابا جريجورى السابع ، وأهدى الكتاب إلى الإمبراطور
الشاب شارل الخامس إشارة إلى أن ألمانيا تتوقع منه أن ينتقم لإذلال هنرى
وهزيمته . وقال هوتن إن تحرير ألمانيا من روما أشد إلحاحاً من صد الأتراك .
« في الوقت الذى رأى فيه أجدادنا أنه لا يخلق بهم أن يخضعوا للرومان
عندما كان هؤلاء أعظم أمة حربية في العالم نجد أننا لا نخضع هؤلاء العبيد
المخثين المنغمسين في حماة الشهوة والترف فحسب بل إننا نعرض أنفسنا
للاغتصاب ونهبيهم إرضاء شهواتهم الحسية » (٣٨) . وفي إبريل عام ١٥٢٠
أصدر هوتن أول سلسلتين من *Gesprache* وهو محاورات منظومة لعبت
دوراً لا يفوقه إلا مؤلفات لوثر ، وذلك في الإعراب عن الرغبة القومية في
الاستقلال عن روما واستنهاضها ووصف روما بأنها : « دودة ضخمة تمتص
الدماء » . وصرح بأن « البابا زعيم لص وأن غضابته تحمل اسم الكنيسة . . .
وروما بحر من الدنس وحماة من القذارة وبالوعة ليس لها قرار من الظلم .

ألا يجدر بنا أن نتقاطر من كل حذب وصوب لنقوم بإزالة هذه اللعنة الشائعة التي حاقت بالبشرية ؟ » (٣٩) ، وأقام أرازموس الحججة مع هوتن ليلطف من أسلوبه وحذره وديماً بأنه في خطر وعرضة للقبض عليه . واختبأ هوتن نفسه في قلاع سيكينجن واحدة إثر أخرى ولكنه استمر في حملته . وبصح الأمير المختار فرديك باستيلاء السلطة الزمنية على كل ثروة الأديرة ، وأوضح الوجوه السامية التي يمكن لألمانيا أن تنفق فيها الأموال التي ترسل سنوياً إلى روما (٤٠) .

ولكن مركز الحرب ظل في فيتنبرج الصغيرة . وفي ربيع عام ١٥٢٠ نشر لوثر موجزاً به ملاحظات عنيفة استشهد بها أحدث المزارع التي لا تلين والتي يرددها علماء اللاهوت المحافظون عن سيادة البابوات وسلطانهم . وقابل لوثر التطرف بالتطرف : « إذا كانت روما تؤمن وتعلم بمعرفة البابوات والكرادلة (التي أرجو ألا تكون تلك هي الحالة) فلن أعلن بحرية في هذه الكتابات بأن المناهض للمسيحية الحقيقي يجلس في معبد الرب ويحكم في روما - بابل هذه المصيوغه بلون الأرجوان - وأن مجلس تلك العشيرة الرومانية هو هيكل الشيطان . . . وإذا استمر هياج أنصار روما على هذا النحو فلن يكون أمامنا من علاج سوى أن يتولى الأباطرة والملوك والأمراء ، تحيط بهم القوة والأسلحة ، مهاجمة هذه الأوبئة في العالم وحسم الأمر بالسيف لا بالكلمات . . . وإذا كنا نقضى على اللصوص بالمشانق ونضرب أعناق الناهيين بالسيوف ونلقى بالهراطقة في النار فلماذا لا نهجم أيضاً بالأسلحة أساتذة الدمار هؤلاء ، أعني هؤلاء الكرادلة وهؤلاء البابوات وكل هذه البالوعة من سدوم الرومانية التي أفسدت كنيسة الرب بلا حدود ، ونغسل أيدينا في دماهم ؟ » (٤١) .

وأصدر كارلشتادت فيما بعد في العام نفسه « كتيباً » *De Canonicis Scripturis libelus* جعل فيه الكتاب المقدس يعلو على البابوات والمجالس

الدينية والتقاليد والأنجيل أعلى من الرسائل الإنجيلية ، ولو أن لوثر اتبع هذا الخط الأخير لكانت البروتستانتية قد أصبحت أقل بولسية وأوغسطينية وجبرية كان كتاب libellus على رأس عصره في الشك في تأليف مؤس للأسفار الخمسة (التوراة) وصحة الأنجيل ولكنه كان ضعيفاً في حجته الرئيسية : فقد قرر صحة الكتب الإنجيلية أستناداً إلى الروايات المأثورة عن القرون الأولى ثم رفض الرواية التي تؤيد الكتب الثابتة على هذا النحو .

وتشجع لوثر بتأييد ميلانكتون وكارلشتادث وهوتن وسيكنجن فكتب إلى سبالتان (١١ يونية سنة ١٥٢٠) : « لقد ألقيت الزرد . وأنا أحتقر الآن غضب الرومان بقدر ما احتقر رضاهم . ولن أهادنهم إلى الأبد . . . فليدينوا ويحرقوا كل ما يمت لي بصلته ، وأنا في مقابل هذا سوف أفعل لهم الكثير . . . إنى لم أعد اليوم أخشى أحداً وسوف أنشر كتاباً باللغة الألمانية عن الإصلاح المسيحي وهو موجه ضد البابا بلهجة عنيفة كما لو كنت أوجهها إلى مناهض للمسيحية » (٤٢) .

٤ - نشرات بابوية ملتهبة

أصدر ليو العاشر في اليوم الخامس عشر من شهر يونية عام ١٥٢٠ بشرة أدان فيها واحداً وأربعين بياناً للوثر ، وأمر بأن تحرق علناً مؤلفاته التي ظهرت فيها ، وأنذر لوثر بأن يتراجع عن أخطائه وأن يعود إلى حظيرة الدين . وإذا رفض أن يأتي إلى روما في خلال ستين يوماً ويسحب أقواله علناً فإنه سوف يبتز من عضوية العالم المسيحي بحرمانه من غفران الكنيسة ، وسوف يعرض عنه كل المؤمنين باعتباره هرطيقاً ، وسوف تتوقف العبادة في جميع الأماكن التي يقيم فيها ، وعلى جميع السلطات الزمنية أن تطرده من أملاكها أو تسلمه إلى روما

وأعلن لوثر نهاية عهد التسامح بنشر أول كتاب من الكتيبات الثلاثة

التي كوّنت برنامج الثورة الدينية . وكان حتى هذا الوقت قد كتب باللغة اللاتينية مخاطباً الطبقات المستنيرة ، أما الآن فإنه كتب باللغة الألمانية — كوطني ألماني — خطاباً مفتوحاً إلى أشرف الأمة الألمانية المسيحيين بشأن إصلاح طبقة رجال الدين ، وشمل نداءه « استغاثة بالنييل الشاب » الذي كان قد اختير منذ عام إمبراطوراً باسم شارل الخامس « وأنعم به الله علينا ليكون زعيماً لنا وبهذا يعش في كثير من الأفتدة آمالاً كباراً في الخير » (٤٣) . وهاجم لوثر « الجدران الثلاثة » التي شيدها البابوية حول نفسها وهي : التمييز بين رجال الأكليروس والعلمانيين وحق البابا في أن يفسر الكتاب المقدس على هواه ، وحقه المطلق في دعوة مجلس عام للكنيسة ، وقال لوثر إن كل هذه الدعاوى الدفاعية يجب أن تهدم . فأولا ليس هناك فرق حقيقي بين رجال الإكليروس والعلمانيين إذ أن كل مسيحي ينصب قساً بالتعميد ومن ثم فإن على الحكام الزميين أن يمارسوا سلطاتهم « دون عائق أو اعتراض بغض النظر عما إذا كانوا يسيئون إلى البابا أو الأسقف أو القس . . . وكل ما بص عليه القاتون الكنسي مما يناقض ذلك من خالص بنات أفكار الوقاحة الرومانية » (٤٤) . وثانياً بما أن كل مسيحي يعد قساً فإن له الحق في أن يفسر الكتب المقدسة طبقاً لما يراه (٤٥) . وثالثاً : يجب أن يكون الكتاب المقدس مرجعنا الأخير للعقيدة أو أداء الشعائر فالكتاب المقدس لا يقدم أية بيئة على حق البابا المطلق في دعوة مجلس . وإذا كان ينشد بالحرمان من غفران الكنيسة أو التحريم أن يمنع مجلساً ، « فإننا يجب أن نستخف بسلوكه كأنه تصرف رجل مجنون ونقدفه بجرمانه معتمدين في ذلك على الله ونقمته بقدر الإمكان » (٤٦) . ويجب دعوة مجلس في أقرب وقت وعليه أن يفحص المفارقة الفظيعة في أن زعيم العالم المسيحي يعيش في ترف دنيوى يفوق ما يحلم به أى ملك ولا بد أن يضع هذا حداً لاستيلاء رجال الدين الإيطاليين على التبرعات الألمانية وأن يقلل إلى واحد في المائة من « زمرة الهوام » الذين يشغلون في روما مناصب دينية تدر عليهم دخلاً دون أن يؤدوا عملاً ويعيشون بصفة أساسية على الأموال التي يسلبونها من ألمانيا .

« لقد قرر البعض أن أكثر من ٣٠٠,٠٠٠ جولدن تجد طريقها كل عام من ألمانيا إلى إيطاليا . . . وها نحن أولاء نصل الى لب الموضوع . . . كيف يتأتى أن يكون لزاماً علينا نحن الألمان أن نتسامح في مثل هذه السرقة ومثل هذا السلب لأملاكنا على يدى البابا ؟ . . . وإذا كنا بحق نشق اللصوص ونضرب أعناق السارقين بالإكراه فكيف نسمح للشهه الرومانى أن يفلت من العقاب ؟ ذلك لأنه أكبر لص وسارق بالإكراه جاء أو يمكن أن يجيء إلى العالم بل وشهرهم قاطبة بالاسم المقدس للمسيح والقديس بطرس ومن في وسعه بعد هذا أن يتحمل أو يلزم البسكوت ؟ » (٤٧) .

لماذا يتحتم على الكنيسة الألمانية أن تدفع هذه الجزية الدائمة إلى سلطة أجنبية ؟ فليتخلص رجال الدين الألمان من تبعهم لروما ولينشثوا كنيسة قومية تحت زعامة كبير أساقفة ماينز . إن أوامر الاستجداء يجب أن تقل ويجب أن يسمح للقساوسة بالزواج ويجب ألا تؤخذ عهود الرهبنة قبل سن الثلاثين ، وأن تلغى التحاريم والحج وشعائر القديس على أرواح الموتى . . . والعطلات (ما عدا أيام الآحاد) وعلى الكنيسة الألمانية مصالحة المسيحين في بوهيميا ، إن هس أحرق دون أن يشفع له حصوله على جواز الأمان من الإمبراطور ، وفي أية حال فإننا « يجب أن نتغلب على الهراطقة بالكتب لا بالحرق » (٤٨) « ويجب أن يبيد كل هانون كنسى وألا يكون هناك إلا قانون واحد يطبق على رجال الدين والعلمانيين على السواء — يجب علينا فوق كل شىء أن نطرد من الأراضى الألمانية مبعوثى البابا بكل ما لهم من « قوى » — وهى التى يبيعونها لنا مقابل مبالغ كبيرة من المال — لإقرار الأرباح الجائرة ، للتحلل من الأقسام والعهود والاتفاقيات بحجة أن البابا له سلطة القيام بهذا العمل — وإن كان هذا خداعاً لا مراء فيه . . . وإذا لم يكن هناك أضايل خبيثة أخرى لإثبات أن البابا هو المناهض الحتمى للمسيحية فإن هذا الشىء يكفى لإثبات هذا . أسمع هذا أيها البابا ، ولا أقول أقديس الرجال بل أكبرهم إثماً ؟

ثق بأن الله رب السموات سوف يقوض عرشك قريباً ويغرقه في هاوية
الجحيم . . . يا سيدي المسيح أطل علينا من عليائك ودع يوم قصاصك
يشرق ودمر عش الشيطان في روما! (٤٩)

وأصبح هذا المهجوم العنيف الذي قام به رجل ضسد سلطة تشمل كل
أوروبا الغربية ، حديث ألمانيا ، فالخدرون من الرجال عدوه من قبيل الإفراط
والتهور وعده الكثيرون من بين أعظم الأفعال البطولية في تاريخ ألمانيا .
وسرعان ما نفذت أول طبعة من كتاب « خطاب مفتوح » وشغلت مطابع
فيتنبرج بإخراج طبعات جديدة . وكانت ألمانيا مثل إنجلترا ، مهياة لتقبل
الدعوة إلى القومية ولم يكن هناك إبان هذا العهد دولة اسمها ألمانيا على الخريطة
ولكن كان هناك ألمان بدأوا يشعرون بأنفسهم كشعب . وبما أن هس قد أكد
وطنيته البوهيمية ، وبما أن هنرى الثامن لم يذبذ العقيدة الكاثوليكية بل رفض
أن يمتد سلطان البابا إلى إنجلترا ، فإن لوثر وقتذاك زرع بذرة الثورة لافي
صحارى اللاهوت بل في الأرض الخصبة لروح ألمانيا القومية وحيثما فازت
البروتستانية حملت القومية العلم .

وفي سبتمبر عام ١٥٢٠ أصدر إيلك وجيروم الياندر منشور الحرمان
من غفران الكنيسة في ألمانيا فرد عليهم لوثر الطعنة بإصدار بيان ثان هو :
« الأسر البابلي للكنيسة » (٦ أكتوبر) ولما كان موجهاً إلى علماء اللاهوت
والدارسين فإنه عاد إلى الكتابة باللاتينية ، ولكن سرعان ما ترجم البيان وكان
له تأثير عظيم على العقيدة المسيحية قارب تأثير « خطاب مفتوح » على التاريخ
الديني والسياسي . فكما قاسى اليهود طويلاً من الأسر في بابل فإن الكنيسة
كما أنشأها المسيح ، وكما نص عليها في العهد الجديد قد تعرضت للأسر
ما يزيد على ألف عام تحت حكم البابوية في روما . وفي خلال تلك الفترة
تعرض دين المسيح إلى الفساد في الإيمان والأخلاقيات والشعائر . وبما أن
المسيح قد أعطى حواريه نبيلاً وخبزاً في العشاء الأخير فإن المهسين كانوا

على حق فيما ذهبوا إليه : إذ يجب أن يناول القربان المقدس بكل الشككين كما يشاء الناس ، والقس لا يغير الخبز والتبند إلى جسد ودم المسيح ، فليس هناك قس يملك هذه القدرة الصوفية ، ولكن المسيح سيجيء روحياً ومادياً لكل من يتناول القربان المقدس لا عن طريق أى تحول معجز على يد أحد القساوسة بل سيجيء بإرادته وبقوته ، فهو حاضر في القربان المقدس مع الخبز والتبند عن طريق التجاسد لا عن طريق التجسيم^(٥٠) . ورفض في هلع الفكرة التى تذهب إلى أن القس يقدم المسيح إلى أبيه في القداس قرباناً للتكفير عن خطايا البشر ولو أنه لم يجد ما يفرعه في الفكرة التى تقول إن الرب قد سمح للبشر بأن يصلبوا الرب قرباناً للرب تكفيراً عن خطايا البشر .

وأضاف بعض المستحدثات الأخلاقية إلى هذه الأمور الدينية التى تدق على الفهم ، فالزواج ليس قرباناً مقدساً لأن المسيح لم يقطع على نفسه عهداً بأن يثبت فيه الرحمة الإلهية وقال « إن زيجات الأقدمين لم تكن نقل قداسة عن زيجاتنا كما أن زيجات الكفار ليست أقل صحة من زيجاتنا »^(٥١) . وعلى ذلك يجب ألا يحرم الزواج بين المسيحيين وغير المسيحيين « فكما آكل وأشرب وأنا مأمى وأمشى وأتعامل مع وثني أو يهودى أو تركي أو هرطيقى فإن في وسعى أن أتزوج من أى واحدة من نسائهم ، فلا تبالوا بالقانون الذى سنه الأحق لتحريم هذا إن الشخص الوثني سواء كان رجلاً أو امرأة خلقه الله كما خلق القديس بطرس والقديس بولس والقديسة لوسى »^(٥٢) . وأى امرأة تزوج من رجل عنين يجب أن يسمح لها ، إذا وافق زوجها ، بأن تضامع رجلاً آخر لكي تنجب منه طفلاً ويجب أن يسمح لها بأن تدعى أن الطفل هو ابن زوجها وإذا أبى الزوج فإنها تستطيع بحق أن تطاق منه . ومع ذلك فإن الطلاق مأساة لانهائية لها ، ولعل تعدد الزوجات خير منه^(٥٣) . ثم أضاف لوثر التحدى إلى الهرطقة وانتهى إلى أن يقول « إنى أسمع إشاعة تقول إن نشرات بابوية جديدة ولعنات بابوية ترسل ضدى تتضمن حثاً على سحب أقوالى »^(٥٤) . . .

وإذا كان هذا حقاً فإني أود أن يكون هذا الكتاب جزءاً من الإنكار الذى أقوم به .

وكان حرياً بمثل هذه السخرية أن تزيع ميليتيز عن حلمه بالمهادنة . ومع ذلك فإنه سعى مرة أخرى إلى لوثر (١١ أكتوبر سنة ١٥٢٠) وأقنعه بأن يرسل للبابا ليو خطاباً يتصل فيه من أى قصد فى مهاجمته شخصياً ويعرض القضية باعتدال للإصلاح وسوف يحاول ميليتيز من جانبه أن يكفل له إلغاء النشرة فما كان من لوثر البالغ من العمر سبعة وثلاثين عاماً « والفلاح ابن الفلاح » كما كان يدعو نفسه مفاخرأ ، إلا أن كتب خطاباً لم يضمته اعتذاراً بل نصيحة أبوية تقريباً إلى خليفة القديس بطرس وسليل آل مدينتشى البالغ من العمر خمسة وأربعين عاماً . وأعرب عن احترامه للبابا كفرد ولكنه استنكر فى غير هوادة فساد البابوية فى الماضى والمحكمة البابوية فى الحاضر : « إن ما تتمتع به من سمعة وشهرة فى حياتك الطاهرة الذليل أمر معروف تماماً وأسمى من أن يكون مجالاً للهجوم . . . ولكن سدتك البابوية التى تسمى المحكمة الرومانية والتى لا يمكنك أنت أو أى إنسان أن تنكر أنها أكثر فساداً مما كان عليه أهل بابل أو سدوم والتى بقدر ما أستطيع أن أرى ، تتسم بنخب غوى لا أمل فيه قبيح الصيت - فهذه السدة أنا أزدرها . . . ولقد أصبحت الكنيسة الرومانية أكبر وكر داعر للصوص وأعظم المواخير التى يندى لها الجبين ومملكة الإثم والموت والجحيم . . . واطلما ساءنى يا صاحب المقام السامى ليو إنك تنصب بابا فى هذه العهود لأنك خليق بأيام خير منها . . .

« ولذلك أرجو » يا عزيزى ليو ألا تستمع إلى تلك الأقوال المعسولة التى لا تجعلك بشراً سوياً وترفعك إلى مصاف أنصاف الآلهة لكى تأمر . . . بما تشاء فأنت خادم الإجراء وبعد كل الرجال الآخرين فى مركز خطير يرثى له . فلا يخدعك هؤلاء الذين يدعون أنك سيد العالم . . . الذين

يهرقون بأن لك سلطاناً على السماء والجحيم والمطهر . . . إن الذين يعلنون قدرتك فوق المجلس وفوق الكنيسة العالمية يخطئون . والذين ينسبون إليك الحق في تفسير الكتاب المقدس يخطئون لأنهم ينشدون تحت ستار اسمك أن يرسوا قواعد خبثهم في الكنيسة ، ومما يؤسف له أن الشيطان من خلالهم قد أحرز نجاحاً تحت حكم أسلافك . والخلاصة لا تصدق أحداً يعلى من قدرك ، وصدق هؤلاء الذين يضعون من شأنك (٥٥) .

وأرسل لوثر مع هذا الخطاب ثالث بياناته وأطلق عليه اسم «عجالة في الحرية المسيحية» (نوفمبر عام ١٥٢٠) وشعر بأنه « ما لم أكن مخدوعاً فإنها الحياة المسيحية بأسرها في شكل موجز» (٥٦) . وعبر هنا باعتدال يخلو من الرقة عن مذهبه الأساسي - أن ذلك الإيمان وحده لا الأعمال الصالحة هي التي تخلق المسيحي الصادق وتخلصه من عذاب النار . لأن الإيمان بالمسيح هو الذي يجعل الإنسان صالحاً وأعماله الصالحة تترتب على ذلك الإيمان . « فالشجرة تحمل الثمار أما الثمرة فلا تحمل الشجرة» (٥٧) . والإنسان القوي الإيمان بالله والذي يكفر عن تضحية المسيح لا ينعم بجزية الإرادة فحسب ولكن بنعم بأعمق الحريات كلها : التحرر من نداء الجسد ومن كل القوى الشريرة ومن اللعنة الأبديّة بل ومن القانون لأن الإنسان الذي تتدفق فضيلته تلقائياً من إيمانه في غنى عن الأوامر بالاستقامة (٥٨) . ومع ذلك فإن هذا الإنسان الحر يجب أن يكون خادماً لكل الناس لأنه لن يكون سعيداً إذا عجز عن عمل كل ما في وسعه لإنقاذ الآخرين كما ينقذ نفسه . إنه بالإيمان يرتبط بالله وبالحب مع جاره . وكل مسيحي مؤمن يعد قسماً يقوم بالخدمات الدينيّة .

وبينما كان لوثر يكتب تلك الرسائل التاريخية كان إريك والياندر يواجهان الثورة الدينيّة مباشرة وأحرزوا نجاحاً في إعلان بشرة الحرمان من غفران الكنيسة في مايسين ومرسيبورج وبراندنبورج ، أما في نورمبرج فانهما

لم يستخلصا إلا الاعتذارات من بيركهaimer وشينجلر وفي ماينز طرد كبير أساقفتها ألبرخت من بلاطه هوتن بعد أن هادن فترة الإصلاح الديني وسجن طابعي كتب هوتن وصودرت كتب لوثر في أنجولستادت وأحرقت في ماينز ولوفان وكولونيا ، ولكن في ليبتسيج وتورجاو وديبيلين لطخت النشرة المعلقة بالقساوة ومزقت وفي أرفورت انضم كثير من الأساتذة ورجال الدين في رفض عام للاعتراف بالنشرة ، وألقى الطلبة بكل ما وصل إلى أيديهم من النسخ في النهر ، وأخيراً فر إيده من المسرح الذي شهد انتصاراته قبل ذلك بعام (٥٩) .

وندد لوثر بالإعلان في سلسلة من الكتيبات التي تقطر مرارة وفي إحدى هذه الكتيبات أعلن موافقته الكاملة على آراء هس ، وحوالي ٣١ من أغسطس عام ١٥٢٠ استغاث بالإمبراطور طالباً الحماية مثل « برغوث واحد يجرؤ على مخاطبة ملك الملوك » وفي السابع عشر من نوفمبر نشر استغاثته رسمية من البابا بمجلس للكنيسة . وعند ما علم أن مبعوثي البابا يحرقون كتبه قرر أن يرد عليهم بالمثل ؛ فأصدر نداء إلى الشباب التقى المثقف في فيتنبرج لكي يتجمع خارج بوابة « الستر » في المدينة صباح يوم ١٠ ديسمبر ، وهناك أمسك بيديه نشرة البابا وقذف بها في النار مع بعض المراسيم الكنسية ومجلدات من لاهوت أصحاب الفلسفة الكلامية ، ورمز في عمل واحد إلى رفضه للقانون الكنسي وفلسفة الاكوييني وكل سلطة للكنيسة تأخذ بسياسة القمع . وجمع الطلبة كتباً أخرى من نفس النوع في ابتهاج وألقوا بها في النار لتظل مشتعلة حتى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم . وفي الحادي عشر من ديسمبر أعلن لوثر أنه لا يمكن لإنسان الخلاص ما لم يتبرأ من حكم البابوية (٦٠) وهكذا حرم الراهب البابا من غفران الكنيسة .

٥ - المجلس النيابي في ورمس

ولقد ظهر على المسرح وقتذاك ممثل ثالث قام منذ تلك اللحظة بدور كبير استمر ثلاثين عاماً وذلك في الصراع بين اللاهوت والحكومات .
ولسوف يفرض نفسه على سردنا التاريخي في اثني عشر فصلاً أو يزيد .
واستهل الرجل ، الذي قدر له أن يصبح الإمبراطور شارل الخامس ، سيرته بميزات ملكي وإن يكن مدنساً ، فجده من جهة أبيه الإمبراطور ماكسميليان وجدته ماري البورغندية ابنة شارل الحسور ، وجده من جهة أمه فرديناند وجدته إيزابلا ، أما أبوه فهو فيلب الجميل ملك قشتالة الذي ارتقى العرش في السادسة والعشرين ومات وهو في الثامنة والعشرين من عمره ، وأمه هي جوانا لالوكا التي جنت عندما بلغ شارل السادسة ، وعاشت حتى بلغ الخامسة والخمسين من عمره . وقد ولد في غنت (٢٤ فبراير سنة ١٥٠٠) ونشأ في بروكسل وظل فلمنكي اللسان والطبع إلى أن اعتزل الحكم نهائياً في إسبانيا . ولم تغفر له هذا إسبانيا ولا ألمانيا ولكنه بمرور الوقت تعلم الحديث بالألمانية والأسبانية والإيطالية والفرنسية ، وكان يستطيع أن يلتزم الصمت في اللغات الخمس . وحاول أدريان الأوترختي أن يعلمه الفلسفة ولكنه لم يصب نجاحاً يذكر ، وتلقى على يدي هذا الأسقف الصالح تأديباً صارماً ، يتفق مع عقيدة المستمسكين بأهداب الدين ، وربما تشرب مع ذلك في منتصف العمر نزعة شك خفية من مستشاريه ورجال بلاطه الفلمنكيين الذين شاع بينهم قدر يكتنفه الرضا من عدم المبالاة بالعقيدة على طريقة أرازموس .

ولكنكم شكوا بعض التساوسة من إطلاق حرية الرأي الديني بين حاشية شارل (٦١) . واعتصم بالتقوى ولكنه عكف على دراسة فن الحرب . وقرأ كومينيس وتعلم في مرحلة الطفولة حيل الدبلوماسي . وعدم تمسك الدول بالأخلاق . وعند وفاة أبيه (١٥٠٦) ورث الفلاندرز وهولنده وكونتيه فرانش وادعاء الحق في حكم برغايا . ولما بلغ الخامسة عشرة من عمره نهض

بمستولية الحكم ووقف نفسه على الإدارة ، وفي السادسة عشرة أصبح شارل الأول ملك إسبانيا وصقلية وساردينيا وناپلى وأمريكا الإسبانية ، وفي التاسعة عشرة طمح إلى أن يصبح إمبراطوراً ، وكان فرانسيس الأول ملك فرنسا يصبو إلى الشرف نفسه في ذلك الوقت أيضاً ، وسر الأمراء المختارون الإمبراطوريون بدمائه أخلاقه إلا أن شارل أنفق ٨٥٠,٠٠٠ فلورين ليكسب هذه المباراة واستطاع أن يفوز بها (١٥١٩) . واضطر في سبيل جمع هذا المبلغ الطائل إلى أن يقترض مبلغ ٥٤٣,٠٠٠ فلورين من آل فوجر ، وهكذا أصبح شارل (٦٢) منذ ذلك صديقاً لآل فوجر ، كما أصبح آل فوجر أوفياء له ، ولكنه لما تأخر في سداد القرض أرسل له جاكوب فوجر الثاني مذكرة حادة اللهجة : من المعروف جيداً أن جلالتهكم ما كنتم تستطيعون الحصول على الشرف الإمبراطوري لولا مساعدتي وفي وسعي أن أثبت ذلك بالبيانات المسجلة من جميع المندوبين ولم أنشد في هذا منفعتي الخاصة . . . وإلى أطلب بكل احترام أن تفضلوا . . . بإصدار الأمر بإعادة المبلغ الذي كنت قد دفعته هو والفائدة دون تأخير (٦٣) .

وواجه شارل جانباً من التزامه بمنح آل فوجر حق الاستيلاء على رسوم الجمارك في ميناء أنتورب (٦٤) ، وعند ما أوشك آل فوجر على الخراب نتيجة لغزوات الأتراك لهنغاريا هب لنجدتهم بمنحهم حق الإشراف على المناجم الإسبانية (٦٥) ، ومنذ ذلك الوقت صار مفتاح كثير من التاريخ السياسي « فتش عن المصرفي » .

وهذا الفتى الذي وجد نفسه في التاسعة عشرة من عمره زعيماً بالاسم لكل وسط أوروبا وغربها ما عدا إنجلترا وفرنسا والبرتغال والولايات البابوية قد يميز بالصحة الضعيفة التي ضاعفت من تقلباته . . . كان صاحب الوجه قصير القامة ، تبدو عليه البساطة ، له أنف حاد أفنى ، وذقن يتم على التحدى ، خافت الصوت رصين السمات ، وكان رقيق القلب لطيف، المعشر بطبعه ، ولكنه سرعان ما تعلم أن الحاكم يجب أن يحافظ

على المسافة والاتجاه ، وأن السكوت نصف الدبلوماسية ، وأن روح الفكاهة الصريحة تكدر عبير جلال الملك . وعند ما التقى به ألياندر عام ١٥٢٠ كتب إلى ليو العاشر يقول : « في رأي أن هذا الأمير قد وهب . . . فطنة تفوق عمره وأنه يخفى في رأسه أكثر مما يبدو على وجهه » (٦٦) . ولم يكن متوقفاً الذكاء إلا في الحكم على الرجال — مما يكسبه نصف المعركة ، وكان يرتفع إلى مستوى الأزمات التي تواجهه بالجهد الجهد — بيد أن ذلك كان يتكلف الكثير حقاً . ثم إن استمرار وهنه في الجسم والعقل . . . يتر إلى أن يتأزم الموقف ويضطره إلى اتخاذ قرار حاسم وعندئذ يواجهه بعزم مفاجيء وإصرار يتسم بالدهاء . كانت الحكمة تواتيه لا بالسليقة ولكن بالتجارب .

وفي الثالث والعشرين من أكتوبر عام ١٥٢٠ انطلق شارل الخامس : ولم يكن أكبر سنّاً من القرن الذي وجد فيه ، إلى مدينة آخن بلدة شارلمان ليتوج فيها ، وانطلق الأمير المختار فرديريك لحضور الحفل ولكنه اضطر إلى التوقف في كولونيا بسبب داء النقرس ، وهناك قدم له الياندر التماساً آخر للقبض على لوثر ، فإكان من فرديريك إلا أن استدعى أرازموس وطلب منه النصيحة ، فدافع أرازموس عن لوثر وأشار إلى أن هناك عيوباً صارخة في الكنيسة ، وقال إن الجهود التي تبذل لإصلاحها يجب ألا تقمع ، وعندما سأله فرديريك ما هي الأخطاء الرئيسية التي ارتكبها لوثر أجاب : « خطأين : هاجم البابا في تاجه ، والرهبان في بطونهم » (٦٧) . وناقض صحة النشرة البابوية ، وقال إنه يرى أنها لا تتفق مع ما عرف به ليو العاشر من رقة الحاشية (٦٨) وأبلغ فرديريك القاصد الرسول أن لوثر قدم التماساً وأن لوثر يجب أن يظل طليقاً إلى أن يبت في هذا الالتماس .

ورد الإمبراطور بالجواب نفسه . . . كان قد وجهه الأمراء المختارين كشرط لانتخابه ، ألا يدان ألماني دون محاكمة عادلة في ألمانيا . ومهما يكن من أمر فإن مكانته جعلت — مذهب المحافظة على الدين لا مندوحة عنه .

وكانت أسبانيا تعترف به ملكاً عليها اسماً أكثر من اعتراف ألمانيا به
لإمبراطوراً عليها وهي بلد ينفر من نظام الحكم المركزي ، ولم يعد رجال الدين
في اسبانيا يهتمون طويلاً ملكاً يترفق بالهراطقة . يضاف إلى ذلك أن الحرب
مع فرنسا كانت تلوح في الأفق ولسوف يدور القتال حول ميلان باعتبارها
مغماً ، ومن هنا كان تأييد البابا يساوى جيشاً بأسره . . . كانت الإمبراطورية
الرومانية المقدسة مرتبطة بالبابوية بمائة وشيعة ، وليس من شك في أن
مقووط لإحداها سوف يلحق بالأخريات ضرراً بليغاً فكيف يستطيع الإمبراطور
أن يحكم مملكته المتناثرة المتباينة دون أن يلقي العون من الكنيسة في النظام
الأخلاقي والإدارة السياسية ؟ كان كبار وزرائه إلى ذلك الوقت من
رجال الدين كما أنه كان في حاجة إلى أموال الكنيسة ونفوذها لحماية
هنغاريا من الأتراك .

كان شارل يقلب في ذهنه هذه المشاكل على اختلافها ، وكانت تشغله
أكثر من مسألة راهب مشاكس ، فدعا مجلساً نيابياً إمبراطورياً لعقد اجتماع
في ورمس ، ولما اجتمع هناك كبار النبلاء ورجال الدين ممثلو المدن الحرة
(٢٧ يناير عام ١٥٢١) إذا بلوثر هو الموضوع الرئيسي في المناقشة وليس
من شك في أن القوى التي كانت تعد الإصلاح الديني خلال قرون بلغت
أوجها في مسرح من أعظم المسارح الدرامية في التاريخ الأوروبي . ويقول
مؤرخ كاثوليكي : « لقد امتدحت الطائفة العظمى لنبل الألمان محاولات لوثر
وأيدتها » (٦٩) . بل إن الياندر نفسه كتب تقريراً قال فيه : « إن ألمانيا بأسرها
ترفع السلاح ضد روما والعالم كله يصرخ مطالباً بمجلس يجتمع على الأرض
الألمانية . ولقد أصبحت النشرات البابوية التي تنص على الحرمان من غفران
الكنيسة تثير السخرية وامتنع عدد كبير من الناس عن تناول القربان المقدس
للتكفير . . . أما مارتن فإنه يصور وفوق رأسه هالة ويقبل الناس هذه
الصورة . ولقد بيعت منها مقادير هائلة حتى أتى عجزت عن الحصول على

صورة واحدة . . . وأنا لا أستطيع أن أخرج إلى الطرقات خشية أن يرفع الألمان سيوفهم في وجهي ويصرون بأسنانهم غضباً عند رؤيتي . ولاني لأرجو من البابا أن يمنحني صك غفران كامل وأن يرعى لإخوتي وأخواتي إذا أصابني مكروه» (٧٠) .

وهبت عاصفة من الكتيبات المناهضة للبابوية زادت من الإثارة وقال ألياندر في أسى أن عربة لا تسع كل هذه المقالات البذيئة . وأصدر هوتن ، من قلعة سيكينجن في إيرنبورج على بعد أميال قليلة من ورمس ، نشرة تضمنت هجوماً محموداً ضد رجال الدين الألمان : « اذهبوا أيها الخنازير القذرة . . . ارحلوا عن الهيكل المقدس أيها التجار المتبدلون ولا تلمسوا المذابح بأيديكم الدنسة . . . كيف تجروون على إنفاق المال المخصص لأغراض دينية في مظاهر الترف وفي التبذل والأبهة بينما الناس الشرفاء يتضورون جوعاً ؟ لقد فاضت الكأس . ألا ترون أن نسمة الحرية قد بدأت تهب ؟ » (٧١) وكان تعاطف الناس مع لوثر قوياً إلى حد أن كاهن الاعتراف عند الإمبراطور الراهب الفرنسيسكاني جان جلابيون اختلى بجورج سبالاتان راعي كنيسة فردريك في محاولة للتوفيق بين الطرفين . وأعرب عن عطفه الكبير على كتابات لوثر الأولى ، ولكن « الأسر البابلي جعله يشعر » كما لو كان قد جلد بالسياط وضرب بمقبض السيف من قمة رأسه إلى أخمص قدميه . . . وأشار إلى أنه لا يمكن أن يقوم أساس سليم لعقيدة دينية تعتمد على الكتاب المقدس لأن « الإنجيل يشبه شمعاً طرياً يستطيع كل إنسان أن يفتله أو يطمه على هواه » . وسلم بالحاجة الملحة إلى إصلاح كهنوتي ، والحق أنه كان قد حذر إمبراطوره التائب من أن « الله سوف يعاقبه هو وكل الأمراء إذا لم يحرروا الكنيسة من مثل هذه المساوئ التي تنطوي على الغرور » . ووعده بأن شارل سوف ينجز الإصلاحات الكبرى خلال خمس سنوات . وحتى ذلك الوقت وبعد كل تلك الثورات اللوثرية المرددة كان يعتقد أن السلام ممكن إذا تراجع لوثر عما قاله (٧٢) . ولكن لوثر أبى عنده ما أخطر بذلك في فيتنبرج . . .

وفي الثالث من مارس قدم ألياندر إلى المجلس النيابي (الدايت) اقتراحاً بالإدانة الفورية للوثر فاحتج المجلس بأن الراهب يجب ألا يدان دون سماع أقواله ، وعلى ذلك وجه شارل دعوة إلى لوثر للحضور إلى ورمس ليؤدي الشهادة عن تعاليمه وكتبه . وكتب له يقول : « لا حاجة بلث إلى الخوف من التعرض لأي عنف أو إزعاج لأننا أعطيناك جواز الأمان » (٧٣) . وتوسل أصدقاء لوثر إليه ألا يذهب وذكروه بجواز الأمان الذي كان الإمبراطور سيجموند قد أعطاه لهس وأرسل أدريان الأوترختي ، وكان وقتذاك كاردينالاً لتورتوزا ، ثم نصب بابا بعد قليل ، التماساً إلى الإمبراطور تلميذه السابق طلب فيه أن يتجاهل جواز الأمان وأن يقبض على لوثر ويرسله إلى روما ، وفي اليوم التالي من أبريل غادر لوثر مدينة فيتنبرج ، وعند ما وصل إلى أرفورت حياه حشد كبير من بينهم أربعون أستاذاً من الجامعة باعتباره بطلا . وعند ما اقترب من ورمس سارع سبالاتان وأرسل له تحذيراً ألا يدخل المدينة وأن يقفل راجعاً على جناح السرعة إلى فيتنبرج . فرد عليه لوثر بقوله : « على الرغم من أن في ورمس كثيراً من الشياطين بقدر عدد طوب القرميد على الأسطح فسوف أذهب إلى هناك » (٧٤) . وانطلقت عصبة من الفرسان إلى لقاءه ومرافقته إلى المدينة (١٦ أبريل) . وانتشر نبأ وصوله في الطرقات فتم جمع ٢٠٠٠ نسمة حول عربته ، وقال ألياندر « يخيّل لي أن العالم بأسره أقبل لرؤيته بل وحتى شارل حجب في الظلال .

وفي يوم ١٧ أبريل مثل لوثر في رداء الرهبان أمام المجلس النيابي (الدايت) الإمبراطور وستة أمراء مختارون محكمة رهيبة من الأمراء والنبلاء والبطاركة وأوساط الناس وجيروم ألياندر مسلحاً بسلطة بابوية ووثائق رسمية وفصاحة قضائية وحرصت على منضدة قريبة من لوثر مجموعة من الكتب . وتصدى جوهان ايك - ولم يكن صاحب مناظرة لبيتسيج بل موظفاً عند كبير أساقفة ترير - وسأله هل هذه الكتب من تأليفه وهل هو

على استعداد لإنكار كل هذه الهرطقة التي تضمها ؟ ومرت لحظة على لوثر وهو واقف أمام هذا الجمع الذي يمثل هيئة الإمبراطورية والسلطة النيابية وجمال الكنيسة ، فخائته شجاعته وأجاب بصوت خافت حيي أن الكتب من تأليفه ، وأما بالنسبة للسؤال الثاني فإنه التمس منحه مهلة للتفكير فأمله شارل يوماً . وعند ما عاد إلى مسكنه تلقى رسالة من هوتن يناشده فيها الثبات في موقفه ، وأقبل كثير من أعضاء المجلس النيابي لزيارته زيارة خاصة لتشجيعه ويبدو أن الكثيرين كانوا يحسون بأن جوابه النهائي سوف يكون نقطة تحول في التاريخ .

وفي يوم ١٨ إبريل واجه المجلس النيابي بثقة كاملة ، وكانت قاعة المجلس تموج بالحاضرين إلى حد أن الأمراء المختارين وجدوا صعوبة بالغة في الوصول إلى مقاعدهم ووقف معظم الحضور . وسأله إيك عما إذا كان على استعداد لإنكار المؤلفات التي كان قد كتبها كلياً أو جزئياً ، فأجاب بأن تلك الأجزاء التي تناولت المفاسد الكهنوتية صحيحة بإجماع الآراء فقاطعه الإمبراطور بصوت جهورى دوى في القاعة « لا » . ولكن لوثر استأنف حديثه وهاجم شارل نفسه فقال : « إذا أنكرت ما قلت في هذا الوقت فإني أفتح الباب لمزيد من الطغيان والزندقة وسوف يصبح هذا كله أسوأ ما يكون إذا ظهر أنى فعلت هذا بناء على طلب الإمبراطورية الرومانية المقدسة » . أما بالنسبة للفقرات العقائدية في كتبه فقد وافق على أن يسحب أى فقرة منها إذا ثبت أنها تخالف ما جاء في الكتاب المقدس ، فأبدى إيك على هذا باللاتينية اعتراضاً عبر تماماً عن وجهة نظر الكنيسة : « يا مارتن إن التمسك بسماح ما جاء في الكتاب المقدس هو نفس ما كان يتندر به دائماً الهراطقة انك لا تفعل شيئاً سوى أن تكرر الأخطاء التي ارتكبتها ويكلف وهس . . . كيف تدعى أنك الوحيد الذى يفهم معنى آيات الكتاب المقدس ؟ وهل تضع حكمتك فوق حكم كتبه كثيرون من الرجال المشهورين وتزعم أنك تعرف أكثر مما يعرفون

جميعاً؟ ليس لك الحق في أن تدخل في المناقشة العقيدة الأرثوذكسية المقدسة التي لقنها المسيح المشرع الكامل والتي نشرها الرسل في أرجاء العالم ، والتي ختمت بدماء الشهداء وأكدها المجالس المقدسة وعرفتها الكنيسة . . . والتي يحرم علينا البابا والإمبراطور مناقشتها نخشية ألا ينتهي النقاش . إنى أسالك يا مارتن . أجب بأمانة وصدق بغير مواربة - هل تنكر أو لا تنكر كتبك والأخطاء التي تحتويها ؟ « (٧٥) فرد لوثر بجوابه التاريخي بالألمانية : ما دام جلالتكم وسيادتكم تريدون جواباً بسيطاً فإني سأجيب بغير مواربة . . . ما لم تدينني آية في الكتاب المقدس أو الحججة الواضحة (وأنا لا أقبل سلطة البابوات والمجالس الدينية لأن كلا منهم يناقض الآخر) فإن ضميري أسير لكلمة الله . وأنا لا أستطيع أن أسحب شيئاً من أقوالى . ولن أفعل هذا ، لأن مخالفة ضميري ليس من الصواب والأمن في شيء . أسأل الله العون . آمين « (٧٦) (*) .

فواجهه إليك بأنه لا يمكن لإثبات أى خطأ في المراسيم العقائدية التي أصدرتها المجالس ، فرد عليه لوثر بأنه على استعداد لإثبات مثل هذه الأخطاء ، ولكن الإمبراطور اعترض قائلاً بلهجة قاطعة : « هذا يكفي . ما دام أنه أنكر المجالس فإننا لا نود سماع كلمة أخرى » (٧٨) . وعاد لوثر إلى مسكنه وقد أنهكه الصراع ولكنه كان واثقاً من أنه قدم شهادة طيبة فيما أسماه كارلايل « أعظم لحظة في التاريخ الحديث للإنسانية » (٧٩) .

كان الإمبراطور لا يقل رجفة عن الراهب . ولما كانت تجرى في عروقه الدماء الملكية ولأنه ألف السلطة فإنه اعتقد أن من الأمور التي لا تحتاج إلى برهان أن حق كل فرد في تفسير الكتاب المقدس وقبول المراسيم المدنية أو الدينية أو رفضها طبقاً لهواه الشخصي وما يمليه عليه ضميره سوف

(*) ليس في رسمنا أن نؤكد صحة الكلمات المضمرة التي حفرت حل النصب التذكاري الفخم الذي أقيم تخليداً للوثر في ورمن - « هنا أقف ولا أستطيع أن أفعل شيئاً آخر » . ولم ترد الكلمات في النسخة المطابقة لرد لوثر كما هو مثبت في سجلات المجلس النيابي (الدهات) لأول مرة في أول رواية طبعت لخطابه (٧٧) .

يوم ٦ مايو ، فرتب - بعد أن رضى لوثر بهذا على مفضض - كميناً له في طريق عودته إلى وطنه ، كما لو كان من عمل قطاع الطرق وأخذته خفية إلى قلعة فارتبورج .

وفي السادس من مايو قدم الإمبراطور للمجلس النيابي ، وكان عدد أعضائه قد انخفض بسبب رحيل الكثيرين ، المسودة التي أعدها ألياندر عن منشور ورمس وفيه يتهم لوثر بأنه « دنس الزواج واستخف بالاعتراف وأنكر وجود جسد الرب ودمه . ثم لأنه يجعل القربان المقدس يتوقف على إيمان من يتناوله . لأنه وثني في إنكاره الإرادة الحرة . إن هذا الشيطان الذي يرتدى مسوح راهب قد جمع الأخطاء القديمة في بركة آسنة منمتة ، بل وابتدع أخطاء جديدة أنه ينكر سلطة الرؤساء ، ويشجع العلمانيين على أن يغسلوا أيديهم من دم رجال الدين . وتعاليمه تدعو إلى العصيان والانقسام والحرب والقتل والسرقة والحرق عمداً وإلى انهيار العالم المسيحي وهو يحيا حياة بهيمية . لقد أحرق المراسيم البابوية ، إنه يحتقر الحرمان من غفران الكنيسة والسيوف على السواء . وهو يلحق بالسلطة المدنية من الأذى أكثر مما يلحق بالسلطة الكهنوتية للكتاب المقدس الذي يفسره على هواه . لقد أمهلناه واحداً وعشرين يوماً من ١٥ أبريل . . . وعند ما تنقضى هذه المهلة فليس لأحد أن يوويه ولسوف يدان أتباعه أيضاً . أما كتبه فيجب أن تمحى من ذاكرة الإنسان » (٨٢).

وبعد يومين من تقديم هذا المنشور حول ليو العاشر تأييده السياسي من فرانسيس الأول إلى شارل الخامس . ووافق المجلس النيابي (اللدایت) المجرد من السلطة على المنشور ، وفي اليوم السادس والعشرين من مايو أصدره شارل رسمياً فحمد ألياندر الرب وأمر بإحراق كتب لوثر أينما وجدت .

٦ - الراديكاليون

كانت فارتبورج في حد ذاتها قطعة من العذاب الكئيب ، فقد كانت القلعة القديمة تجثم على قمة جبل على مسيرة ميل من إيزيناخ ، وكانت مخفية

عن أنظار العالم وعن أنظار الإمبراطور أيضاً . وأقام لوثر هناك مدة تقرب من عشرة شهور (٤ مايو سنة ١٥٢١ إلى ٢٩ فبراير سنة ١٥٢٢) في غرفة مظلمة مجهزة بفراش ومنضدة وموقد وجذع شجرة يستخدم كقعد . وكان يحرس القلعة بضعة جنود ، ويعنى بالأراضي حارس ، ويقوم بخدمة لوثر صبيان يعملان وخصيفين له . ورأى أن من الأوفق ، ولعل هذا كان من قبيل التنكر المحلى ، أن يخلع مسوح الرهبان ، ولبس رداء فارس ، وأطلق لحيته ، وأصبح وقتذاك يعرف باسم جورج النبيل الألماني الشاب ، وخرج للصيد ولكنه لم يستطع قتل الأرانب في الوقت الذي لا يزال فيه كثير من المناهضين للمسيحية بنجوة من القتل . وأسقمه الكسل والأرق وكثرة الطعام وشرب الجعة وأصيب بالبدانة وأخذ يسب ويلعن كما يفعل أى نبيل ألماني شاب وكتب يقول : « ليتنى أحرق على جمرات ملتهبة فهذا خير لى من أن أتعفن هنا . . . بودى أن أخوض نهار المعركة » (٨٣) . ولكن وزير فردريك نصحه بأن يظل في منجته لمدة عام ريثما تهدأ حماسة شارل . ومهما يكن من أمر فإن شارل لم يبذل أى جهد للثور عليه أو لاعتقاله .

وراودت الشكوك والأوهام لوثر في خلوته الفكرية وتساءل أيعمى أن أن يكون على حق وأن يكون مثل هؤلاء الأحناب على ضلال ؟ وهل كان من الحكمة أن يقوض دعائم عقيدة راسخة ؟ وهل مبدأ الاجتهاد الشخصى نذير بنشوب الثورة والقضاء على القانون ؟ إذا كنا نصدق القصة التى رواها في أخريات أيامه فإن أصواتاً غريبة كانت تزعجه . . . أصواتاً لم يستطع تفسيرها إلا بأنها من صنع الشياطين وأكد أنه رأى الشيطان فى مناسبات عديدة وقرر أن الشيطان رجمه يوماً بالحوز (٨٤) . وتذهب أسطورة مشهورة إلى أن لوثر قذفه يوماً بزجاجة حبر ولكنها أخطأته (٨٥) . وكان يسلى نفسه بكتابة خطابات ناصعة العبارة لأضدقائه وأعدائه وبتأليف عجالات فى علم اللاهوت وترجمة العهد الجديد إلى الألمانية وقام فى إحدى المرات برحلة مخاطفة إلى فيننبرج ليزكى نار ثورة .

وكان تحديه لرجال الدين في ورمس وبقاؤه على قيد الحياة قد أدارا رؤوس أتباعه وجعلهم يتهمون إعجاباً .

وفي أرفورت هاجم الطلبة وأصحاب الحرف والفلاحون أربعين بيتاً في الأبرشيات وهدموها وأتلفوا مكتبات ومحفوظات وقتلوا عالماً بالإنسانيات (يونيه ١٥٢١) ، وفي خريف ذلك العام المثير هجر الرهبان الأوغسطينيون في أرفورت الديرو بشروا بالعقيدة اللوثرية ونددوا بالكنيسة باعتبارها «أم الجحود والخيلاء والشح والترف والجحود والمطرقة» (٨٦) .

وحيثما ألف ميلانكتور في فيتنبرج كتابه *Loci Communes rerum theologicarum* (١٥٢١) - وهو أول عرض منهجي للاهوت البروتستانتي . طالب زميله الأستاذ كارلشتادت ، وكان قد أصبح وقتذاك رئيساً للشمامسة في كنيسة القاعة ، بأن يتلى القداس (إذا كان لا بد منه) باللغة الوطنية وأن يتناول القربان المقدس بالنبيذ والخبز دون أن يسبقه اعتراف أو صوم ، كما يجب أن ترفع الصور الدينية من الكنائس وأن يتزوج رجال الدين - من رهبان وقساوسة علمانيين - وأن ينجبوا . واتخذ كارلشتادت خطوة بالزواج من فتاة في ربيعها الخامس عشر (١٩ يناير سنة ١٥٢٢) وكان هو في الأربعين من عمره .

ولم يستنكر لوثر هذا الزواج ولكنه كتب يقول : « يا للساء ! أيقبل أهالي فيتنبرج أن يقدموا زوجات للرهبان ؟ » (٨٧) ومع ذلك فإنه وجد في الفكرة ما يجذبه لأنه بعث إلى سبالاتان (٢١ نوفمبر سنة ١٥٢١) برسالة عن «عهود الرهبة» دافع فيها عن نبذهم لهذه العهود . فتباطأ سبالاتان في نشره لأنه كان صريحاً بصورة تخالف التقاليد إذ كان يسلم بأن الغريرة الجنسية أمر طبيعي لا يمكن قمعها ويعلم أن عهود الرهبة من غوايات الشيطان وأنها تضاعف الآثام ، وكان لا بد من مرور أربع سنوات قبل أن يتزوج لوثر نفسه إذ يبدو أن تقديره المتأخر للمرأة لم يلعب دوراً في افتتاح عهد الإصلاح الديني .

ومضت الثورة قدماً ففي اليوم الثاني والعشرين من سبتمبر عام ١٥٢١ ناول ميلانكتون القربان المقدس بكلا الطريقتين وهنا ظفر الأواكويستيون في بوهيميا بنصر جاءهم على مهل ، وتوقفت تلاوة القلداس في دير لوثر يوم ٢٣ أكتوبر وخرج ثلاثة عشر راهباً من الدير يوم ١٢ نوفمبر وتقدموا للزواج ، وسرعان ما نخلت نصف أديرة ألمانيا على إثر خروج مائل . وفي الثالث من ديسمبر دخل بعض الطلبة وسكان المدينة وهم مسلحون بالمدى كنيسة الأبرشية في فيتنبرج وطرردوا القساوسة من المذابح ورجوا بعض المصلين الذين كانوا يؤدون الصلاة أمام تمثال للعدراء . وفي الرابع من ديسمبر هدم أربعون طالباً مذابح دير الفرنسيسكان في فيتنبرج وفي اليوم نفسه زار لوثر ، وكان لا يزال متذكراً في زى نبيل ألماني شاب ، المدينة خفية وأقر زواج الرهبان ولكنه حذر رجال الدين والعلمانيين من الالتجاء إلى العنف وقال : « إن الإكراه ليس حقاً مطلقاً للجميع ولكنه يجب أن تمارسه السلطات الشرعية » (٨٨) . وفي اليوم التالي عاد إلى فارتبورج وبعد ذلك بقليل أرسل إلى سبالاتان للنشر كتاب : « تحذير » جاد لكل المسيحيين يحذرهم من العصيان والثورة فقد خشى إذا انتشرت الثورة الدينية بسرعة أو إذا أصبحت ثورة اجتماعية أن تنفر منها طبقة النبلاء وتقضى على نفسها ، غير أن صفحاته الأولى ذاتها كانت موضع انتقاد لأنها كانت تحض على العنف .

« يخيل إلى أن المحتمل أن يكون هناك خطر من الثورة ، وأن القساوسة والرهبان والأساقفة والطبقة الروحية بأسرها يمكن أن تتعرض للقتل أو الإبعاد إلى المنفى ما لم يصلحوا من أنفسهم تماماً وبصورة حادة ، ذلك لأن الرجل العادى كان يتذكر دائماً في فزع الضرر الذى حاق به في المال والجسد والروح وأصبح هدفاً للاستفزاز . لقد أمعنوا في اختباره إلى حد بعيد وحلوه ما لا طاقة له به بلاوازع من ضمير . ولم يكن في وسعه ، هذا ولم يشأ ، أن يتحملة بعد ذلك واستطاع أن يتعلل بحجة قوية لكي يضرب

في كل اتجاه بمدقات الحنطة والمراوات كما يهدد الفلاحون بالقيام بهذا العمل . وأنا الآن لست مستاء أن أسمع أن رجال الدين قد وصلوا إلى مثل هذه الحالة من الخوف والقلق . ولعلمهم عادوا إلى رشدهم ونخفوا من استبدادهم الجنوني . . . بل إنى سوف أمضى إلى أبعد من هذا . لو أن لى عشرة أجساد واستطعت أن أنال من الله منة فيقتص منهم (أى من رجال الدين) بالوسائل الرفيعة (ذيل الثعلب غزير الشعر) التى تؤدى إلى الوفاة أو العصيان فإنى أهب أجسادى العشرة كلها للموت وأنا مغتبط « فى سبيل الفلاحين الفقراء » (٨٩) . وأردف يقول : « ومع ذلك فإن على الأفراد أن يتحاشوا اللجوء إلى القوة فالله منتقم جبار » .

« إن العصيان أمر غير معقول وهو بصفة عامة يضر الأبرياء أكثر مما يضر الآثمين . ولذلك فإن العصيان ليس من الصواب ، فى شيء ، مهما كان الدافع لأصحاب المصلحة فيه ، ذلك لأن الضرر الذى ينجم عنه يتجاوز دائماً قدر ما يتم من الإصلاح . . . وعند ما يتخلص السيد فلان (أى سيد) من قيده فإنه لا يستطيع أن يميز الخبيث من الطيب ويضرب نخبط عشواء وعندئذ لا مناص من وقوع ظلم فظيع . . . إن عواطفى ستكون دائماً ، ولسوف تظل ، مع أولئك الذين يوجه التمرد ضدهم » (٩٠) .

واستمرت الثورة سلمية إلى حد ما . وفى يوم عيد الميلاد منذ عام ١٥٢١ أقام كارلستادت القديس باللغة الألمانية ، وهو يرتدى ملابس مدنية ودعا الجميع إلى تناول القربان المقدس بأخذ الخبز فى أيديهم والشرب من كأس القديس .

وفى ذلك الوقت تقريباً دعا جابريل تسفيلينج ، وهو أحد زعماء الطائفة الأوغسطينية ، مستعميه إلى إحراق الصور الدينية وهدم المذابح حيثما وجدت . وفى السابع والعشرين من ديسمبر صب « الأنبياء » الذين وصلوا من تسفيركا الزيت على النار . وكانت هذه المدينة من أعظم المدن الصناعية

في ألمانيا ، وفيها عدد كبير من السكان يشغلون بالنسيج في ظل بلدية أعضاؤها من السادة التجار ، وشجعت حركة اجتماعية من العمال بأصحاء وذكريات تجربة التابورية التي قمعت وأثارت بوهيميا القريبة ، وأصبح توماس مينتسر راعي كنيسة سانت كاترين للنساجين الناطق بلسانهم والمعبر عن آمالهم وأصبح في الوقت نفسه نصيراً متحمساً للإصلاح الديني ، وعند ما أدرك أن تعظيم لوثر للإنجيل باعتباره القاعدة الوحيدة للعقيدة قد أثار التساؤل عن يفسر النص أعان منتسر واثنان من رفاقه - وهما نيكولاس ستورك النساج وماركوس شتينر العالم - أنهم وحدهم مؤهلون ليكونوا مفسرين للكتاب المقدس فقد أحسوا بأنهم يوحى إليهم من الروح القدس . وصرحوا بأن هذه الروح المقدسة أمرتهم بأن يوجهوا العماد إلى حين بلوغ سن الرشد لأن القربان المقدس لا يكون له أثر إلا بالإيمان وهو أمر لا ينتظر من الأطفال . وتنبأوا بأن العالم سيتعرض قريباً لخراب شامل يهلك فيه كل الفجار - بما فيهم جميع القساوسة الجامدين بصفة خاصة ، ونبأ بعد ذلك على الأرض مملكة الرب الشيوعية^(٩١) وفي عام ١٥٢١ سحق تمرد قام به النساجون وأقصى ثلاثة من « رسل تسفيكاو » وانطلق منتسر إلى براغ فأخرج منها وحصل على أبرشية في « الشنتد في ساكسونيا » . وذهب ستورك وشتينر إلى فيتنبرج وكان لهما أثر طيب على ميلانكتون وكارلشتادت أثناء غياب لوثر .

وفي يوم ٦ يناير سنة ١٥٢٢ تبدد جمع الأوغسطينيين في فيتنبرج ، وفي يوم ٢٢ يناير كان أنصار كارلشتادت قد بلغوا حظاً كبيراً من القوة في المجلس البلدي إلى حد أنهم عملوا على إصدار مرسوم يقضى برفع كل الصور من كنائس فيتنبرج ، وتحريم القداس إلا إذا أقيم بالشكل المبسط الذي ينادى به كارلشتادت . وأدخل كارلشتادت صورة صلب المسيح ضمن الصور الممنوعة وحرم مثل المسيحيين الأوائل عزف الموسيقى في

العبادات ، وقال : « إن ألحان الأرغن الفاجرة تدعو إلى التفكير في أمور الدنيا ، ففي الوقت الذى ينبغى فيه أن نتأمل في آلام المسيح التى تذكرنا بأسطورة بيراموس وتسيبه Byramus Thibes . . . أبعادوا آلات الأرغن والأبواق والناى إلى المسرح » (٩٢) .

وعند ما أرجأ مندوبو المجلس إزالة الصور قاد كارلشتادت أتباعه إلى داخل الكنائس ، ومزقت الصور والصلبان من فوق الجدران ورجم التساوسة الذين قاوموهم أيضاً بالأحجار (٩٣) . وقبل كارلشتادت رأى أنبياء تسييفاكاو - أن الله يخاطب الناس مباشرة كما يخاطبهم من خلال الأسفار المقدسة ، بل ويتكلم مع بسطاء العقول والقلوب أكثر مما يتكلم مع المتبحرين في اللغات والكتب - ولما كان هو نفسه علامة فإنه أعلن أن المدارس والدراسات تصرف الناس عن التقوى وأن المسيحيين حقاً سوف يعرضون عن كل الآداب والعلوم والفنون وعن التعليم ويصبحون فلاحين أميين أو حرفيين . وصرف أحد أتباعه وهو جورج مور طلبة المدرسة الذين يدرس لهم وحرص الآباء على أن يحفظوا على براءة أطفالهم من التأثير بالآداب والعلوم والفنون وترك عدد كبير من الطلاب الجامعة وانكفأوا إلى بيوتهم ليتعلموا حرفة يدوية وقالوا إنه لا حاجة بهم بعد هذا إلى الدراسة .

وعند ما سمع لوثر بهذا خشى أن يجد نقاده المحافظون ما يؤيد نبوءاتهم التى رددوها بأن رفضه التسليم بالسلطة الكنسية سوف ينصم عرى النظام الاجتماعى بأكمله . وتحدى لوثر أمر الإمبراطور وضرب عرض الحائط بالحماية التى أسبغها عليه الأمير المختار إذا سعى شارل للقبض عليه . فغادر قلعته وعاد إلى ارتداء مسوح الرهبان وحاق شعر راسه وسارع بالعودة إلى فيمتنبرج ، وفى يوم ٩ مارس عام ١٥٢٢ بدأ ساساسة مؤلفة من ثمانى عضات تدعو بشدة الجامعة والكنائس والمواطنين إلى مراعاة النظام ، ذلك لأنه لم يكن يجهد وقتذاك أى التجاء إلى العنف ، ولم لا ؟ ألم يحزر الملايين من الناس من

عسف الكنيسة دون أن يرفع شيئاً أكثر من القلم ؟ وقال : « اتبعوني فأنا أول من اختصه الله بهذا الأمر والرجل الذى كشف له سبحانه وتعالى عن كلمته التى لا بد أن أبشركم بها . ولذلك أقول إنكم قد ارتكبتم خطأ بشروعكم فى القيام بهذا العمل دون . . . أن تستشيروني أولاً (٩٤) ... أمهلوني بعض الوقت . . . ولا تظنوا أن المظالم تمحى بتدمير الهدف الذى يساء التصرف فيه . إن الناس يمكن أن يضلوا بالنبيذ والنساء فهل نحرم شرب النبيذ ونقضى على النساء ؟ لقد عبد الناس الشمس والقمر والنجوم فهل ننزعها من السماء (٩٥) ؟ » إن الذين يريدون الاحتفاظ بالصور والتماثيل والصلبان وسماع الموسيقى أو ترتيل القداس يجب ألا يتدخل أحد فى شئونهم فهو نفسه قد أقر الصور الدينية (٩٦) . واتفق على ضرورة إقامة القداس وفقاً للشريعة التقليدية فى إحدى كنائس فيتنبرج وعلى تناول القربان المقدس فى كنيسة أخرى بالخبز وحده فى المذبح العالى وبالخبز والنبيذ فى مذبح جانبي . . . وقال لوثر إن الشكل لا يهم إلا قليلاً والمهم هو الروح التى يتناول بها القربان المقدس .

كان فى أحسن حالاته وأعظم الناس استمساكاً بالمسيحية فى تلك العظات الثمانية التى ألقاها فى ثمانية أيام . ولقد خاطر بكل شيء لكى يتمكن من كسب فيتنبرج والعودة بها إلى حظيرة الاعتدال ، ونجح فى ذلك ، وسعى أنبياء تسفيكا لتحويله إلى آرائهم وعرضوا أن يقرأوا أفكاره كدليل على أنهم يتلقون الوحي من الله فقبل التحدى وأجابوا بأنه يضمم لأفكارهم عطفاً خفياً فرد جلاءهم البصرى إلى الشيطان ، وأمرهم بمغادرة فيتنبرج وعند ما فصل كارلشتادت من وظائفه بقرار من مجلس مدينة أعيده تكوينه ، أخذ أبرشية فى أورلامينديه ، وندد من فوق منبرها بلوثر ووصفه بأنه : « كاهن نهم . . . وبابا فيتنبرج الجديد » (٩٧) . ولقد سبق كارلشتاد جماعة الكويكر فتخلى عن كل الثياب الكهنوتية وارتدى معطفاً رمادياً بسيطاً

واستغنى عن الألقاب وطلب أن يدعى « الأبخ أندرياس » ورفض قبول مرتب عن قيامه بالخدمة الدينية ، وعمل على كسب عيشه بالمحراث ورفض كل استخدام للعقاقير وفضل الصلاة على الدواء ودافع عن تعدد الزوجات باعتباره أمراً لم يحرمه الإنجيل ، وتبنى وجهة نظر رمزية محضة فيما يختص بالقربان المقدس ، وذهب لوثر بناء على طلب الأمير المختار إلى أورلامينديه ليعظ ضد كارلشتادت ولكنه أخرج من المدينة ورجم بالحجارة والطين (٩٨) . وعندما انهارت ثورة الفلاحين خشى كارلشتادت أن يقبض عليه بتهمة التحريض فسمى إلى مكان أمين مع لوثر وحصل عليه . وبعد جولة طويلة وجد الراديكالى ملجأه الأمين بالعمل أستاذاً في بازيل حيث قضى نحبه في هدوء عام ١٥٤١ في جو مدرسى .

٧ - أسس الإيمان

استأنف لوثر طريقه العام غير المستقيم باعتباره قساً لطائفة وأستاذاً في الجامعة - ودفع له الأمير المختار مرتباً قدره ٢٠٠ جيلدر (٥,٠٠٠ دولار؟) سنوياً وكان كل طالب يضيف إليه أتعاباً زهيدة مقابل حضور محاضراته . وعاش لوثر صحبة راهب آخر ، وكان كل منهما يرتدى ملابس عامة الناس في دير أوغسطينى مع طالب يقوم بخدمتها وقال : « كان فراشى لا يرتب لمدة عام كامل حتى يصبح قلدراً تفوح منه رائحة العرق ، ومع ذلك كنت أواصل العمل طوال النهار فلذا جن الليل أكون منهوك القوى إلى حد أنى أتهاوى في الفراش دون أن أدري أن هناك خطأ ما » (٩٩) . وكان العمل الشاق يخفف له شهيته المفتوحة وفي هذا يقول : « لى آكل كبوهيمى وأشرب كألمانى والحمد لله أمين » (١٠٠) .

وكان يعظ كثيراً ولكن في إيجاز يتسم بالإشفاق ، وبلغة بسيطة أخاذة تستولى على الألباب مستمعيه الأجلاف . وكانت رياضته الوحيدة هى الشطرنج

والعزف على الناي ، ويبدو أنه كان يجد متعة أكبر في الساعات التي يقضيها في مهاجمة « البابويين » . كان أقوى من عرفه التاريخ في الجدل لا يصده عنه شيء . وكانت كل كتاباته تقريباً صراعاً ممتزجاً بعبارات لاذعة تفيض سخرية وطعناً . وترك خصومه يتأنقون في اللاتينية الرفيعة بحيث لا يقرأ لهم إلا قلة من الباحثين وكان هو أيضاً يكتب باللاتينية عند ما يريد مخاطبة العالم المسيحي بأسره ، بيد أن الجانب الأكبر من أهاجيه ألفه بالألمانية أو كان يترجم فوراً إلى الألمانية لأن ثورته كانت وطنية ولم يزه مؤلف ألماني آخر في وضوح ألفاظه أو قوة أسلوبه وفي مباشرة عباراته وحدثها اللاذعة وفي تشبهاته الموفقة والتي كانت أحياناً تبعث على الابتهاج في ألفاظ تمتد جذورها في كلام الناس وتلائم العقلية القومية .

ووافقت الطباعة أغراضه باعتبارها بدعة أرسلتها العناية الإلهية فيما يبدو فاستخدمها ببراعة لا ينضب لها معين ، وكان أول من جعل منها آلة للدعاية والحرب ولم تكن هناك وقتئذ جرائد ولا مجلات ، وكانت المعارك تدكها الكتب والعجالات والرسائل الخاصة التي ديجت للنشر . وارتفع عدد الكتب المطبوعة ، في ألمانيا من ١٥٠ عام ١٥١٨ إلى ٩٩٠ عام ١٥٢٤ ، وذلك بحافز من ثورة لوثر ، وكانت أربعة أخماس هذه الكتب تؤيد الإصلاح الديني أما الكتب التي كانت تدافع عن العقيدة المحافظة فقد كان من الصعب أن تجده من يشتريها ، في حين كانت مؤلفات لوثر هي أكثر الكتب رواجاً في هذا العصر ، وكانت لا تباع في المكتبات فحسب بل كانت تباع عند الباعة الجائلين والطلبة المسافرين أيضاً ، وقد أحضرت ١٤٠٠ نسخة في سوق واحدة بفرانكفورت ، بل إن ما يبيع منها في باريس عام ١٥٢٠ فاق ما يبيع من أي كتاب آخر . وفي مطلع عام ١٥١٩ صدرت لفرنسا وإيطاليا وإسبانيا والأراضي المنخفضة وإنجلترا . وكتب أرازموس عام ١٥٢١ يقول : « إن كتب لوثر في كل مكان وبكل لغة ولن يصدق أحد مدى تأثيره في الناس » (١٠١) .

ورجح الأثر الأدبي القوي للمصلحين كفة المطبوعات من جنوبي أوروبا إلى شمالها حيث ظلت على هذا الوضع منذ ذلك . كانت الطباعة هي الإصلاح الديني ، ولا شك أن جوتنبرج هو الذى جعل نجاح لوثر ممكناً .

وكان أعظم عمل قام به لوثر هو ترجمة الإنجيل إلى الألمانية . كانت ثمانى عشرة ترجمة مثلها قد تمت من قبل ولكنها اعتمدت على نسخة جيروم اللاتينية من الكتاب المقدس ، وحفلت بالأخطاء وصيغت عباراتها بأسلوب سقيم ، وكانت صعوبات الترجمة عن الأصل مروعة ولم تكن هناك بعد معاجم من العبرية أو اليونانية إلى الألمانية وكل صفحة من النص تثير مائة مسألة فى التفسير ، وكانت اللغة الألمانية ذاتها لا تزال تفتقر إلى الدقة والإحكام فى التركيب ، واستخدم لوثر فى ترجمة العهد الجديد النص اليونانى الذى كان أرازموس قد نشره مع نسخة لاتينية عام ١٥١٦ ، وأكمل هذا الجزء عام ١٥٢١ ونشر عام ١٥٢٢ . وبعد عمل دائب استمر أكثر من اثنى عشر عاماً ، ووسط كفاح دائم فى مجال علم اللاهوت نشر لوثر العهد القديم بالألمانية ، ولكن بمساعدة ميلانكتون وعدد من الباحثين اليهود وبرغم عدم دقة الدراسة فى هذه الترجمات فإنها كانت من الأحداث المهمة فى هذا العهد ، فقد افتتحت الأدب الألمانى وأصل اللغة الألمانية الجديدة الرفيعة فى ساكسونيا العليا — باعتبارها اللغة الأدبية لألمانيا . ومع ذلك فإن الترجمات كانت غير أدبية عن عمد ، وعلى نهج اللغة الدارجة ، وقد فسر لوثر منهجه بطريقته الواضحة المعهودة فقال : « ينبغى ألا نطلب ، كما يفعل الحمير ، من الحروف اللاتينية أن تعلمنا كيف نتحدث الألمانية بل يجب أن نسأل الأمهات فى بيوتهن والأطفال فى الشوارع وعامة الناس فى السوق . . . يجب أن نسترشد بهم فى الترجمة ولسوف يفهموننا ويعرفون أننا نخطأهم بالألمانية» (١٠٢) . ومن هنا كان ترجمته فى ألمانيا نفس الأثر والجلال اللذين حظيت بهما نسخة الملك جيمس المترجمة بعد قرن : كان لها تأثير حميد لا حد له على لغة الحديث القومية ولا تزال أعظم عمل نثرى فى الأدب القومى .

وطبعت في فيتنبرج مائة ألف نسخة من عهد لوثر الجديد لإبان حياته ،
وظهرت في أمكنة أخرى اثنتا عشرة طبعة لم يرخص بها وعلى الرغم من
المنشورات التي تحرم تداولها في براندنبرج وبافاريا والنمسا فإنها أصبحت
أكثر الكتب رواجاً في ألمانيا وظلت كذلك .

وأثمرت ترجمات الإنجيل كنتيجة وعامل مساعد معاً وأعانت على أن
تستبدل باللاتينية اللغات الوطنية والآداب التي واكبت الحركة القومية والتي
سأرت هزيمة الكنيسة العالمية في بلاد لم تكن قد تلقت اللغة اللاتينية وغيرتها ،
ولما كان لوثر قد أكب طويلاً على الكتاب المقدس وورث وجهة نظر
القرون الوسطى عن صدره من الله فإنه جعله عن محبة خالصة المصدر
الأوحد لعقيدته الدينية وشريعته . ومع أنه قبل بعض الروايات المأثورة التي
لا تقوم على ما جاء في الكتاب المقدس - مثل تعميد الطفل والراحة يوم
الأحد - فإنه رفض أن يسلم بحق الكنيسة في أن تضيف إلى المسيحية عناصر
لا تعتمد على ما جاء في الكتاب المقدس وإنما تعتمد على عرفها وسلطتها مثل
المطهر وصكوك الغفران وعبادة مريم والقديسين وكان كشف فاللا عن
« هبة قسطنطين » (هبة أوروبا الغربية المزعومة للبابوات) باعتبارها أضحوكة
عتيقة في التاريخ قد زعزع إيمان الآلاف من المسيحيين في الوثوق بروايات
الكنيسة وشكك في الشرعية الملزمة لمراسيمها وفي عام ١٥٣٧ ترجم لوثر
نفسه رسالة فاللا إلى الألمانية . فالرواية يقوم بها إنسان عرضه للزلل أما الكتاب
المقدس فقد قبلته أوروبا بأسرها تقريباً وعدته كلمة الله التي لا يأتيها الباطل
من بين يديها ولا من خلفها .

ثم إن العقل أيضاً يبدو ضعيفاً بالقياس إلى الإيمان في وحى من لدن الله ه
وقال « نحن المساكين ، الناس التعساء . . . نسعى في غرور إلى فهم الجلال
الذي يلدق على الفهم لنور عجائب الله التي لا تدرك . . . ونحن نتطلع
بعيون مغمضة ، مثل حيوان الخلد ، إلى مجد الله » (١٠٣) . وقال لوثر : « أنت

لا تستطيع أن تقبل كلا من الإنجيل والعقل فأحدهما يجب أن يفسح الطريق للآخر .

« إن كل آيات عقيدتنا المسيحية التي كشف لنا الله عنها في كلمته أمام العقل مستحيلة تماماً ومنافية للمعقول وزائفة . فإذا كيف يعتقد ذلك الأحمق الصغير الماكر أن هناك شيئاً يمكن أن يكون أكثر مجافاة للعقل واستحالة من أن المسيح يعطينا جسده لتأكله ودمه لنشربه في العشاء الأخير ؟ . . . أو أن الموتي سوف يبعثون من جديد يوم القيامة ؟ . . . أو أن المسيح ابن الله حملت به مريم العذراء وولدت ثم غدا رجلاً يتعذب ثم يموت ميتة مخجلة على الصليب (١٠٥) ؟ . . . إن العقل هو أكبر عدو للإيمان . . . إنه أفعج صناع للشيطان كبغى فتك بها الحرب والجدام ، ويجب أن توطأ بالأقدام ويقضى عليها هي وحكمتها . . . فاقدفها بالروث في وجهها . . . وأغرقها في العماد » (١٠٦) .

وأدان لوثر الفلاسفة الكلاميين لأنهم سلموا للعقل بكثير من الأمور ولأنهم حاولوا أن يثبتوا العقائد المسيحية بالخضوع لمقتضى العقل ولأنهم حاولوا أن يوفقوا بين المسيحية وبين فلسفة (١٠٧) أرسطو ذلك الوثني الداهية المغرور العين .

ومع ذلك فإن لوثر خطأ خطوتين في اتجاه العقل : جعل الموعظة ، وليس الاحتفال مركز شعيرته الدينية وأعلن في الأيام الأولى لثورته بحق كل فرد في تفسير آيات الكتاب المقدس لنفسه . واستن قانونه الخاص بصحة أسفار الكتاب المقدس : إلى أي مدى تتفق مع تعاليم المسيح ؟ وقال « إن كل ما لا يبشر بالمسيح ليس رسولياً حتى لو كتبه القديس بطرس أو القديس بولس . . . وكل ما يبشر بالمسيح يكون رسولياً حتى لو صدر من يهوذا ويلاطس أو هيرودس » (١٠٨) . ورفض التسليم برسالة جيمس وأطلق عليها اسم : « رسالة الهشيم » لأنه لم يستطع أن يوفق بينها وبين رأى بولس

في التبرير بوساطة الإيمان ، واستراب في أن الرسالة من عمل العبريين إذ بدا أنها تذكر صحة التوبة بعد العماد (ولذلك فإنها تؤيد الذين ينكرون التعميد النصراني) وقدر أولاً أن سفر الرؤيا مزيج لا يدرك من ضروب الوعد والوعيد « لا هي رسولية ولا نبوية » (١٠٩) .

« أما سفر عزرا الثالث فلإنى أقذف به في نهر ألبا » (١١٠) . وعلى الرغم من أنه يقوم على عقلية وثنية وأن معظم أحكامه التي تقوم على شريعة الكتاب المقدس قبلها النقاد الإنجيليون المتأخرون وقالوا إنها ذكية وسليمة . وقال : « إن أحاديث الأنبياء لم يدون منها شيء بانتظام في حينه بل جمعها مريدوهم وسامعوهم فيما بعد . . . ولم تكن أمثال سليمان من عمل سليمان » . ولكن خصومه الكثر أكدوا أن الاختبارات التي وضعها للحكم على الصحة والوحى كانت ذاتية وتحكمية وتنبأوا أن نقاداً آخرين سيحذون حذوه ويرفضون الاعتراف بكتب مقدسة أخرى حسب أهوائهم وآرائهم حتى لا يبقى شيء من الكتاب المقدس يعتبر أساساً للعقيدة الدينية .

وباستبعاد الاستثناءات السالفة فإن لوثر دافع عن الكتاب المقدس باعتباره صحيحاً بمخبره وحرفياً . وسلم بأنه لو لم ترد قصة يونس في الحوت في الكتاب المقدس لسخر منها وعدّها خرافة وبالمثل حكايتهما عدن والحية ، ويوشع والشمس ولكنه قال متى قبلنا القول بقداسة الكتاب المقدس ، فلا بد أن هذه القصص بالإضافة إلى الباقي حقيقة من كل وجه » . ورفض محاولات أرازموس والباقيين للتوفيق بين الكتاب المقدس والعقل عن طريق التأويل المجازي (١١١) وعدها من قبيل الإلحاد . ولما كان قد فاز بالطمأنينة الذهنية لا عن طريق الفلسفة ولكن عن طريق الإيمان بالمسيح كما صورته الأناجيل ، فإنه اعتصم بالكتاب المقدس باعتباره الملاذ الأخير للروح ، وعارض علماء الإنسانيات وعبادتهم للكلاسيات الوثنية فعرض الكتاب المقدس لا باعتباره نتاج فكري بشري ، بل باعتباره بركة من الله وعزاء للبشر .

وقال : « إنه يعلمنا أن نرى ونشعر ونلدرك ونفهم معنى الإيمان والأمل

والبر بطريقة مغايرة لما يستطيع أن يفعله العقل البشرى وعند ما تضيق صدورنا بالشر فإنه يعلمنا كيف تشع هذه الفضايل الضوء لكى يبدد الظلام وكيف أن هناك حياة أخرى خالدة بعد هذه الحياة الهزيلة التعسة التى نحياها على الأرض» (١١٢) .

وعندما سئل عن الأساس الذى استند إليه فى أن الكتاب المقدس من وحى الله أجاب ببساطة أنه استند إلى تعاليمه ولا يمكن إلا لأناس ألهمهم الله أن يكونوا مثل هذا الإيمان العميق الذى هو عزاء للنفس .

٨ - لاهوت لوثر

وعلى الرغم من أن لاهوته قام على تصديق حرفية ما جاء بالكتب المقدسة فإن تفسيره احتفظ لا شعورياً بالروايات المأثورة فى القرون الوسطى المتأخرة . وجعلته قوميته عصرياً أما لاهوته فيمت إلى عصر الإيمان . وكانت ثورته موجهة ضد النظام الكاثوليكي وطقوسه أكثر منها ضد العقيدة الكاثوليكية ولازمه معظم هذه الثورة إلى النهاية . بل إنه حدا فى ثورته حذو ويكلييف وهس ولم ينتهج أى منهج جديد . فنورته مثل ثورتها تكمن فى رفض البابوية والمحالس الدينية والمراتب الكهنوتية والاهتداء بأى شىء آخر للعقيدة غير الكتاب المقدس ، وقد وصف مثلها البابا بأنه مناهض للمسيحية ووجد مثلها الحماية فى رحاب الدولة . وتواصل الفكر من ويكلييف إلى هس إلى لوثر يعد الخيط الرئيسى للتطور الدينى من القرن الرابع عشر إلى القرن السادس عشر . فقد كان تواصل الفكر من الناحية اللاهوتية قد اعتمى بآراء أوغسطين عن القدر والرحمة ، وهذه الآراء كانت لها بدورها جذور فى رسائل بولس الذى لم يعرف المسيح قط . وقد تساقطت تقريباً جميع العناصر الوثنية التى شابت المسيحية عند ما اتخذت البروتستانتية شكلها

المرسوم وانتصرت الهيبة اليهودية على الإغريقية وفاز الأنبياء على أرسطو رائد فلسفة الجدلين وأفلاطون رائد علماء الإنسانيات وحول بولس باعتباره أقرب إلى مصاف الأنبياء منه إلى مصاف - الرسل - المسيح إلى تكفير عن خطيئة آدم وحجب العهد القديم العهد الجديد وأظلم يهوه وجه المسيح .

وكان مفهوم الله عند لوثر يهودياً ، وكان في وسعه أن يتكلم بفصاحة عن رحمة الله وعنونه إلا أن صورة الله القديمة باعتباره منتقماً ثم صورة المسيح باعتباره القاضى الأخير أكثر استقراراً في نفسه ، ولقد آمن دون أن يسجل أى اعتراض بأن الله قد أغرق كل البشر تهرباً في الطوفان وأنه أحرق سدبوم وأهلك الأراضى والناس والإمبراطوريات بنغثة من غضبه وإشارة من يده . ورأى لوثر أن « قلة قدر لها أن تنجو وأن كثرة كثيرة لحقتها العنة إلى الأبد » (١١٣) . ونبذت من القصة الأسطورة التى تخفف من هول تلك الصورة وهى التى تتناول الدور الذى تقوم به مريم فى الشفاعة وتبقى فيها اليوم الآخر بكل ما فيه من فرع شديد للبشر الخاطئين بطبيعتهم . وكان الله فى غضون هذا كله قد سلب الوحوش المقترسة والديدان والنسوة الخبيثات على الناس عقاباً لهم على خطاياهم . وكان لوثر يذكر نفسه بين الفينة والفينة بأننا لا نعلم شيئاً عن الله إلا أنه قوة مدركة كونية موجودة . وعند ما سأله شاب لحوح من علماء اللاهوت : أين كان الله قبل خلق العالم ؟ أجاب بأسلوبه الخطابى الفظ على طريقة جونسون « كان يبنى جهنم لهذه الأرواح الفضولية المقلقة المغرورة من أمثالك » (١١٤) .

ولقد أخذ الجنة والجحيم قضية مسلمة وآمن بنهاية مبكرة للعالم (١١٥) . ووصف جنة حافلة بالمسرات وفيها كلاب مدللة « لها شعر ذهبي يلمع كالأحجار الكريمة » (١١٦) ، وهى منحة طيبة لأطفاله الذين أعربوا عن اهتمامهم بمصير كلابهم المدللة . وتحدث فى ثقة مثل الأكويني عن الملائكة وقال إنها أرواح كريمة لأجساد لها . ولقد تصور لوثر الإنسان أحياناً عظيمة لانهاية لها يتنازعها

ملائكة الرحمة وملائكة العذاب ، وهم الذين يعزى إلى اختلاف مشاربهم وإلى جهودهم كل الظروف التي تحيط بتصير الإنسان وفي هذا إقحام للزرادشتية في لاهوته . كما سلم تسليمًا كاملاً بالمفهوم السائد في القرون الوسطى عن الشياطين التي تهيم في الأرض وتوسوس للناس وتغويهم بالإثم وتعرضهم للنحس وتمهد للإنسان طريقه إلى جهنم . وقال : « إن كثيراً من الشياطين تهيم في الغابات والمياه والبرارى وفي الأماكن المظلمة المليئة بالبرك وهي متاهة أبداً لإيذاء الناس ، وبعضها يهيم في السحب الكثيفة السوداء » (١١٧) .

وقد يكون بعض هذا الاعتقاد إبداعاً تربوياً واعياً لمخاوف خارقة نافعة ، ولكن لوثر كان يتحدث بغير كلفة عن الشياطين ويبدو أنه صدق كل ما قيل عنهم . وقال « إنى أعرف الشيطان حق المعرفة » ، وذكر بالتفصيل أحاديثهم مع بعضهم بعضاً (١١٨) . وكان أحياناً يفتن الشيطان بالعزف على الناي وأحياناً كان يفزع الشيطان المسكين (١١٩) بأن يرميه بأقذع السباب (١٢٠) . وأصبح من عادته أن يعزو إلى الشيطان الأصوات الخيفة التي تصدر من الجدران وهي تنقلص من البرودة في الليل وذلك عندما كان يستيقظ على هذه الأصوات ، وكان في وسعه أن يستنتج وهو واثق أنها من عمل الشيطان ، وهو يحوم حوله وأن يستأنف نومه في هدوء (١٢١) . ونسب إلى فعل الشيطان ظواهر مختلفة لا تسر . سقوط البرد والرعد والحرب والطاعون ، أما الحوادث السعيدة كلها فهي في نظره من فعل الله (١٢٢) . وكان يجد صعوبة في إدراك كل ما نسميه القانون الطبيعي . ويبدو أن كل الترات الشعبي التي تروى عن الطيف الصخاب أو الروح التي تحدث الضمجة قد صدقه لوثر بحذافيره والشياطين يوتر أن تتقمص أجساد الثعابين والقرود (١٢٣) . وكان لوثر يرى أن الفكرة القديمة التي تذهب إلى أن في وسع الشياطين أن تضاجع النساء وأن تنجب منهن أطفالاً فكرة صائبة ، بل إنه أشار في مثل هذه الحالة بضرورة إغراق الطفل الذي يولد نتيجة لهذه العلاقة (١٢٤) . وقبل السحر والعرافة على أنهما من الحقائق المسلم بها وكان يرى أن إحراق الساحرات على السارية (١٢٥) واجب

مسيحي بسيط . وكان يشاطره في معظم آرائه معاصروه سواء أكانوا من الكاثوليكية أم من البروتستانت .

ثم إن الاعتقاد في قوة الشياطين وقدرتها على الوجود في كل مكان بلغ في القرن السادس عشر درجة قصوى لم تسجل في أى عصر آخر وقد أفسد هذا الاهتمام بالشيطان كثيراً من اللاهوت البروتستانتي .

وازدادت فلسفة لوثر قتامة بالاعتناق بأن الإنسان بطبعه شرير وميال للإثم(*) ، وقد انتزعت الصورة الإلهية من قلب الإنسان عقاباً لعصيان آدم وحواء ولم يبق فيه إلا الميول الطبيعية . وها هو يقول : « ليس هناك من هو مسيحي أو ورع بفطرته . . . والناس والجماهير بعيدة عن روح المسيحية وليسوف تكون هكذا . . . والأشرا يفرقون دائماً الأخيار عدداً » (١٢٦) . بل إن أعمال الشر في الرجل الخير تفوق في عددها أعمال الخير لأنه لا يستطيع أن يهرب من فطرته وكما قال بولس : « لا أحد بار ، لا أحد » . وشعر لوثر « بأننا أبناء الغضب وكل أعمالنا ونياتنا وأفكارنا لا تساوى في الميزان أمام آثامنا » (١٢٧) . ومن جهة سير أعمال الخير فإن كل واحد منا يستحق العذاب المقيم ، وكان لوثر يقصد بعبارة « أعمال الخير » بصفة خاصة تلك الأشكال من الورع الطمسي الذي أوصت به الكنيسة - الصيام والحج والابتهالات إلى القديسين والقداسات للموتى وصكوك الغفران والمواكب والتبرعات للكنيسة ولكنه ضمها أيضاً « كل الأعمال مهما كانت صفتها » (١٢٨) ولم يشك في مدى الحاجة إلى الإحسان والحلب لتوفير حياة صحية اجتماعية ولكنه أحس (**) بأنه حتى لو كانت هناك حياة مباركة بمثل هذه الفضائل فإنها لا تستطيع أن تفوز بسعادة أزلية ويقول إن « الإنجيل لا يبشر بشيء من الجزاء عن الأعمال وإن من يقول إن الإنجيل نص على أن الأعمال هي وسيلة

(*) أو كما يجب أن نقول يولد الإنسان بفرائز تنفق مع مرحلة الصيد ولكنها في حاجة إلى كبح مستمر في الحضارة .

(**) انظر الطوبوات - اصحاح متى ٥ : ٣ - ١١ .

الخلاص أقول له بصراحة تامة إنه كاذب» (١٢٩) . ولا يمكن لقدر من الأعمال الصالحة - فكل منها إهانة لإله لا حد لقدرته - أن تكفر عن الذنوب التي اقترفها خير الناس . ولا يمكن أن تكفر عن خطايا البشر إلا تضحية المسيح المنتدية - آلام ابن الله وموته - ، ولا يمكن أن ينجينا من عذاب جهنم إلا الإيمان بهذا التكفير الإلهي . وكما قال بولس للرومان : « إذا كنت تقر بلسانك أن الرب يسوع وإذا كنت تؤمن في قرارة فؤادك بأن الله قد رفعه من بين الموتى فإنك سوف تنجو » (١٣٠) . وهذا الإيمان هو الذي « يبرر » - يجعل الإنسان باراً على الرغم مما اقترف من ذنوب ويجعله صالحاً للخلاص ، ولقد قال المسيح نفسه « كل من يؤمن ويعمل سوف ينجو أما من يكفر فسوف تلحقه اللعنة » (١٣١) . وقال لوثر مستنتجاً منطقياً : « ولهذا فإن أول ما يجب أن يهتم له كل مسيحي هو أن يطرح جانباً كل يقين في الأعمال وأن يتقوى إيمانه وحده شيئاً فشيئاً » (١٣٢) واستطرد قائلاً في فقرة أزعجت بعض علماء اللاهوت وإن كانت قد أراحت كثيراً من الخاطئين :

« إن يسوع المسيح ينحني ويدع الخاطيء يقفز فوق ظهره وهكذا ينقذه من الموت . . . آية تعزية للأرواح التقية أن يعتمد بالمسيح على هذا النحو وأن تلغفه في خطاياى وخطاياك وخطايا العالم بأسره وتعدده هكذا يحمل خطايانا جميعاً ! . . . وعند ما ترى أن خطاياك تلتصق به فعندئذ تنجو من الخطيئة والموت والجحيم . . . إن المسيحية ليست إلا ممارسة متصلة للإحساس بأنك لا ترتكب خطيئة على الرغم من أنك تقترفها وأن خطاياك إنما توضع على كاهل المسيح . حسبك أن تعرف الحمل الذي يحمل خطايا العالم والخطيئة لا يمكنها أن تفرق بيننا وبينه حتى لو ارتكبنا ألف جريمة زنى كل يوم أو مهما ارتكبنا من جرائم القتل ، ألا تعد هذه بشرى طيبة أن تعرف إنساناً غارقاً في الخطايا إلى أذنيه فيأتي الإنجيل يقول له : كن على ثقة وآمن تغفر لك خطاياك من الآن فصاعداً ؟ حالما يقتلع هذا الحائل تغفر لك خطاياك وليس ثمة شيء آخر تعمل من أجله » (١٣٣) .

ولعل هذا كان المقصود به تعزية وإنعاش بعض الأرواح المرهقة الحس التي كانت تجزع كثيراً بسبب ما اقترفت من خطايا . واستطاع لوثر أن يتذكر كيف أنه قد غالى يوماً في جسامته ذنوبه ورأى أنها لا تغتفر ولكن الأمر بدا عند بعضهم يشبه كثيراً قول تيتزل المزعوم « أسقط قطعة نقدية في الصندوق تتبدد ذنوبك كلها » وكان الإيمان وقتذاك يفعل الأعاجيب التي زعموا من قبل أنها تتحقق بالاعتراف والتحلل من الذنوب والصدقة وصك الغفران . ومع ذلك فهناك فقرة تسترعى الانتباه : وجد لوثر الغيور الثائر كلمة طيبة يقولها عن الخطيئة ذاتها وقال عند ما يغويها الشيطان بالحاح مزعج فقد يكون من الحكمة أن نستسلم لإغرائه ونقترف ذنباً أو اثنين .

« اسع إلى مجتمع رفاقك الطروبين واشرب واقصف وانطلق بالفحش وسل نفسك فلا بد للمرء أن يقترف أحياناً ذنباً كراهية واحتقاراً للشيطان حتى لا يعطيه الفرصة لكي يجعله يشعر بتأنيب الضمير على مجرد أشياء لا تستحق الذكر ، فالمرء يضل إذا اشتد فزعه من أن يقترف ذنباً . . . آه ! . . . بودى لو كان في استطاعتي أن أجد ذنباً عظيماً حقاً يقذف بالشيطان ! » (١٣٤) .

ولقد دعت هذه الأحكام العرضية المرححة إلى التأويل ، وفسر بعض أتباع لوثر شخصيته بأنه يتسامح في الفجور والزنى والقتل واضطر أستاذ من أنصاره إلى نصيح الوعاظ اللوثرين بأن يحرصوا على الإقلال ما أمكن من القول بأنه يمكن الحصول على البراءة من الذنب بالإيمان وحده (١٣٥) .

ومهما يكن من أمر فإن لوثر كان لا يقصد بالإيمان التسليم العقلي بغرض فحسب ، ولكنه كان يقصد المكابدة الحيوية الشخصية لا اعتقاد عملي ، وكان على ثقة من أن الاعتقاد الكامل في أن عفو الله منح بسبب موت المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر يجعل الإنسان أولاً وقبل كل شيء صالحاً إلى الحلة الذي يجعل مجوناً عارضاً تشيع فيه شهوة الجسد لا يترتب

عليه ضرر دائم ، ذلك لأن الإيمان سرعان ما يعود بالخاطيء إلى الصحة الروحية ، ووافق من صميم قلبه على فائدة الأعمال الصالحات (١٣٦) غير أن ما أنكره هو فاعليتها في سبيل الخلاص . وقال « إن الأعمال الصالحات لا تخلق رجلاً صالحاً ولكن الرجل الصالح يقوم بأعمال صالحات » (١٣٧) . وماذا يجعل الرجل صالحاً ؟ الإيمان بالله والمسيح .

وكيف يتأتى لإنسان أن يصل إلى مثل هذا الإيمان الذي ينجيه من عذاب الجحيم ؟ إنه لا يصل إليه عن طريق أعماله التي يثاب عليها بل إنه منحة يهبها الله ، بغض النظر عن هذه الأعمال ، إلى من يشاء أن ينجيه من عذابه وكما قرر بولس وهو يتذكر قصة فرعون « إن الله يتغمد برحمته من يشاء ويحرم منها من يشاء » (١٣٨) . والله قدر من اصطفاهم للسعادة الأبدية أما الباقون فقد تركهم محرومين من رحمته ملعونين ومخلدين في نار جهنم (١٣٩) .

« هذه هي ذروة الإيمان : أن تؤمن بأن الله ، الذي ينجي من عذابه قلة من عباده والذي يعاقب الكثرة منهم ، غفور رحيم وأنه تعالى عادل ، إذ سبق في تقديره أن قضى علينا بالعنة الأبدية لأنه . . . ويبدو أنه يرضى بتعذيت الأشقياء . وإذا استطعت بأي جهد عقلي أن أدرك كيف يكون الله رحيماً في الوقت الذي يصدر عنه الكثير من الغضب والظلم فلن تكون في حاجة إلى الإيمان » (١٤٠) .

وهكذا نرى أن لوثر في نعمة رد فعله القروسطي (*) ضد كنيسة عصر النهضة التي ارتدت إلى عصر الوثنية قد عاد لا إلى العقيدة الأوغسطينية فحسب ولكنه عاد إلى الترتوليانية : الإيمان بما لا يصدق ، وبدا له أن من الفضيلة أن يؤمن بالقدر لأنه كان بالنسبة للعقل أمراً لا يصدق ، ومع ذلك فقد رأى بالمنطق العسير أنه إنما دفع إلى هذا الاعتقاد بعدم قابلية الأمر للتصديق ، وها هو عالم اللاهوت الذي كتب ببلاغة لا تضارع عن « حربة الإنسان

(*) نسبة إلى القرون الوسطى .

المسيحي « قد رأى وقتذاك (١٥٢٥) في إحدى رسائله أنه إذا كان الله قادراً على كل شيء فلا بد أنه السبب الوحيد لكل ما يصدر من أفعال بما فيها أعمال الإنسان وأنه إذا كان الله عليمًا بكل شيء فإنه يعرف كل شيء مسبقاً وكل شيء لا بد أن يحدث كما سبق في علمه وعلى ذلك فإن كل الأحداث في كل زمان قد قدرت بإرادته تعالى وأصبحت قدراً محتوماً للأبد . وانتهى لوثر مثل اسبينوزا إلى أن الإنسان « ليس حراً مثل كتلة من الخشب أو صخرة أو كتلة من الصلصال أو عموداً من الملح » (١٤١) . ومع ذلك فإنه لأمر أكثر غرابة أن تحرم الحكمة الإلهية نفسها الملائكة ، لا ، بل والله نفسه من الحرية فإنه تعالى يجب أن يعمل كما سبق في علمه فحكيمته هي قدره .

ولقد فسر أحد المجانين هذه العقيدة كما شاء له هواه : ضرب شاب عنق أخيه وعزا هذا إلى فعل الله الذي لم يكن هو إلا عبده العاجز فحسب ، وحطم أحد المناطقه جسده زوجته بعصية حتى ماتت وهو يصرخ « الآن تمت إرادة الأب » (١٤٢) .

وتتدرج معظم هذه الاستنتاجات ضمناً في لاهوت القرون الوسطى ، وقد استخلصها لوثر من بولس إلى أوغسطين في تزم لا يلين وبدا راغباً في قبول لاهوت القرون الوسطى إذا تجرد من سلطان كنيسة عصر النهضة ، فقد كان في وسعه أن يكون أكثر تسامحاً في قبول حتمية وجود جمهرة كبيرة من الملعونين منه في الخضوع لسلطان بابوات يشتمون في جمع الضرائب بصورة فاضحة . ورفض التسليم بالتعريف الكهنوتي للكنيسة بأنها هي الأسقفية وعرفها بأنها جماعة المؤمنين بالله وبآلام المسيح تكفيراً عن ذنوب البشر ولكنه ردد العقيدة البابوية عند ما كتب يقول : « إن كل الناس الذين ينشدون الوصول إلى الله ويعملون من أجل هذا الوصول بأية وسيلة أخرى غير التوسل بالمسيح (مثل اليهود والآتراك والبابويين والقديسين

الزائفين والهراطقة . . . إلخ) يسرون في ظلام دامس سادرين في الخطأ ولا بد من أن يموتوا آخر الأمر ويضيعوا في آثامهم» (١٤٣). هنا ولدت من جديد في فيتنبرج تعاليم بونيفاس الثامن ومجلس روما (١٣٠٢) التي تقول : « لا خلاص للإنسان خارج الكنيسة » .

وأعظم مادة ثورية في لاهوت لوثر هي تجريد القسيس من منصبه وإباحته للقساوسة الحصول على راتب لا بصفتهم موزعين لا غنى عنهم للقربان المقدس ولا باعتبارهم وسطاء مختصين بين الله والناس ولكن بصفتهم خادمين اختارتهم كل أبرشية للوفاء بحاجاتها الروحية ، وسوف يبدد هؤلاء القساوسة ، بزواجهم وتشتتهم لأسرة هالة القساوسة التي جعلت نظام القساوسة قوياً رهيباً ، فهم سيكونون « أولاً بين أنداد » ولكن أى إنسان في وسعه عند الحاجة أن يقوم بوظائفهم بل يحل نائباً من ذنبه . وعلى الرهبان أن يتخلوا عن عزلتهم الأنانية وحياة الدعة التي يعيشونها في الغالب وأن يتزوجوا ويكدهوا مع الآخرين ، فالرجل الذي يجر المحراث والمرأة التي تشتغل في المطبخ يعبدان الله خيراً مما يفعل الراهب وهو يتمتع بصلوات غير مفهومة في تكرار يجلب النعاس . ولا بد أن تكون الصلاة هي الصلة الروحية المباشرة بين العبد وربّه ولا تكون ابتهالات بقديسين شبه أسطوريين . ومن رأى لوثر أن عبادة القديسين لم تكن معايشة ودية مواسية بين عزلة الحى وقداسة الموتى ، كانت ردة إلى عبادة الأصنام البدائية المشركة (١٤٤) .

أما القرايين المقدسة التي كان ينظر إليها على أنها حفلات يقيمها القساوسة للحصول على الغفران من الرب فإن لوثر هون من شأنها بقسوة فهمى لا تنطوى على قوى معجزة وفعاليتها تتوقف لا على أشكائها وصيغها ولكن على إيمان من يتلقاها ، وتثبيت العماد والزواج والرسالة الأسقفية للقساوسة والمسح المغالى فيه للمحتضر ليست إلا طقوساً لم يرتبط بها أى وعد يعفو الله في الكتاب المقدس ويمكن للدين البلديد أن يستغنى عنها . أما العماد فهناك بيئة

عليه في مثال يوحنا المعمدان ويمكن استبقاء الاعتراف السمعي باعتباره من المقدسات على الرغم مما يحيط من شكوك بالأساس الذي يستند إليه في الكتاب المقدس (*) . وأعظم قربان مقدس هو عشاء الرب أو العشاء الرباني . ويرى لوثر أن الفكرة التي تذهب إلى أن القسيس يمكنه بتعويذة من كلماته أن يغير الخبز إلى المسيح بخيطة تنطوي على التجديف ، ورأى مع ذلك أن المسيح يهبط من السماء بمحض مشيئته ليكون حاضراً بطريق التجسد مع الخبز والنبيذ في القربان المقدس . وليس القربان المقدس بجزءاً كهنوتياً ولكنه معجزة إلهية دائمة (١٤٥) .

ولا شك أن عقيدة لوثر في القربان المقدس وإحلاله عشاء الرب محل القداس ونظريته عن الخلاص بالإيمان لا بالأعمال الصالحات قد قوضت دعائم سلطة رجال الكهنوت في شمال ألمانيا .

وأخذ لوثر يروج لهذا النهج فرفض الاعتراف بالحكام الأسقفية والقانون الكنسي وأصبحت المحاكم المدنية في أوروبا اللوثرية هي المحاكم الوحيدة كما أصبحت السلطة الزمنية هي السلطة الشرعية الوحيدة . وعين الحكام الزمانيون موظفي الكنيسة وانتزعوا أملاكها وبدأوا في الإشراف على مدارسها ومبرات الأديرة . وظلت الكنيسة والدولة مستقلتين لإحدهما عن الأخرى من الناحية النظرية وإن أصبحت الكنيسة بالفعل خاضعة للدولة . وهكذا قدر للحركة اللوثرية التي كان يعتقد أنها الحياة بأسرها للاهوت أن تقدم ، بلا قصد ورغم أنها ، ذلك التحول الشامل نحو الدنيوية الذي أصبح الموضوع الأساسي في الحياة العصرية .

٩ - الثوري

عند ما سعى بعض الأساقفة إلى إسكات لوثر وأتباعه أطلق صرخة مذبذبة غاضبة كانت بمثابة النافوس المنذر بالثورة تقريباً ، ففي كتيب « ضد

() استند به في الشهادة الثورية الاعتراف بالامتناع عن أن يقره لإبراء العلم .

النظام الذى يطلق عليه بهتاناً اسم النظام الروحى للبابا والأساقفة » (يوليو ١٥٢٢) دمغ البطارقة ووصفهم بأنهم « أكبر الذئاب » جميعاً وناشد كل الألمان الصالحين أن يطردوهم بالقوة .

« كان من الخير أن يقتل كل أسقف وأن تقتلع جذور كل مؤسسة أو دير ، فهذا أفضل من أن تزهر روح واحدة فما بالك بفقد كل الأرواح من أجل بهرجهم التافه وعبادة الأوثان . ما فائدة هؤلاء الذين يعيشون غارقين فى الشهوات ويتغذون بعرق الآخريين وكلدحهم ؟ . . . لانهم إذا رضوا بكلمة الله وسعوا إلى حياة الروح فإن الله يكون معهم . . . أما إذا لم يستمعوا إلى كلمة الله وثاروا غضباً وتوعدوا بالحرمان والحرق والقتل وبكل شر مستطير ، فإذا يستحقون غير ثورة عارمة تكتسحهم من فوق ظهر الأرض ؟ ولسوف تبسم إذا حدث هذا . إن كل من يتبرع بالجدد أو بالمتاع أو الشرف للقضاء على حكم الأساقفة هم أطفال الله الأعزاء ومسيحيون صادقون » (١٤٦) .

وفى هذا الوقت انتقد لوثر الدولة انتقاده للكنيسة ، فقد آلمه تحريم بيع عهده الجديد أو حيازته فى المناطق التى تخضع لحكام من المحافظين فكتب فى خريف عام ١٥٢٢ رسالة عنوانها « عن السلطة الزمنية : إلى أى حد يجب أن تطاع » . وبدأها بأسلوب ودى للغاية فأقر عقيدة القديس بولس عن الخضوع المدنى والأصل الإلهى للدولة . ومن الواضح أن هذا كان يتناقض مع تعاليمه الخاصة التى تقول بالحرية الكاملة للمسيحى . وأوضح لوثر أنه على الرغم من أن المسيحيين المخلصين ليسوا فى حاجة إلى قانون . . . ومع أن أحداً منهم لن يواجه الآخر بالقانون أو القوة فإنهم يجب أن يطيعوا القانون وأن يكونوا قدوة لغالبية الناس من غير المسيحيين المخلصين لأن فطرة الإنسان التى تمنح الإثم فى غيبة القانون سوف تمزق المجتمع إرباً . ومع ذلك فإن سلطة الدولة يجب أن تنتهى حيث يبدأ ملكوت الروح . من

هم هؤلاء الأمراء الذين يأخذون على عواتقهم أن يفرضوا على الناس ما يقرأونه أو ما يعتقدونه ؟

« لا بد أن تعرفوا أن الأمير الحكيم ينذر وجوده حقاً منذ بداية الخليقة مثله في ذلك مثل الأمير الورع . فالأمراء في العادة أكبر الحمقى أو أسوأ الأفاقيين على ظهر الأرض . لأنهم السجانون والجلادون الذين يسلمهم الله على عباده ، وهم أدوات الله التي تحقق غضبه تعالى بعقاب الأشرار وللمحافظة على السلام بين الناس . . . ومهما يكن من أمر فلإني بهل إخلاص أنصح هؤلاء الناس الذين طمس الله على أبصارهم أن ينتبهوا إلى القول الموجز في المزمور ١٠٧ : (٢٧) « إن الله تعالى ينزل سخطه على الأمراء » وإني أقسم لكم بالله أن هذه العبارة الموجزة لو أصبحت سيفاً مصلتاً على أعناقكم بسبب خطئكم فلا تلوموا إلا أنفسكم ، وذلك على الرغم من أن كل واحد منكم متين البنيان كالتركي ولن يجديكم فتيلاً تميزكم غضباً وتحمسكم للكلام فقد تحقق فعلاً بجانب كبير منه ، لأن . . . الرجل العادي يتعلم كيف يفكر . . . ثم إن الجماهير وعامة الناس تستجمع نقيمتها على الأمراء وعلى الناس بعد هذا ألا يعانون من طغيانهم وغرورهم فهذا ما لا يستطيعونه ولن يسمحوا به . فيا أيها الأمراء والسادة الأعزاء تمسكوا بأهداف الحكمة واهتدوا بهديها . إن الله لن يتسامح معكم بعد هذا ولم يعد العالم ذلك الذي كنتم فيه تطاردون الناس وتسوقونهم كالأنعام » (١٤٧) .

واتهمه رئيس وزراء بافاريا بأن هذه دعوة للثورة تتسم بالخيانة ، وندد بهذه الرسالة اللدوق جورج ووصفها بأنها إلفك وحث الأمير المختار فردريك على أن يصادرها . ولكنه على العكس من ذلك سمح بتوزيعها بما عهد فيه من اتزان . ترى ماذا كان يقول الأمراء لو أنهم قرأوا رسالة لوثر إلى فنتسل لينك Wenzel Link (١٩ مارس ١٥٢٢) ؟ « إننا ننتصر على الطغيان البابوي الذي طالما سحق ملوكاً وأمراء فكيف لا يسهل علينا إذن أن نتغلب

على الأمراء أنفسهم ونطأهم بنعالنا» (١٤٨). أو ماذا هم قائلون إذا اطلعوا على تعريفه للكنيسة ؟ « أعتقد أنه لا توجد على ظهر الأرض إلا كنيسة مسيحية عامة ، حكيمة كالعالم ولكنها كنيسة مقدسة وهي ليست إلا جماعة القديسين . . . وأعتقد أن كل الأشياء على المشاع في هذه الجماعة أو في هذا العالم المسيحي ، وكل ما يملكه الإنسان من متاع ملائكة للآخر ولا يوجد شيء ملائكة لأحد فحسب» (١٤٩) .

كانت هذه سورة عارضة يجب ألا تؤخذ بمعناها الحرفي ؛ فالواقع أن لوثر كان محافظاً بل ورجعياً في السياسة والدين، بمعنى أنه كان يريد أن يعود بالناس إلى المعتقدات والرسائل الأولى في القرون الوسطى ، وكان يعد نفسه ممن يردون الأشياء إلى أصولها وأنه ليس مبتدعاً . وكان يمكن أن يقنع بالحنائظ على المجتمع الزراعي الذي عرفه في طفولته واستمراره مع لإدخال بعض وجوه التحسين التي تتسم بالبر . واتفق في الرأي مع الكنيسة في القرون الوسطى في إدانة الربا إلا أنه أضاف بطريقته المرححة أن الربا بدعة من عمل الشيطان وأسف لنمو التجارة الخارجية ووصف التجارة بأنها : « مهنة مردولة» (١٥٠) واحتقر هؤلاء الذين يكسبون معاشهم بشراء السلعة بثمان رخيض وبيعها بثمان غال . وندد بالمحتكرين الذين كانوا يتآمرون لرفع الأسعار لأنهم « لصوص ظاهرون للعيان » ، وقال : « لكم تحسن السلطات صنعا لو أخذت من هؤلاء الناس كل ما يملكون وطردهم من البلاد» (١٥١) ورأى أن الوقت قد حان لوضع « شكيمة في فم آل فوجر» (١٥٢) ، وانتهى إلى رأى يتندر بالويل في رسالة عاصفة عنوانها : « عن التجارة والربا » (١٥٢٤) :

« ينبغي أن ينظر الملوك والأمراء إلى هذه الأشياء وأن يحرموها بمقتضى قوانين صارمة ، ولكنني أسمع أن لهم مصلحة فيها وهكذا يتحقق قول أشعياء : « لقد أصبح الأمراء رفاقاً للصوص » وأنهم ليشنقون اللصوص الذين سرقوا جولدن أو نصف جولدن ولكنهم يتاجرون مع من يسلبون العالم بأسره . . .

وهكذا يشق اللصوص الكبار صغارهم ؛ وكما قال كاتو عضو الشيوخ الروماني : « الأغرار من اللصوص يزج بهم في السجن ويطرحون لآلات التعذيب بينما يسير اللصوص المعروفون للناس في الخارج يرفلون في الحرير ويتحلون بالذهب » . ولكن ما هو حكم الله على هذا في آخر الأمر ؟ لأنه سوف يفعل ما يقوله لخزقيال : أمراء وتجار ، لص مع آخر لسوف يصهرهم الله معاً كما يصهر الرصاص والنحاس أو كما تحترق مدينة ؛ فبالمثل لن يكون هناك أمراء ولا تجار بعد هذا . وفي هذه المرة أخشى أن يكون هذا على الباب (١٥٣) .
وقد كان .

الفصل السابع عشر

الثورة الاجتماعية

١٥٢٢ - ١٥٣٦

١ - الثورة الصاعدة

لقد كان الفرسان المسغبون ينتظرون في صبر نافذ فرصة مواتية للثورة على الأمراء والبطارقة والموليين . وكان شارل الخامس بعيداً عن البلاد في إسبانيا عام ١٥٢٢ ، وفرق سيبيكينجن ينتابها القلق بسبب تعطلها عن العمل ، وكانت الأراضي الغنية التي تمتلكها الكنيسة مباحة ويمكن الاستيلاء عليها بسهولة . وكان هوتن يدعو للعمل ، وكان لوثر قد دعا الشعب الألماني إلى تطهير الأرض من مضطهديه .

وفي الثالث عشر من أغسطس وقع عدد من الفرسان في لاندناو تعهداً بالعمل الموحد ، وحاصر سيبيكينجن مدينة تريز وقلدها بمشورات تحرض الناس على الانضمام إليه لخلع كبير الأساقفة الحاكم ، وانكسرتهم لم يحركوا ساكناً ، وجمع كبير الأساقفة فرقاً ، وقادها بنفسه ، ثم قام بخمس هجمات مضادة ، فرفع سيبيكينجن الحصار عن المدينة وتراجع إلى قلعته في لاندشتول . وهاجم كبير الأساقفة القلعة بعنف ، وأصيب سيبيكينجن بجرح قاتل وهو يدافع عنها ، ثم استسلم في اليوم السادس من مايو عام ١٥٢٣ ومات في اليوم السابع من مايو . وخضع الفرسان للأمراء وسرحوا الجنود العاملين بيجوشهم الخاصة وتشبهوا في قسوة يائسة بالضرائب الإقطاعية المفروضة على الفلاحين التي كانوا يعتمدون عليها في معاشهم .

وتنبأ لوثر بهذا التصدع فتنصل من الثورة قبل فوات الأوان (١٩ ديسمبر سنة ١٥٢٢) واستمر نجمه في صعود . وكتب الأرشيدوق فرديناند لأخيه الإمبراطور (١٥٢٢) « إن قضية لوثر تمتد بجنورها عميقة في الإمبراطورية بأسرها إلى حد أنه ليس هناك شخص واحد من كل ألف في عصمة منها » (١) . وكان الرهبان والقساوسة يقبلون زرافات إلى مذبح الزوجية الحديد . وترددت في كنيسة لورنز وزيبالدوس بنورمبرج « كلمة الله » - وهي العبارة التي أطلقها المصلحون على عقيدة تقوم على الكتاب المقدس فحسب . وأنتد الوعاظ الإنجيليون ينتقلون بحرية في أرجاء شمالي ألمانيا ويستولون على منابر قديمة ويشيدون منابر جديدة ، ولم ينددوا بالبابوات والأساقفة باعتبارهم « خدماً للشيطان » فحسب ، واكنهم نددوا أيضاً بالسادة الزميين باعتبارهم « مستبدين ظالمين » (٢) . ومهما يكن من أمر فإن السادة الزميين كانوا هم أنفسهم ممن اهتموا بهدى العقيدة الحديدية : فيليب الهسي وكازيمير البراندنبرجي وأولريخ الفيرتيمبرجي وأرنست اللينبرجي وجون صاحب ساكسونيا . بل إن إزابيلا شقيقة الإمبراطور كانت من أتباع لوثر .

وكان الأستاذ القديم لشارل قد أصبح الآن البابا أدريان السادس (١٥٢١) فأرسل إلى مجلس النواب في نورمبرج (١٥٢٢) طلباً بالقبض على لوثر واعترافاً صادقاً بالأخطاء التي تردت فيها الكنيسة : « إننا نعلم تمام العلم أن أموراً كثيرة تستحق المقت قد تجمعت حول منصب البابا منذ سنين عديدة . وقد أسىء استخدام الأشياء المقدسة واعتدى على القوانين حتى إنه في كل شيء كان هناك تغيير إلى الأسوأ ، فلا عجب إذا كان المرض قد زحف من الرأس إلى الأعضاء ، من البابوات إلى من يلونهم في المناصب . لقد حدثنا نحن جميعاً ، من البطارقة ورجال الدين ، عن الطريق المستقيم ، ومنذ عهد بعيد لم يعمل واحد منا عملاً صالحاً ، لا أحد بتاتاً . . . والمذاك . . . فإننا سوف نبذل كل ما في طاقتنا من جهد لإصلاح المحكمة الرومانية قبل

كل شيء آخر ، وهى التى ربما كانت سبباً فى كل هذه الشرور . . . إن العالم بأسره يتوق إلى مثل هذا الإصلاح» (٣) .

ووافق المجلس على أن يطلب من الأمير المختار فرديك كنج بجماع لوثر ، ولكنه تساعل لماذا يجب أن يدان لوثر لأنه أشار إلى المظالم التى ارتكبها رجال الدين والتى أيدتها السلطات وقتذاك . وعند ما وجد المجلس أن اعتراف البابا ليس فيه ما يكفى من التفاصيل أرسل له قائمة خاصة ضمنها مائة مظلمة من ألمانيا ضد الكنيسة واقترح أن ينظر بعين الاعتبار إلى هذه الشكاوى ، وعلاجها بوساطة مجلس وطنى يعقد فى ألمانيا برئاسة الإمبراطور . واستمع المجلس النيابى نفسه ، وكانت تغلب عليه طائفة النبلاء ، فى عطف إلى الاتهامات الموجهة ضد الاحتكاريين بأنهم يثرون على حساب الشعب وكتبت لإحدى اللجان إلى المدن الكبرى فى ألمانيا تطلب منها إبداء رأيها فيما إذا كانت الاحتكارات ضارة وهل يجب تنظيمها أو القضاء عليها . وردت مدينة أولم بأنها شر مستطير وأن المؤسسات التجارية يجب أن تكون مقصورة على الأب وابنه وزوج ابنته ، أما أوجسبورج موطن آل فوجر فلأنها قدمت دفاعاً كلاسيماً عن المشروعات التجارية الكبيرة وحرية التجارة وعن الأرامل والأيتام :

« إن العالم المسيحى (أم ينبغى أن نقول العالم بأسره ؟) غنى بسبب العمل ، وكلما اتسع حجم العمل فى بلد ما ازداد رخاء شعبه . . . وحيث يكثر عدد التجار تزداد فرص العمل . . . ومن المستحيل تحديد حجم الشركات . . . فكلما اتسع حجم معاملاتها وازداد عددها كان هذا خيراً لكل إنسان . وإذا لم يكن التاجر مطلق الحرية فى القيام بأعماله فى ألمانيا فإنه سوف ينطلق إلى مكان آخر فتحسر ألمانيا . . . وإذا لم يستطع القيام بالعمل بعد أن يتجاوز قدرأ معيناً فماذا هو صانع بفائض أمواله ؟ . . . من الخير أن يترك التاجر وشأنه ، وألا توضع أية قيود على مقدراته أو على رأس ماله ،

إن بعض الناس يتحدثون عن تحديد طاقة الربح في الاستثمارات . وهذا سوف . . . يؤدي إلى ظلم فادح وضرر بالغ بإبعاد معاش الأراامل والأيتام وبقية المعذنين الذين يستمدون دخلهم من الاستثمارات في هذه الشركات «(٤) . وأصدر المجلس النيابي تشريعاً بالألا يزيد رأس مال الشركات عن ٥٠,٠٠٠ جيلدر وإلزامها بتوزيع الأرباح كل سنتين وتقديم حساب علني ، وألا يقرض المال بفوائد ربوية ، وألا يشتري تاجر أكثر من قدر معين من أية سلعة في أي فصل من فصول السنة ، وأن تحدد الأسعار بمقتضى قانون . واستعان التجار بشارل الخامس فأيدهم لأسباب سبق بيانها . ولما كان كثير من حكام المدن يشاطرون في أرباح الاحتكارات فإن مراسيم نورمبرج سرعان ما أصبحت حبراً على ورق .

وأرسل كليمنت السابع ، البابا الجديد ، إلى جلسة تالية للمجلس النيابي (يناير عام ١٥٢٤) الكردينال لورزو كامبيجيومعه مطالب جديدة بالقبض على لوثر ، وسخرت الجماهير من القاصد الرسول في أوجسبورج واضطر إلى دخول تورمبرج سرآ حتى يتجنب المظاهرات المعادية ، وكان من حظه الإذلال عند ما رأى ٣٠٠٠ شخص من بينهم شقيقة الإمبراطور يتلقون القربان المقدس بكلاما نوعيه من راع من أتباع لوثر . فحذر المجلس النيابي من أن الثورة الدينية إذا لم تقمع في مهدها فإنها سوف تقوض دعائم السلطة المدنية وتهدم النظام ، ولكن المجلس النيابي رد عليه بأن أية محاولة لقمع الحركة اللوثرية بالقوة سوف تنتهي بـ « ثورة وعصيان ومذبحة . . . ودمار شامل »(٥) وبينما كانت تدور المداولات بدأت الثورة .

٢ - حرب الفلاحين

١٥٢٤ - ١٥٢٦

أتاحت الثورة الدينية للكادحين في الحقول أيديولوجية تسهوى الأفئدة

وتعبر عن مطالبهم بالحصول على نصيب أكبر في رخاء ألمانيا المتزايد .
يضاف إلى هذا أن الشدائد التي كانت قد حفزت أهل الريف للقيام بانثى
عشرة ثورة ما زالت تثير إلى حد ما في ذهن الفلاح اضطراباً ، والحق أن هذا
الاضطراب المحموم ازداد شدة في الوقت الذي تحدى فيه لوثر الكنيسة وانتهر
الأمرء وحطم سدود النظام والرهبنة ، وجعل من كل إنسان قساً وأعبان
حرية الإنسان المسيحي . وكانت الكنيسة والدولة في هذا العهد بألمانيا
مرتبطتين ارتباطاً وثيقاً - وكان رجال الدين يلعبون دوراً كبيراً في النظام
الاجتماعى والإدارة المدنية - إلى حد أن تقويض ما يتمتع به رجال الدين
من هيئة وسلطان قد أزال أكبر عائق للثورة . وقد استمر الولدانيون
والبغارديون وإنخوة الحياة المشتركة في تقليد قديم يذهب إلى تأسيس آراء
متطرفة من نصوص وردت بالكتاب المقدس . وكان تداول العهد الجديد
مطبوعاً لظمة لطبقة المحافظين من رجال السياسة والدين ذلك لأنه فضح
ما قام به رجال الدين من تراض مع طبيعة الإنسان وطرق العيش في الدنيا
كما كشف عن شيوعية الرسل وعطف المسيح على الفقراء والمضطهدين .
وكان العهد الجديد في هذه الأمور بمثابة « بيان شيوعى » حقيقى بالنسبة
للمتطرفين في هذا العصر ووجد فيه الفلاحون وطبقة الكادحين على السواء
ضماناً إلهياً لكى يحلموا بمدينة فاضلة (يوتوبيا) تلغى فيها الماكية الخاصة ويرث
فيها الفقراء الأرض .

وفى عام ١٥٢١ وزع في ألمانيا كتيب عنوانه karsthans أى جون
المنذرة ، وقد ضمن الحماية للوثر هذا « الرجل ذو الفأس » والقلم ، ونشر في
العام نفسه ملحق يدافع عن قيام أهل الريف بانتفاضة ضد الكنائس من
رجال الدين^(٦) وطالب يهناس لإرلين في كتيب آخر صدر عام ١٥٢١
بالتصويت العام للذكور ، وبتبعية كل حاكم وكل موظف للمجالس
الشعبية المنتخبة ، وبإلغاء كل المؤسسات الرأسمالية ، وبالعودة إلى تحديد أثمان

الخبز والخبز كما كانت في القرون الوسطى ، وبتعليم كل الأطفال اللاتينية واليونانية والعبرية والفلك والطب (٧) .

وصدر عام ١٥٢٢ كتيب عنوانه « احتياجات الأمة الألمانية » سب زوراً إلى الإمبراطور فرديريك الثالث المتوفى ودعا إلى إلغاء « كل المكوس والضرائب وجوازات السفر والغرامات » وإلغاء القانون الروماني والقانون الكنسي وتحديد حجم العمل في المؤسسات برأسمال قدره ١٠,٠٠٠ جيلدر وباستبعاد رجال الدين من الحكومة المدنية وبتصفية ثروة الأديرة وتوزيع المبالغ المحصلة على الفقراء (٨) . وأعلن أوتوبر ونفيلز (١٥٢٤) أن دفع ضرائب العشور إلى رجال الدين أمر مخالف لما جاء بالعهد الجديد . ومزج الوعاظ الإنجليزية البروتستانتية بالآمال البيوتوية ، وكشف أحدهم أن اللجنة مفتوحة الأبواب للفلاحين ومغلقة في وجوه الأشراف ورجال الدين ، ونصح آخر الفلاحين بأن يكتفوا عن إعطاء المال للقساوسة أو الرهبان ، وأشار منتسر وكارلشتادت وهوبماير على مستمعهم بأن « المزارعين والعاملين المناجم ودارسى الخنطة يفهمون نصوص الإنجيل وفي وسعهم أن يعلموها للناس خيراً من قرية بأسرها . . . من الرهبان والقساوسة . . . أو المتفقيهن في اللاهوت » ، وأرد كارلشتادت يقول : « بل وخيراً من لوثر » (٩) . وتنبأت التقاويم وطائفة المنجمين بقيام ثورة عام ١٥٢٤ وكأنها كانت بهذا تعطى إشارة البدء في العمل . ومما يذكر أن يوهانس كوكلايوس وهو عالم إنسانيات كاثوليكي حذر لوثر عام ١٥٢٣ بأن « عامة الناس في المدن والفلاحين في الأقاليم سوف يقومون لا محالة بثورة . . . إذ سمحت أفكارهم الكتيبات والخطب التي لا تحصى والحافلة بالسباب والتي نشرت أو أعلنت بينهم بفصاحة وإطناب ضد السلطة البابوية والسلطة الزمنية على السواء » (١٠) . ولكن لوثر والوعاظ وموئلي الكتيبات لم يكونوا السبب في الثورة لأن الأسباب إنما تكمن بحق في المظالم التي حاقت بطبقة الفلاحين ، وإن كان من الممكن أن يقال إن إنجيل لوثر وأتباعه المتطرفين قد « صبوا الزيت على

اللهب» (١١) وحولوا استياء المضطهدين إلى أو هام يوتوبية وإلى عنف لم يكن في الحساب وإلى انتقام شديد .

وتشبه سلوك توماس منتسر بكل إثارة حفل بها العصر ، فما أن عُنِين واعظاً في آلشتدت (١٥٢٢) حتى طالب بإبادة الكفار - أي الأرثوذكس أو المحافظين - بحمد السيف وقال : « إن الكفار لاحق لهم في العيش إلا بقدر ما تسمح لهم بهذا الصفوة » (١٢) . واقترح على الأمراء أن يقودوا الشعب في ثورة شيوعية ضد رجال الدين والرأسماليين وعند ما لم يظهر الأمراء أنهم أهل لانتهاز هذه الفرصة استنفر الناس لقلب الأمراء أيضاً « ولكي يقيموا مجتمعاً مهذباً كالمجتمع الذي كان يفكر فيه أفلاطون . . . وأبيليوس مؤلف الحمار الذهبي » (١٣) وكتب يقول : « إن كل الأشياء على المشاع ويجب أن توزع حسب ما تقتضيه الحاجة وطبقاً للاحتياجات العديدة للجميع . وأى أمير أو كونت أو بارون يرغب عن قبول هذه الحقيقة بعد تذكره بها في حزم يجب أن تقطع رأسه أو يشنق » (١٤) . وتسامح الأمير المختار - فردريك في هذا الإنجيل وعده من قبيل الهزل ، ولكن أخاه الدوق جون وابن عمه الدوق جورج انضما في الرأي إلى لوثر بضرورة إقصاء منتسر عن وظيفته كراعى أبرشية (١٥٢٤) وأخذ الرسول الحانق يضرب في الأرض وينتقل من مدينة إلى مدينة ويعلن خلاص « إسرائيل » وقرب ظهور مملكة الرب على الأرض (١٥) .

ووجد في مدينة ميلهاوزن الحرة في نورينجيا مناخاً سياسياً لطيفاً ، فهناك جمعت صناعة النسيج عدداً كبيراً من طبقة الكادحين ، وكان هينريخ بفيفر ، وهو راهب سابق ، قد بدأ هناك حركة لانتزاع المجلس البلدى من أيدي الأقلية من الأشراف . وبشر منتسر ببرنامج المتطرف عمال المدينة وطبقة الفلاحين في المناطق المجاورة ، وفي يوم ١٧ من مارس عام ١٥٢٥ نخلع أتباع بفيفر ومنتسر المسلحون الأشراف وأقاموا « مجلساً دائماً » ليحكم ميلهاوزن .

وطبقاً لما يقوله ميلانكتون طرد المتطرفون المظفرون الرهبان وجردوا الكنيسة من أملاكها (١٦) ، ومهما يكن من أمر فلم يكن من المستطاع الوثوق بعالم من علماء اللاهوت في هذا العصر ، ليقدم بلا تحيز تقريراً عن أعمال الخصوم ووجهات نظرهم ولم تنشأ جامعة أمم (كومونويلث) شيوعية ، وأثبت بغير أنه أقدر في الناحية العملية من منتسر ، وطوع الثورة للوفاء بحاجات الطبقة المتوسطة . وتوقع منتسر مسبقاً مهاجمة الفرق الإمبراطورية ، فنظم جيشاً من العمال والفلاحين وأعد له طائفة من رجال المدفعية الثقيلة في دير « الرهبان الحفاة » وكانت الصيحة التي أطلقها بين رجاله هي « إلى الأمام والحديد لا يزال ساخناً واجعلوا سيوفكم دائماً ساخنة بالدماء » (١٧) .

وفي نحو هذا الوقت نفسه كانت ثورات الفلاحين تزلزل جنوب ألمانيا ، ولعل عاصفة البرد الهوجاء (١٥٢٤) التي قضت على كل الآمال المعقودة بلخى محصول في شتيلنجن كانت بمثابة الزناد الذي أشعل نار الثورة . ولم تكن هذه المقاطعة القريبة من شافهاوزن تبعد كثيراً عن سويسرة لكي يشعر أهلها مثل الفلاحين الأشداء الذين كانوا قد حرروا أنفسهم هناك من كل شيء إلا مظاهر السلطة الإقطاعية . وفي ٢٤ أغسطس عام ١٥٢٤ جمع هانز ميلر حوله بعض الفلاحين من شتيلنجن بناء على إيجاء من منتسر وكون لهم رابطة باسم « الأخوة الإنجيلية » وتعهد بتحرير المزارعين في أرجاء ألمانيا ، وسرعان ما انضم إليهم المستأجرون الساخطون من راهب ريخيناو وأسقف كونيستانس وكونتات فردينبورج ومونتفورت ولوبفين وسولتس . وما أن انتهى عام ١٥٢٤ حتى كان هناك حوالي ٣٠,٠٠٠ فلاح مدججين بالسلاح في جنوب ألمانيا ، ورفضوا دفع الضرائب التي تفرضها الدولة وضرائب العشور الكنسية والضرائب الإقطاعية وأقسموا على الظفر بالحرية أو الموت ، وفي مارس ١٥٢٥ صاغ في ميمينجن مندوبوهم ، بإرشاد البروتستانت من أتباع تسفينجلى أو بتأثيره ، البنود الاثني عشر التي أشعلت النار في نصف ألمانيا .

« إلى سلام القارئ المسيحي ورحمة الله من خلال المسيح » .

هناك الكثيرون من المناهضين للمسيحية انتهزوا أخيراً فرصة انعقاد مجلس للفلاحين لازدراء الإنجيل قائلين أليس هذا ثمرة الإنجيل الجيد؟ وهل لا بد ألا يمثل أحد وأن يتمرد الجميع . . . لقلب السادة الروحانيين والزمنيين أو ربما لقتلهم؟ إن كل النقاد الكافرين والأشرار يجدون الجواب على هذه الأسئلة في البنود التالية لكي يزيلوا أولاً هذا اللوم عن كلمة الله وثانياً ليبرروا بطريقة مسيحية عدم امتثال الفلاحين بل وثورتهم .

فأولاً نمرّب أن ملتمسنا وطلبنا المتواضع وأن إرادتنا ومشيتنا جميعاً هي أن يتحقق لنا في المستقبل قوة وسلطان يهبثان بالجماعة بأسرها أن تختار راعياً وأن تعينه وأن يكون لها الحق في عزله . . .

ثانياً : بما أن ضريبة العشور قد نص عليها العهد القديم ووردت في العهد الجديد فإننا سوف . . . ندفع ضريبة العشر من الحبوب ولكن بطريقة صحيحة . . . وسوف يجمع هذه في المستقبل ويتسلمها رئيس كنيستنا الذي تعينه الجماعة ومن هذه الضريبة يجب أن يمنح الراعي . . . مرتباً متواضعاً وكافياً لمعيشته هو وأسرته . . . وأن يوزع الباقي على الفقراء والمحتاجين الذين يعيشون في القرية نفسها . . . أما ضريبة العشر الصغيرة فلن ندفعها على الإطلاق ، لأن الله قد خلق الماشية لكي ينتفع بها الناس دون قبيل . . .

ثالثاً : لقد جرت العادة حتى الآن على أن يعتبرنا الناس متاعاً خاصاً لهم ، وهذا أمر يدعو للأسف ، لأن المسيح كفر عن سيئاتنا جميعاً وافتدى بدمه الزكي المراق الأديباء والعظماء على السواء . . . ومن ثم فإنه مما يتفق وتعاليم الكتاب المقدس أن نكون أحراراً ولسوف نكون أحراراً (هـ.كذا) . . . ونحن نخضع عن طواعية لحكامنا المختارين والمعيّنين (الذين عينهم لنا الله) في جميع الأمور المسيحية الصحيحة ولا نتخالفنا أية ربة في أنهم سوف يحررونا من نير العبودية أو يريننا في الإنجيل أننا أرقاء . . .

سادساً : أن لنا شكوى مريرة بسبب الخدمات التي تزايدت من يوم إلى آخر . . .

ثامناً : لقد لحق بنا ضرر بليغ لأن الكثيرين منا مستأجرون أراضي لا تكفي غلتها لسداد قيمة ما ندفعه من إيجار لها ولأن الفلاحين يتعرضون للخسارة والخراب . فليدع السادة أناساً من الشرفاء يفحصون الأراضي المستأجرة المذكورة ويحددون الإيجار العادل . . . لأن كل عامل يستحق أجره . . .

عاشراً : لقد أصبنا بضرر بالغ لأن البعض انتزعوا لأنفسهم ملكية مراع من الحقول المشاعة والتي كانت يوماً ملكاً للجماعة . . .

حادى عشر : سوف نعمل على إلغاء الضرائب المفروضة على الوفاء لإلغاء تاماً . ولن نتحملها ولن نسمح بنهب أموال الأرامل والأيتام على هذا النحو المخجل .

ثانى عشر : إذا تبين لنا أن ثمة خطأ فى بند أو أكثر من البنود الموضحة بفضل كلمة الله فإننا نتراجع عنها إذا أيدت لنا هذا أدلة من الكتاب المقدس (١٨) .

وتشجع زعماء الفلاحين بتصريحات لوثر نصف الثورية وبعثوا إليه بنسخة من البنود وطلبوا منه أن يناصرهم ، فرد عليهم بكتيب نشر فى إبريل عام ١٥٢٥ وعنوانه : « تنبيه إلى السلام » وأثنى على عرض الفلاحين بالخضوع لأى قصاص ينص عليه الكتاب المقدس وتعرض للاتهامات التي وجهت وقتذاك إلى خطبه ومقالاته بأنها قد أشعلت نار الثورة فأذكر مسؤوليته عنها وأشار إلى أنه كان يحث الناس على الخضوع للسلطة الدينية ولكنه لم يسحب نقده للطبقة الحاكمة وقال :

« لا يوجد على ظهر البسيطة من نشكركه على هذه الثورة الخبيثة إلا أنتم أيها الأمراء والسادة ، وبخاصة أنتم أيها الأساقفة العميان والقساوسة والرهبان

المجانين يا من قست قلوبكم على الإنجيل المقدس رغم أنكم تعلمون أن ما جاء به صحيح وأنكم لا تستطيعون أن تدحضوه . وفضلاً عن هذا فإنكم في حكومتكم الزمنية لم تفعلوا شيئاً إلا التنكيل برعاياكم وسلب أموالهم لكي تنعموا بعيشة رغدة ترضى كبرياءكم . لقد فاضت الكأس حتى لم يعد الفقراء من عامة الناس يتحملون أكثر من ذلك . وإذن ما دمتم السبب في سخط الله فإن غضبه تعالى سوف يحقق بكم لا محالة إذا لم تصاحوا من وسائلكم في الوقت المناسب .

إن الفلاحين يحشدون قواهم ولا بد أن يؤدي هذا إلى خراب ألمانيا ودمارها وتحطيمها بقتل الناس في قسوة وسفك الدماء ما لم يقبل الله توبتنا ويجنبنا هذا المصير « (١٩) .

ونصح الأمراء والسادة الإقطاعيين بأن يعترفوا بعدالة كثير من البنود وحتمهم على انتهاج سياسة تنسم بالرأفة ، ووجهه إلى الفلاحين خطاباً صريحاً أقر فيه بما أصابهم من أضرار ، ولكنه توسل إليهم أن يحجموا عن استخدام العنف وعن الانتقام ، وتنبأ بقوله إن الالتجاء إلى العنف سوف يترك الفلاحين في وضع أسوأ مما كانوا فيه من قبل . وتنبأ أيضاً بأن أي ثورة سوف تصم بالعار حركة الإصلاح الديني وأنه سوف يلام على كل شيء . وعارض استيلاء كل أبرشية على ضرائب العشور وقال إنه يجب على الناس الخضوع للسلطات إذ أن لها الحق في فرض ما تراه من ضرائب لمواجهة نفقات الحكومة وأن حرية الرجل المسيحي يجب أن تفهم على أنها حرية روحية لا تتعارض مع العبودية بل ولا الرق . وقال :

ألم يتخذ إبراهيم وأبناؤه الآخرون والأنبياء عبيداً ؟ أقرأ ما يعلمه لنا القديس بولس عن الخدم الذين كانوا جميعاً أرقاء في ذلك العهد . . . ومن ثم فإن بندكم الثالث لا يسرى على الإنجيل فهذه المادة تساوى بين الناس جميعاً وهذا مستحيل ، فلاك لأن مماكرة دنيوية لا تستطيع أن تقف على قدميها

ما لم تكن هناك درجات متفاوتة بين الأشخاص بحيث يكون البعض منهم أحراراً والبعض مسجونين والبعض سادة والآخرون رعايا (٢٠) .

ولو اتبعت نصيحته الأخيرة لجنبت ألمانيا كثيراً من سفك الدماء والدمار :

« تخيروا من الأشراف بعض الكونتات والوردات ومن المدن بعض أعضاء المجلس وعالجوا هذه الأمور وأحسموها بطريقة ودية . وأنتم أيها السادة تخلوا عن عنادكم وأقلعوا قليلاً عن طغيانكم واضطهادكم حتى يتنفس الفقراء من الناس ويجدوا متسعاً للعيش . وعلى الفلاحين بدورهم أن يعلموا أنفسهم وأن يتخلوا عن بعض المطالب التي تدق على فهمهم وترتفع عن مستوى إدارتهم (٢١) .

ومهما يكن من أمر فإن زعماء الفلاحين شعروا بأن الأوان قد فات للتراجع عما اعتزموه لأنهم سيتعرضون للعقاب عاجلاً أو آجلاً في أية مصالحة . وأحزنهم هذا التحول من لوثر وعدوه خائناً واستمروا في الثورة . وتشبه بعضهم حرفياً بحلم المساواة : كان على الأشراف أن يجردوا قلاعهم من السلاح ويعيشوا كما يعيش الفلاحون وأوساط الناس وكان عليهم أن يكفوا عن امتطاء صهوات الجياد لأن هذا يرفعهم فوق مصاف أتباعهم . وكان لا بد من إبلاغ القساوسة أنهم منذ ذلك الوقت نخدم لرعايا أبرشياتهم لا سادة لهم وأنهم سوف يطردون إذا لم يتشبهوا بنصوص الكتاب المقدس فحسب (٢٢) . وانهالت المطالب بالبريد من العمال في المدن ، ونددت باحتكار الأغنياء للوظائف في المدينة ، وباختلاس الموظفين المنحرفين للأموال العامة وبارتفاع الأسعار الدائم في الوقت الذي ظلت فيه الأجور ثابتة لا تتغير . وقال أحد المتطرفين لسوف يكون من الخير لخلاص الروح ألا يكون البطارقة على هذه الدرجة من الثراء وألا يعيشوا في مثل هذه الرفاهية وأن تقسم أملاكهم على الفقراء » . واقترح فندل هبلر وفرديك فايجانج تصفية

كل أملاك الكنيسة للوفاء بالحاجات الدنيوية وأن تلغى كل الرسوم للنقل والرسوم الجمركية وألا يستخدم في كل أنحاء أوروبا إلا نوع واحد من السمكة ونظام واحد من الأوزان والمكاييل (٢٤) .

وكان يتزعم هذه الحركة زعماء مختلفو المشارب : كان هناك اثنان من أصحاب الخانات هما جورج ميتزلر وميترن فويرباخر ، وكان هناك جيكلارين رورباخ الخراط الطروب ، وبعض قدامى الجنود والقساوسة السابقين وفارسان من عصابة سيكنجن المهزومة - فلوريان جبير وجيتز فون برليخنجن « ذو اليد الحديدية » وشاء القدر أن يقع اختيار هاوبتمان وجيته فيما بعد على هذين الرجلين فجعلنا منهما بطلين لمسرحيات شائعة . وكان كل زعيم مطلق السلطان بين جماعته ، وقلما كان يوفق بين عمله وعمل الآخرين ، ومع ذلك فان الثورة اشتعلت في ربيع عام ١٥٢٥ في اثنتي عشرة منطقة متفرقة في نفس الوقت ، واستولت جماعة من العمال على السلطة الإدارية في البلدية في هايلبرون وروتنبرج وفيرتسبورج ، وأعلنت حكومة الكومون الظافرة في فرانكفورت على الماين أنها سوف تمثل منذ ذلك سلطة المجلس البلدى والعمدة والبابا والإمبراطور مجتمعين . وفي روتنبورج طرد القساوسة من الكاتدرائية وحطمت التماثيل الدينية وهدمت بيعة وسويت بالأرض (٢٧ مارس سنة ١٥٢٥) وأفرغ الناس مخازن النبيلد التي يملكها رجال الدين وهم منتشون بخمر النصر (٢٥) . وتحلت المدن الخاضعة للسادة الإقطاعيين عن ولائها لهم ونادت المدن الخاضعة للأساقفة بإنهاء امتيازات رجال الدين ، وثار غضباً مطالبة بتخصيص أملاك رجال الدين للأغراض الدنيوية ، وانضمت دوقية فرانكونيا بأسرها تقريباً إلى الثورة . وأقسم كثير من السادة والأساقفة ممن لم يستعدوا للمقاومة ، أنهم يقبلون الإصلاحات المطلوبة منهم ، وذلك من أمثال أساقفة سببر وبامبرج ورهبان دير كيمبتين ودير هرتسفيلد وأعتق الكونت ويليام الهنبرجى أرقاه واستدعى الكونت جورج والكونت ألبريخت

الموهنلوهى للمثول أمام زعماء الفلاحين للانخراط فى سللك الهيئة الجديدة وقالوا : « تعال هنا أيها الأخ جورج والأخ ألبرخت وأقسما للفلاحين أن تكونا لهم كالإخوة لأنكما لم تعودا الآن سيدين بل أصبحتما فلاحين » (٢٦) . واستقبلت معظم المدن ثورات أهالى الريف بترحيب قلبى ، وأيدت الثورة كثير من رجال الدين من الرتب الدنيا الذين كانوا يمقتون السلطة الكهنوتية ، ووقعت أول مواجهة خطيرة فى لايبهايم على نهر الدانوب قرب أولم (٤ أبريل سنة ١٥٢٥) إذ استولى على المدينة ٣٠٠٠ فلاح تحت لواء قسيس ناشط هو جاكوب فيهى واحتسوا كل ما عثروا عليه من نبيذ ونهبوا الكنيسة وحطموا الأرغن وصنعوا لأنفسهم طزالق من الثياب الكهنوتية وبيعوا فى سخرية واحداً من جمعهم أجاجس على المذبح ، وارتدى مسوح قسيس (٢٧) . وقام بحصار لايبهايم جيش من الجنود المرتزقة استأجرته العصابة السوابية ويقوده جورج فون تروخسيس وهو قائد قدير ، وأفزح الفلاحين غير المدربين فاستسلموا وقطعت رؤوس فيهى وأربعة من الزعماء الآخرين ، أما الباقيون فقد عفت العصابة عنهم ، وإن كانت فرقها قد أحرقت كثيراً من أكواخ الفلاحين .

وفى يوم الجمعة الحزينة ١٥ أبريل سنة ١٥٢٥ قام بحصار مدينة فايتسبرج (قرب هايلبرون) ثلاثة من جماعات الثوار تحت قيادة متسلر جيير ورورباخ ، وكان يحكم هذه المدينة الكونت لودفيج فون هلفشتاين الذى كان يمقتة الناس بسبب قسوته وشدته . واقترب من الأسوار وفد من الفلاحين وطلب المفاوضة فقام الكونت وفرسانه بهجوم مفاجىء وذبحوا كل أعضاء الوفد . وفى يوم الأحد الموافق لعيد الفصح اقتحم المهاجمون الأسوار بمساعدة بعض أهالى المدينة ومزقوا أجساد الأربعين رجلا المدججين بالسلاح ، والذين اهتموا بالمقاومة وأسر الكونت وزوجته (وهى ابنة الإمبراطور الراحل ماكسميليان) وستة عشر فارساً ، وأصدر رورباخ ، دون مشاورة متسلر

أو جبير ، أمراً للسبعة عشر رجلاً بالمرور بين صفيين من الفلاحين المسلحين بالحرايب لتأديبهم ، وعرض الكونت أن يقدم كل أمواله فدية لهم ولكن هذا العرض رفض كوسيلة مؤقتة ، وتوسلت إليه الكونتيسة في تدلل شتموم أن يبقى على حياة زوجها ولكن رورباخ أمر اثنين من رجاله بأن يسنداها حتى تشهد نشوة الانتقام . وبينما كان الكونت يسير إلى حنقه وسط وابل من الخناجر والرماح ذكره الفلاحون بما ارتكب من أعمال وحشية وصاح أحدهم : « لقد ألقيت بأخى في غياهب السجن لأنه لم يرفع قبمته من على رأسه وأنت تمر به » . وصرخ آخرون : « لقد سخرتنا كالثيران في نير العبودية . . . لقد قطعت يدي والدى لأنه قتل أرنياً في حقله . . . لقد داست خيولك وكلابك وصيادوك محاصيلي . . . لقد استنزفت منا آخر بنس لدينا » . وفي خلال نصف الساعة القادمة لتي الستة عشر فارساً حنقهم بالمثل . أما الكونتيسة فقد سمح لها بأن تنسحب إلى دير (٢٨) .

كانت عصابات الفلاحين تثير الشعب في كل أرجاء ألمانيا تقريباً . ونهبت الأديرة أو أكرهت على دفع مبالغ كبيرة على سبيل الفدية . ويقول بعضهم في خطاب أرسل يوم ١٧ أبريل عام ١٥٢٥ : « في كل مكان يجاهر الثأرون . . . بنيتهم في قتل كل رجال الدين الذين لا يتصلون من ولائهم للكنيسة ويعلمون عن عزمهم على تدمير كل الأديرة وقصور الأساقفة واستئصال شأفة الدين الكاثوليكي تماماً من البلاد » (٢٩) . ولعل في هذا شيئاً من المبالغة ولكن في وسعنا أن نسجل أن الثوار استولوا على كثير من المدن وأكروهوا الأرشيدوق فرديناند على الموافقة على أن يكون الوعظ منذ ذلك الوقت طبقاً لنصوص الكتاب المقدس -- وهو مطلب برونستاني خاص . وذلك في بافاريا والنمسا والتيرول حيث لقيت البروتستانتية اضطهاداً ظاهراً . وفي ماينز فر كبير الأساقفة ألبرخت ولم يستطع مواجهة العاصفة . إن قام نائبه يانقاذ كرسي الأسقفية وذلك بتوقيع المطالب الاثني عشر ورفع فديته قدرها ١٥٠,٠٠٠ جيلدر ، وفي الحادي عشر من شهر أبريل رفض أن ياتي مدينة

بامبرج الاعتراف بسلطة الأسقف الإقطاعية ونهبوا قصره وأحرقوه وجردوا بيوت المحافظين من رجال الدين مما فيها وانتشرت الثورة في الألزاس انتشار النار في الهشيم ، وما إن أشرف شهر أبريل على نهايته حتى أصبح كل كاثوليكى وكل مالك نرى في المقاطعة يخشى على حياته . وفي الثامن والعشرين من شهر إبريل هاجم جيش عدته ٢٠,٠٠٠ من الفلاحين زابرن مقر أسقف ستراسبورج ونهبوا ديرهم وفي يوم ١٣ مايو استولوا على المدينة وأجبروا كل رجل رابع على الانضمام إليهم ورفضوا دفع كل ضرائب العشور وطالبوا بانتخاب جميع الموظفين فيما بعد عدا الإمبراطور عن طريق الاقتراع الشعبي وبأن يكونوا عرضة للعزل (٣٠) .

وفي بريكسين بالتيرول نظم ميكائيل جاسماير ، وهو سكرتير سابق للأسقفية ، ثورة هاجمت كل رجال الدين المحافظين ونهبت الدير المحلي (١٢ مايو) وظلت عاماً تهدد الأمن ، ولا يستطيع أحد قمعها . ويقول أحد المؤرخين في هذا العهد ممن كانوا لا يتعاطفون مع الثوار إنه في جميع أودية نهري اين واثش كانت هناك — جماهير غفيرة وصراخ وهرج شديدان وكان من الصعب على أى إنسان صالح أن يسير في الطرقات وقال إن السلب والنهب أصبحا شائعين إلى الحد الذي كان فيه الأتقياء يشعرون بالإغراء للاشتراك فيهما» (٣١) . وفي فرايبورج — أم — برايسجاو نهب الفلاحون القلاع والأديرة وأكروها المدينة على الانضمام إلى «الأخوة الإنجليزية» ، (٢٤ مايو) وفي الشهر نفسه أقصت عصابة من الفلاحين أسقف فيرتسبورج عن قصره وأقاموا وليمة بما عثروا عليه في مخازنه . وفي شهر يونيو أقصى ماتياس لانج كبير الأساقفة المعروف بحبه للقتال من قصره إلى قلعته التي تشرف على المدينة ، وفي نيوشتادت في اليلاتيفيت دعا الأمير المختار لودفيج زعماء الفلاحين للعشاء بعد أن أحاط به ٨٠٠٠ منهم واستجاب لمطالبهم دون امتعاض (٣٢) .

وفي هذا قال أحد المعاصرين : « ها نحن أولاء نرى أهالى القرى وسيدهم

يجلسون جنباً إلى جنب ويأكلون ويشربون معاً ويبدو أنه يكن لهم مشاعر الود وأنهم يبادلونه هذا الشعور .

وفي وسط هذا السيل من الأحداث أصدر لوثر من مطبعة فيتنبرج نحو منتصف مايو عام ١٥٢٥ كتيباً عنوانه : « معارضة لجموع الفلاحين التي تقوم بالسلب والقتل » . وأفزعت لهجته الحادة الأمير والفلاح والأسقف وعالم الإنسانيات على السواء فقد راع لوثر تزايد العصاة الساخطين وخشى وقوع انقلاب ضد كل سلطة شرعية وحكومة في ألمانيا وآلمته الاتهامات التي تقول إن تعاليمه الخاصة قد أطلقت الفيضان من عقاله فتحول وقتذاك دون تحفظ إلى جانب السادة المعرضين للخطر وقال : « لم أجسر في كتاب سابق على الحكم على الفلاحين لأنهم عرضوا أن يسلكوا الطريق المستقيم وأن يتعلموا . . . ولكن قبل أن أتطلع حولي تناسوا ما عرضه وعمدوا إلى العنف وقاموا بالسلب والنهب وأسلموا قيادهم إلى الهياج وتصرفوا كالكلاب المسعورة . . . إن ما يقومون به من عمل الشيطان بل إنه بصفة خاصة من عمل إبليس (منتسر) الذي يحكم في ميلهاوزن . . . يجب أن أبدأ بوضع خطاياهم أمام أعينهم . . . ثم يجب أن أعلم الحكام كيف يسوسون أنفسهم في هذه الظروف . . . »

إن أي إنسان يمكن إثبات شغبه يعد خارجاً على سنة الله وقانون الإمبراطورية ومن ثم فإن أول من يقتله يفعل خيراً ولا يرتكب إثماً . . . ذلك لأن الثورة تأتي معها بأرض مليئة بالقتل وسفك الدماء وترمل النساء وتيمم الأطفال وتقلب كل شيء رأساً على عقب . . . ولهذا دعوا أي إنسان يستطيع أن يقتل ويذبح ويطعن ، سرّاً وعلناً ، وضعوا نصب أعينكم أنه لا شيء أكثر فتكاً أو ضرراً أو خبثاً من الثورة . . . إن هذا لا يختلف عن حالة المرء الذي يجد نفسه مضطراً إلى قتل كلب مسعور وإذا لم تضره فإنه سوف يقضى عليك ومعك بلده بأسره . . . »

ورفض التسليم بإجازة الكتاب المقدس المزعومة للشيوع وقال : « إن

الإنجيل لا يجعل الأمتعة على الشيوخ إلا بالنسبة لمن يفعلون ، بإرادتهم الحرة ، ما كان الرسل والحواريون يفعلونه في الإصحاح الرابع . لأنهم لم يطلبوا مثل فلاحينا المجانين في سورة غضبهم عند ما يطالبون بأن تكون أمتعة الآخرين سواء كانت لبيلاطس أم لهيرودس - مشاعا لهم وأنهم لم يطلبوا تطبيق هذا إلا على أمتعتهم . ومهما يكن من أمر فإن فلاحينا سوف يحصلون على أمتعة الآخرين باعتبارها مشاعاً لهم ويحتفظون بأمتعتهم لأنفسهم ، فأروع هؤلاء من مسيحين ! أعتقد أنه لم يبق شيطان في الجحيم وأن الشياطين جميعاً قد انطلقت إلى الفلاحين .

أما الحكام الكنائسية فإنه عرض عليهم غفرانه إذا قضوا على العصاة دون محاكمة . وأوصى الحكام البروتستانت بالصلاة والندم والمفاوضة ولكن إذا ظل الفلاحون على عنادهم : « عندئذ سارعوا بامتشاق الحسام لأن أى أمير أو سيد يجب أن يتذكر في هذه الحالة أنه كاهن لله وأنه أداة نقمته تعالى (الرومان ١٣) اللتي يمتشق من أجله الحسام لضرب رقاب هؤلاء الأتباع... »
ولذا كان في وسعه أن يعاقب ولا يفعل - حتى لو كان العقاب أن يستل الحياة ويسفك الدماء - فإنه يبوء بلائم كل جرائم القتل والشروع التي يرتكبها هؤلاء الأتباع . . . وعندئذ على الأتباع أن يستمروا بلا اكتراث ودون أن يعذبهم الضمير في النضال كالأبطال ما دامت قلوبهم تحقق بين ضلوعهم . . . وإذا خطر لأحد أن هذا صعب جداً فليتذكر أن الثورة لا تحتل وأن دمار العالم أمر متوقع في كل ساعة» (٣٣) .

وكان من سوء حظ لوثر أن تصل هذه الرسالة الغاضبة إلى قرائها في الوقت الذي بدأت فيه الطبقات المملوكة في إخضاع الثورة . وتلقى المصلح ثناء لا يستحقه على الإرهاب بالقمع ومن غير المحتمل أن يكون السادة المعرضون للخطر قد تأثروا بالكتيب إذ كانوا بطبعهم يميلون إلى معاملة العصاة بقسوة تكون رادعاً لهم ولا تمحى ذكراها من أذهانهم وقد أخذوا

بعض الرقت يعملون الفلاحين البسطاء بالوعود والأمانى وبهذا أغروا الكثير من الحصابات بالتهرق وفي غضون ذلك نظم السادة جيوشهم وسلحوها .

وفي ذروة الفتنه مات فردريك الأمير المختار (٥ مايو عام ١٥٢٥) وكان رجلاً هادئاً يؤثر السلام ويسلم بأنه هو وباقي الأمراء قد ظلموا الفلاحين ورفض أن ينضم إليهم في اتخاذ اجراءات الانتقام وترك لخلفه اللوق جون نصائح ملحة بالتزام الاعتدال ، بيد أن الأمير المختار الجديده شعر بأن سياسة أخيه كانت تعتمد على الدين وهو أمر يجافي الحكمة فانضم بقواته إلى قوات هنرى دوق برونزفيك وفيليب لاندجريف الهسي وزحفوا جميعاً لمهاجمة معسكر منتسر خارج ميلهاوزن . وكانت جيوش الخصوم لا تفوقهم إلا عدداً . - كان كل منها يتكون من ٨٠٠٠ رجل من الأشداء ، بيد أن معظم الرجال في قوات اللوقات كانوا من الجنود المدربين ، بينما كان الفلاحون ، على الرغم من مدفعية منتسر البسيطة ، يتسلحون بأسلحة ليست جيدة أو رديئة ويفتقرون إلى النظام ويتفشى بينهم الاضطراب بسبب ما يساورهم من رهبة بالسليقة . واعتمد منتسر على فصاحته ليقوى من عزائم الفلاحين وأهمهم في الصلاة وفي ترتيب الأناشيد وأطلقت مدفعية الأمير أول ستار من نيرانها فصرعت مئات من النوار وفر الباقون مذعورين إلى مدينة فرانكنهاوزن (١٥ مايو سنة ١٥٢٥) وطاردهم المنتصرون وقتلوا منهم ٥٠٠٠ وحكم على ثلاثمائة أسير منهم بالإعدام فتشفع لهم نساؤهم واتمسوا العفو عنهم رحمة بهن ، فأجبن إلى طلبهن على شريطة أن تحطم النساء رأسى قسيسين كانا قد حرضا على الثورة وتم تنفيذ هذا بينما كان اللوقات المنتصرون يرقبون هذا المشهد (٣٤) . واختفى منتسر ثم قبض عليه وعذب حتى أقر بخطأ وسائله ثم قطع رأسه أمام القادة والأمراء ودافع بغيره ومعه ١٢٠٠ جندي عن مدينة ميلهاوزن ولكنهم غلبوا على أمرهم ، وأعدم بغيره وباقي القواد أما المواطنون فقد نالوا العفو على أن يدفعوا فدية إجمالية قدرها ٤٠,٠٠٠ جيلدر (١,٠٠٠,٠٠٠ دولار ؟) .

وفي غضون ذلك استولى تروخسيس على مدينة بيبليجن (Böblingen) بطريق المفاوضات وحول مدافعه من داخل أسوار المدينة وأطلقها على معسكر للشوار خاربجها (١٢ مايو) . وأجهز فرسانه على الفلاحين الذين نجوا من نيران هذه المدفعية وقضى هنا على الثورة في فيرتمبرج . ثم تحول تروخسيس إلى فاينزبرج وأحرقها حتى سويت بالأرض وشوى في بطة جسد جيكلين رورباخ الذي تزتم « منبجة فاينزبرج » . ثم زحف تروخسيس ليهزم قوات الفلاحين في كينجهوفن وأنجولشتادت هزيمة منكرة ، واستولى على فيرتمبرج وأطاح برعوس واحسد وثمانين من الثوار اختارهم ليكونوا عبءة للآخرين (٥ يونية) . وفر فاوريان جيير من فيرتمبرج ليعيش في غياهب النسيان وظل أسطورة يرددتها الناس في إعزاز واستسلم جيتزفون برليخنجن في الرقت الملائم وعاش ليحارب مع شارل الخامس ضله الأتراك ومات على فراشه وفي قلعه بالغاً من العمر اثنين وثمانين عاماً (١٥٢٦) وسقطت مدينة روثنبرج في ٢٠ يونيه وسرعان ما تلتها مدينة ممينجن وسقطت الثورة في الألزاس بعد مصرع ٢٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ رجل في ليبشتلين وتسابيرن (Zabern) (١٧ - ١٨ مايو) وما أن حل يوم ٢٧ مايو حتى كان قد قتل نحو ٢٠.٠٠٠ فلاح في الألزاس وحدها وفي كثير من الحالات كان هواء المدن تشيع فيه رائحة الموت (٣٥) وأمر ماركجراف كاسيمير **Markograf Casimir** بقطع رؤوس بعض من استسلم من فلاحيه وشنق البعض الآخر . وفي الحالات المخنفة قطع أيديهم أو سحل عيونهم (٣٦) ، وتدخل الأمراء العقلاء في آخر الأمر في تخفيف همجية الانتقام ، وفي نهاية شهر أغسطس أصدر المجلس النيابي في أوجسبورج أمراً كتابياً حث فيه على الاعتدال في توقيع العقوبات وفرض الغرامات وتساعل شريف فيلسوف قائلا : « أين نجد فلاحين يقومون بالوفاء لأغراضنا إذا قتل كل الثوار ؟ (٣٧) .

واستمرت الثورة عاماً في النمسا وفي يناير عام ١٥٢٦ أعلن ميكائيل جاسماير في أنحاء التيرول أعظم البرامج الثورية تطرفاً وقال : « يجب القضاء

على كل الكفار (أى غير البرتستانت) الذين يضطهدون « كلمة الله » الحقّة أو يظلمون الرجل العادى . ويجب أن تزال الصور والمزارات من الكنائس وألا تتلى القداسات ويجب أن تهدم أسوار المدن والأبراج والحصون وألا تبقى إلا القرى وأن يتمتع جميع الناس بالمساواة . ويجب اختيار الموظفين والقضاة بالاقتراع العام الذى يشترك فيه الذكور البالغون كما يجب إيقاف دفع الإيجارات والمكوس للسادة الإقطاعيين فوراً وأن تجمع ضرائب العشور على أن تعطى لسلطات الكنيسة التى خضعت للإصلاح الدينى والفقراء . ويجب أن تحول الأديرة إلى مستشفيات أو مدارس ، أما المناجم فيجب أن تؤم وعلى الحكومة أن تحدّد الأسعار (٣٨) . وقدر بلخاسماير أن يهزم التى أرسلت لقتاله باستراتيجية ذكية ، واستمر هذا الحال بعض الوقت غير الفرق أن أعداءه تفوقوا عليه أخيراً فى الدهاء وفر إلى إيطاليا وأفرد الأرشيدوق فرديناند ثمناً لرأسه وفاز بالمبلغ اثنان من القتلة الإسبانيين عند ما اغتالاه فى غرفته ببادوا (١٥٢٨) .

ولم تفقد ألمانيا من الأرواح والأملاك ما فقدته فى ثورة الفلاحين إلا فى حرب الثلاثين عاماً . فقد هلك من الفلاحين وحدهم نحو ١٣٠٠٠٠ فى ساحة القتال أو على نطح التكفير ، وتم تنفيذ حكم الإعدام فى ١٠٠٠٠ رجل تحت حكم العصبة السوابية . وامتألت أعطاف جناد تروخسيس زهوا لأنه قتل بيديه المدربتين ١٢٠٠ رجل محكوم عليه بالإعدام . أما الفلاحون أنفسهم فقد دمروا مئآت القلاع والأديرة وأقفرت مئآت القرى والمدن من ساكنيها أو أصبحت خراباً بلقماً أو فرضت عليها تعويضات باهظة ، وتشرد ما يزيد على ٥٠٠٠٠٠ فلاح وأخذوا يهيمون فى الطرقات العامة أو يختبئون فى الغابات ، وترملت آلاف النساء وتيمّ الآلاف من الأطلال واكن قلوب المحسنين لم ترق لهم ، أو لعل جيوبهم كانت نخاوية وكان المتمردون قد أحرقوا فى كثير من الحالات الموثيق التى تسجل الضرائب المستحقة عليهم

لسادة الإقطاعيين فحررت وثائق جديدة أحييت من جديد هذه الالتزامات وكانت في بعض الحالات أكثر رفقاً بهم وفي أحيان أخرى أكثر تشدداً عما كانت عليه من قبل ومنحت امتيازات للفلاحين في النمسا وبادن وهس أما في المناطق الأخرى فقد اشتد أزر العبودية وقدر لها أن تستمر شرق الألب حتى القرن التاسع عشر . وأجهضت بوادر الديمقراطية وقمعت الحركات الفكرية واشتدت الرقابة على النشر في عهد السلطات الكاثوليكية والبروتستانتية على السواء . وفقدت النزعة الإنسانية قوتها وأخلت لهجة عصر النهضة في الحياة والأدب والحب السبيل إلى اللاهوت والورع والتأمل في الموت .

واندثر الإصلاح الديني نفسه أو كاد يندثر في حرب الفلاحين . وعلى الرغم من المنتصلين من لوثر والتشهير به فإن الثورة تألفت بألوان وأفكار بروتستانتية : وكانت التطلعات الاقتصادية تغلف بعبارات أضنى عليها لوثر مسحة من القداسة ولم تكن الشيوعية إلا مجرد عودة إلى الإنجيل . وفسر شارل الخامس « الثورة » بأنها « حركة لوثرية »^(٣٩) واعتبر المحافظون نزع البروتستانت ملكية رجال الدين بمثابة أعمال ثورية تقف على قدم المساواة مع نهب الفلاحين للأديرة . وفي الجنوب جدد الأمراء والسادة الذين استبد بهم الفرع ولاءهم للكنيسة الرومانية . وفي أماكن عديدة مثل بامبرج وفيرتسبورج أعدم رجال حتى من طبقة الملاك لأنهم اعتنقوا اللوثرية^(٤٠) . وقلب الفلاحون أنفسهم ظهر المحن للإصلاح الديني وعدوه غواية وخيانة ، وأطلق بعضهم على لوثر اسم « الدكتور ليجثر » أى « الدكتور الكذاب » و« المناق صنيعة الأمراء »^(٤١) . وظل سنوات بعد الثورة لا يحظى بأى شعبية حتى أنه قلما كان يجرؤ على مغادرة فيتنبرج ولو كان هذا لكي يحضر وفاة والده على فراشه (١٥٣٠) . وكتب يقول (١٥ يونيه عام ١٥٢٥) « لقد نسوا كل ما فعله الله للناس عن طريقي والآن هاهم السادة والقساوسة والفلاحون يتجمعون كلهم ضدى ويتعدونى بالموت »^(٤٢) .

ولم يكن من شيمته أن يسلم أو يعتذر . وفي يوم ٣٠ مايو عام ١٥٢٥ كتب إلى نيكولاس، أمسد ورف يقول : « في رأي أنه من الخير أن يقتل الفلاحون جميعاً ولا يهلك الأمراء والحكام لأن أهل الريف امتشقوا السيف دون أن يعتصموا بسلطان إلهي» (٤٣) . وفي يولية عام ١٥٢٥ نشر « خطاباً مفتوحاً بشأن الكتاب الصعب ضد الفلاحين » . وقال إن من ينتقدونه لا يستحقون الرد عليهم فقد كشفت انتقاداتهم أنهم ثأرون في قرارة نفوسهم مثل الفلاحين وأنهم لا يستحقون الرحمة ، وقال : « ينبغي أن يأخذ الحكام بتلايبب هؤلاء الناس ويجبرونهم على إمساك أسننتهم » (٤٤) .

« إذا دار بخلدكم أن هذا الرد صعب جداً وأن هذا تحريف للكلام ولا يقصد به إلا تكلم أفواه الناس فلاي أجيب بأن هذا صحيح ، إن أي ثأر لا يستحق عناء الرد عليه لأنه لن يتقبل الجدل . والرد على مثل هذا الفم هو لكمة تدمى الأنف ، إن الفلاحين لن يصيخوا السمع . ففي آذانهم وقر ويجب أن تفتح بطلقات الرصاص حتى تقفز رؤوسهم من فوق أكتافهم . إن مثل هؤلاء التلاميذ في حاجة إلى تأديب يمثل هذه العصا . إن من لا يستمع إلى كلمة الله عند ما ترتل برفق يجب أن يستمع إلى الجلالاد عند ما يأتي ومعه الفأس . . . أما عن الرحمة فأنا إن أسمع أو أعرف شيئاً واكنى سوف أهتم بإرادة الله التي تتضمنها كلمته . . . إذا شاء جل وعلا أن يصب عليك جام نقمته وأن يحجب عنك رحمته ، فيم تفيدك الرحمة ؟ ألم يأتكم شاول بإهداء الرحمة لعماليق عند ما فشل في تنفيذ غضب الله كما أمر ؟ وأنتم يا من ترفعون عقيرتكم مطالبين بالرحمة وتمتدحونها مدحاً شديداً لماذا لم تنادوا بها عند ما كان الفلاحون سائحطين ، يمتنون ويسرقون ويحرقون وينهبون حتى أصبح الناس يقرعون لمرآهم أو عند سماع أخبارهم ؟ لماذا لم يبدوا الرحمة للأمراء والسادة الذين أرادوا أن يقصوا عليهم قضاء دبرماً ؟ »

واستطرد لوثر يقول إن الرحمة واجبة على المسيحيين في شؤونهم الخاصة ،

أما باعتبارهم من موظفي الدولة فيجب أن يراعوا العدالة أكثر من الرحمة لأن الإنسان ، منذ عصى آدم وحواء ربهما ، فطر على الشر إلى حد أنه غدا في حاجة إلى حكومة وقوانين وعقوبات لكبح جماحه . إننا ندين بالاحترام للجماعة التي تهلدها الجريمة أكثر مما ندين للمجرمين الذين يهادون الجماعة .

« لو تحققت نيات الفلاحين فلن يكون هناك رجل شريف في مأمن منهم ولكن على كل من يملك فلساً أكثر من أى إنسان آخر أن يقاسى بسبب هذا . لقد بدأوا هذا الأمر وما كانوا ليتوقفوا هناك ، لسوف يجال العار النساء والأطفال ولسوف يتعودون أيضاً على قتل أحدهم الآخر ، ولن يكون هناك سلام أو أمان فى أى مكان . هل سمع أحد عن شيء لا يمكن كبح جماحه أكثر من غوغاء من الفلاحين عند ما تمتلئ بطونهم ويملكون زمام السلطة ؟ . . . إن الحمار يتلقى الضربات أما الناس فيحكون بالقوة» (٤٥) .

وقد تصدنا اليوم عبارات لوثر المتطرفة حول حرب الفلاحين لأن النظام الاجتماعى توطد بحيث نفترض استمراره ونستطيع أن نعامل برفق هؤلاء القلائل الذين يعكرون صفوه بعنف ، ولكن لوثر واجه الحقيقة القاسية وهى أن عصابات الفلاحين تحول شكواها العادة إلى نهب لا يفرق بين العدو والصديق وتهدد بحرق القانون وقلب الحكومة والإنتاج والتوزيع فى ألمانيا . وبرت الحوادث تحذيره بأن الثورة الديدية التى خاطر من أجلها بحياته سوف تتعرض للخطر الشديد بسبب الرجعية المحافظة التى كانت مضطرة إلى أن تتبع ثورة فاشلة . وربما شعر بأنه مدین شخصياً بعض الشيء للأمرء والأشراف الذين كانوا قد أسبغوا عليه الحماية فى كيتنبرج ورومس والفارتبورج ، ولعله كان يتساءل من ينقذه من شارل الخامس وكليمنت السابع إذا كفت سلطة الأمرء عن حماية الإصلاح الدينى ، والحرية الوحيدة التى رأى أنها تستحق الكفاح من أجلها هى حرية عبادة الله والخماس الخلاص طبقاً لما يمليه ضمير المرء .

وأية أهمية في أن يكون المرء أميراً أو عبداً في هذا الموجز للحياة الأبدية ؟
إننا يجب أن نتقبل حالتنا هنا دون تدمير مرتبطين بالجسد والواجب ولكن
متحررين روحياً وبرحمة الله .

ومع ذلك فقد كان للفلاحين قضية ضده إذ أنه لم يتنبأ بالثورة الاجتماعية
فحسب بل قال إنها لن تسوءه وإنه سوف يجيها بإتسامة حتى لو غسل الناس
أيديهم في دماء الأساقفة ، ثم إنه كان قد قام بثورة أيضاً وعرض النظام
الاجتماعي للخطر بل وسخر من سلطة لا تقل قداسة عن سلطة الدولة . ولم يقم
بأى اعتراض على نزع السلطة الزمنية للملكية رجال الدين فكيف كان في
وسع الفلاحين أن يكون لهم حظ أفضل إذا لم يلجأوا إلى القوة ما دام حتى
التصويت كان محرماً عليهم وما دام مضطهدوهم كانوا يلجأون إلى القوة .
لقد أحس الفلاحون أن الدين الجديد قد أضفى صفة القداسة على قضيتهم ،
وأثار فيهم الأمل ودفعتهم إلى العمل ثم تخلى عنهم في الساعة الحاسمة . وفي
يأس غاضب أصبح بعضهم ملحداً ساخرآ(٤٦) وعاد كثير منهم أو من أطفالهم
برعاية اليسوعيين إلى حظيرة الكنيسة الكاثوليكية . واتبع بعضهم المتطرفين
الذين أدانهم لوثر وسمعوا وهم يتلون العهد الجديد دعوة إلى الشيوعية .

٣ - اللامعبدانيون يجربون الشيوعية

(١٥٣٤ - ١٥٣٦)

لا نستطيع أن ندرك مدى الحماسة التي صاحبت الأقليات المتدينة
الناثرة ، في تمزجها لانقلاب واحد أو آخر من انقلابات الثورة الدينية في
القرن السادس عشر ، ولو أدى بها إلى الموت على الخازوق ، إلا إذا لاحظنا
مدى الحماسة المتأججة التي يعتنق به معاصرونا المرطقات الاقتصادية .

وقد اتخذت أشد الطوائف الجديدة تطرفاً اسم اللامعبدانيين (المعماين
من جديد) ، وذلك من إصرارها على أن التعميد ، إذا تلقاه المرء في

طفولته ، يجب أن تعاد مراسيمه عند البلوغ ، بل إن من الخير أن يوثج ، كما فعل يوحنا المعمدان ، إلى أن يتمكن المتلقي الراشد من اعتناق العقيدة المسيحية بعلمه واختياره .

وكانت هناك طوائف انشعبت إليها هذه الطائفة . أما الذين اتبعوا هانز دنك ولودفيج هيتزر فقد أنكروا ألوهية المسيح : فهو في نظرهم ليس إلا أشد الناس ورعاً وقد كفر عن خطايانا لا بعذابه فوق الصليب ، ولكن لأنه كان قدوة لنا في حياته^(٤٧) ورفع دنك من قدر ضمير الفرد ، وجعله فوق الكنيسة والدولة ، بل والكتاب المقدس ذاته . واتبع معظم اللامعبدانيين منهجاً تطهرياً ، يتسم بتزمت في الأخلاق ، وبساطة في السلوك والزي . ولقد شجعهم رأى لوثر المتهور القائل بحرية المسيحيين ، فأدانوا كل حكم يقوم على العنف ، واستذكروا كل مقاومة للحكومة بالعنف ، ورفضوا قبول الخدمة العسكرية ، على أساس أن المرء يرتكب إثماً لا شك فيه ، إذا قضى على حياة إنسان . وأبوا أن يحلفوا اليمين مثل المسيحيين الأوائل ، ولم يستثنوا من هذا القسم يمين الولاء للأمير أو الإمبراطور . وكانت تحييمهم العادية « سلام الله عليك » وهي ترديد للتحية عند اليهود والمسلمين ، وتعد التحية الرائدة للصيغة التي اتخذتها طائفة الكويكر . وفي الوقت الذي اتفق فيه لوثر وزونجلي وكالفن ونوكس مع البابوات على عبث التسامح الديني ، أخذ اللامعبدانيون يبشرون به بل ويمارسونه ، وكتب أحدهم وهو بالتازار هيباير أول دفاع عنه عام ١٥٢٤^(٤٨) . وأعرضوا عن الالتجاء إلى رجال الإدارة ورفع دعاوى . . . كانوا فوضويين تولستويين قبل ظهور تولستوى بثلاثة قرون ، وبعد ظهور بيتر شيلتسكى بقرن كامل ، ولعلمهم قبسوا منه عقيدتهم . وورث بعض اللامعبدانيين ، عن وعى أو غير وعى ، عقيدة التابورين البوهيميين أو الإخوان المورافيين ، ونادوا بشيوعية الأمتعة^(٤٩) . وإذا صدقنا ما قاله المؤرخون من الخصوصم فإن قلة منهم اقترحت شيوعية

الزوجات (٥٠) . ومهما يكن من أمر فإن الطائفة رفضت بصفة عامة أية مشاركة إجبارية في الأمتعة ، ودافعت عن مبدأ العون الاختياري المتبادل ، وسمكت بأن الشيوعية سوف تكون آلية وشاملة في ملكوت السماء (٥١) .

ولقد استلهمت كل جماعات اللامعمدانيين سفر الروثا ، وتوقع عودة المسيح المبكرة بصفة يقينية إلى الأرض . وأكلم كثير من المؤمنين أنهم يعرفون موعد مجيئه ، وحددوا الساعة واليوم . ومن هنا كان لا بد من القضاء على كل الكفار . وهم هنا كل الناس ما عدا اللامعمدانيين - بخلاف سيف الرب ، ولا بد أن يعيش الصفوة يخفهم الخلد في فردوس أرضي بلا قوانين ولا زواج ، وينعمون بفيض زانخ من أطايب كل شيء (٥٢) . وعلى هذا فإن الناس الذين يحبوهم هذا الأمل ساحوا أنفسهم ضد الكلدح ووحدانية الزوجية .

وظهر اللامعمدانيون لأول مرة في سويسرا . ولعل مسيحية تامسو إلى السلام قد تسربت من ثورة الولدان في جنوب فرنسا والبيغاردي الأراضي المنخفضة ، وتبنى قليل من المثقفين هنا وهناك كما في بازل فكرة إقامة مجتمع شيوعي . ولعل بعض الفقرات الشيوعية في « المدينة القاضاة » ، كما صورها مور ، قد حفزت العلماء الذين تجمعوا حول أرازموس هناك ، وأصبح ثلاثة من أعضاء تلك الحلقة زعماء لامعمدانيين وهم : كونراد جريل وفيياكس مانز الزيورينجي وبالتازار هيباير الوالد شوتفي في حدود النمسا المواجهة . وفي ١٥٢٤ زار مينزر والد شوت وجاء كارتشتادت إلى زيورخ ، وتكونت طائفة من اللامعمدانيين في زيورخ باسم « الروحانيين » أو « الإخوان » ، وأخذت تبشر بالتعميد عند البلوغ وعجىء المسيح ، ورفضت الاعتراف بالكنيسة والدولة ، واقترحت وضع نهاية لتقاضى الفائدة والضرائب وإلغاء الخدمة العسكرية وضرائب العشور وتخريم حلف البين .

ولقد كان أولريخ زونجلى فى ذلك الوقت يكسب إلى صفة مجلس زيورخ الكبير ، ويستميله لآرائه البروتستانتية ، التى تضمنت إشراف السلطات الزمنية على الدين ، وناشد « الإخوان » أن يخففوا من كراهيتهم للدولة وأن يقبلوا التعميد فى الطفولة ، ولكنهم أبوا . واستدعاهم المجلس إلى مناظرة عامة (١٧ يناير سنة ١٥٢٥) ، وعند ما فشل فى تحويلهم عن آرائهم ، أمر بأن يغادر المدينة آباء الأطفال الذين لم يعملوا . وندد اللامعمدانيون بالمجلس ، وأطلقوا على زونجلى لقب التنين العجوز ، وتظاهروا فى الطرقات وهم يصيحون « الويل لزيورخ ! » (٥٣) . واعتقل زعمائهم ونفوا عن المدينة ، وأتاح لهم هذا نشر عقائدهم ، وتولى سانت - جول وابتسيل الحركة ، وأثارت هذه برن وبازيل وكسب هيبار إلى صفة واللدشوت بأسرها ، وجلس فى ابتسيل ١٢٠٠ رجل وامرأة ممن ارتضوا حرفياً كلمات المسيح : « لا تحمل هما لضعفك » وأخذوا ينتظرون أن يأتى الله ويطعمهم (٥٤) .

وليس من شك فى أن النجاح الظاهر الذى أحرزته حرب الفلاحين فى ربيع عام ١٥٢٥ قد رفع من شأن هذه التحولات ، ولكن فشلها شجع طبقات الملاك فى المدن السويسرية على اتخاذ إجراءات قمع مشددة ، واعتقل مجلس زيورخ مانز (يوليو) ، ثم جريبيل ، ثم هيبار ، وأمر بزعج كل اللامعمدانيين المتشبهين بأرائهم فى سجن البرج ، ليعيشوا على الخبز القفار والماء وأن « يتركوا حتى يموتوا وتبلى أجسادهم » (٥٥) . وحدث هذا لجريبيل وأغرق مانز ، أما هيبار فقد عدل عن رأيه وأطلق سراحه ، وأنكر رده وأخذ سبى عاتقه أن يهدى أهل أوجسبورج ومورافيا ، وقطع رأس هيتزر فى كونستانس بتهمة اللامعمدانوية والزنى - وأظهرت المقاطعات التى تدين بالبروتستانتية والكاثوليكية أنها لم تكن أقل نشاطاً فى قمع هذه الطائفة ، وما أن حل عام ١٥٣٠ حتى لم يبق فى سويسرة إلا عصابات سرية لا يؤبه لها ،

وفي غضون ذلك كانت الحركة قد انتشرت ، كما تنتشر أى إشاعة ، في أنحاء جنوب ألمانيا ، وتملكت المرتدين حماسة فياضة للقيام بدعاية للمذهب الإنجيلي ، وحوهم ذلك إلى رسل متحمسين للعقيدة الجديدة . وأحرز ذلك وهيباير في أوجسبورج نجاحاً سريعاً بين عمال النسيج والطبقة الوسطى الدنيا ، وما أن قارن كثير من عمال المناجم في التيرول ما هم فيه من مسغبة ، وما ينعم به من ثراء آل فوجر وآل هوخشتتر ، الذين كانوا يملكون المناجم ، حتى اعتنقوا اللامعمدانية عند ما انهارت ثورة الفلاحين ، أما في ستراسبورج فإن الصراع بين الكاثوليك والبروتستانت أتاح للطائفة أن تتضاعف دون أن يلحظ ذلك أحد لبعض الوقت . إلا أن كتيداً صدر عام ١٥٢٨ حذر السلطات من أن « من يعلم الناس أن كل الأشياء يجب أن تكون على المشاع لا يخطر بباله إلا إثارة الفقراء ضد الأغنياء ، والرعايا ضد الحكام الذين عينهم الله »^(٥٦) . وفي هذا العام أصدر شارل الخامس مرسوماً ينص على أن إعادة التعميد تعد جريمة عظيمة . وصدق مجلس سبierer Speyer النيابي (١٥٢٩) على مرسوم الإمبراطور وأمر بإعدام اللامعمدانيين أيها وجدوا وحالما يقبض عليهم كما يقضى على الوحوش المفترسة ، وذلك دون أية محاكمة . وكتب مؤرخ لامعمداني تحقيقاً عن النتيجة ، ولعله كان مغالياً ، بأسلوب كتاب سير القديسين المسيحيين الأوائل :

عذب البعض على الخلعة ، وشدت أطرافهم حتى انتزعت ، وأحرق البعض الآخر حتى غدت أجسادهم رماداً وهباء منشوراً ، وشوى لحم البعض فوق أعمدة أو مزقوا إرباً بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار . . . وشنق آخرون فوق الأشجار ، أو قطعت رؤوسهم بالسيف أو ألقى بهم في بركة الماء . . . ومات بعضهم جوعاً أو هلكوا في غياهب السجون المظلمة . . . واعتبر البعض منهم أصغر سناً من أن ينفذ فيهم حكم الإعدام فضربوا بالعصى ، وظل الكثيرون منهم سنوات في غياهب السجون . . . وختمت على خدودهم أرقام تركت فيها أخاديد . . . أما الباقون فقد طوردوا

كاليوم والغربان ، التي لا تجرؤ على الطيران بالنهار واضطروا في أغلب الأوقات إلى الاختفاء والعيش بين الصخور والشقوق أو في الغابات أو في الكهوف والحفر (٥٧) . . .

ويقول سباستيان فرانك أحد المعاصرين أنه ما أن حل عام ١٥٣٠ حتى كان ٢٠٠٠ لامعمداني قد نفذ فيهم حكم الإعدام ، وفي انزيشايم ، إحدى مدن الأنزاس أعدم ٦٠٠ ، وفي سالزبورج سمح لمن تاب منهم بأن يقطع رأسه قبل وضعه على المحرقة ، أما الذين لم يتوبوا فقد سادهم على نار بطيئة حتى لا قوا حتفهم (١٥٢٨) (٥٨) . وألف اللامعمدانيون أناشيد مؤثرة للإشادة بذكر هذه الحوادث ، التي استشهد فيها الآلاف وأصبح معظم مؤلفي هذه الأناشيد شهداء بدورهم .

وعلى الرغم من هذه المذابح فإن الطائفة ازدادت عدداً ، وانتقلت إلى شمالي ألمانيا . ورحب بعض الأشراف في بروسيا وفيرتمبورج باللامعمدانيين باعتبارهم فلاحين مسالمين مجتهدين . ويقول أحد المؤرخين الأوائل من أنصار لوثر إن وادي الفيرا في ساكسونيا كان يزخر بهم ، وأنهم زعموا في أرفورت أنهم أوفدوا ٣٠٠ مبعوث لطداية الناس المشرفين على الهلاك . وفي ليبك سيطر جيرجن فولنفيغر المتهم باللامعمدانية على المدينة (١٥٣٣ - ٣٤) ، وفي موزافيا أحرز هيباير تقدماً لعقيدته المعتدلة التي فسرت الشيوعية بأنها ليست الملكية على المشاع ، بل الاستمساك بأن «على المرء أن يطعم الجائع ويروي ظمأ العطشان ويكسو العارى لأننا في الحقيقة لسنا مطلقى التصرف في ممتلكاتنا واكننا وكلاء أو موزعون لها فحسب» . وكسب هانزهوت (٥٩) ، الذي ألهبته تعاليم منتسر ، قلوب اللامعمدانيين في مورافيا من هيباير بتبشيرهم بشيوعية كاملة في الأمة . واعداد هيباير إلى فيينا ، حيث أحرق على السارية والتي يزوجته وهي مقيدة الأطراف في نهر الدانوب (١٥٣٨) .

وأسس هوت وأتباعه مركزاً شيعياً في أوسترايتز ، حيث رفضوا

قبول كل خدمة عسكرية ، وكأنهم كانوا يتنبأون بمجيء نابليون ، ونددوا بكل صورة من صور الحرب ، واقتصر هؤلاء اللامعمدانيون في أعمالهم على فلاحة الأرض والأعمال الصغيرة ، وحافظوا على شيوعيتهم زهاء قرن تقريباً . وأسبغ الأشراف من ملاك الأراضي حمايتهم عليهم ، لأنهم كانوا يثرون الضياع بكدهم الواعي . وكانوا يقومون بالمشاركة في الزراعة ، ويشترى لهم موظفو الكومون المواد اللازمة للزراعة وللحرف اليدوية ، ويوزعونها عليهم ويدفع جانب من ثمن بيع المنتجات كإيجار للمالك ويوزع الباقي طبقاً حاجة كل فرد ولم تكن الأسرة هي الوحدة الاجتماعية بل البيت ، وكان يحتوى على عدد يتراوح بين ٤٠٠ ، ٢٠٠٠ شخص وفيه مطبخ مشترك ومغسل ومدرسة ومستشفى ومعصرة للخمر يشترك فيها الجميع . وكان الأطفال بعد فطامهم يربون بلا فوارق بينهم وإن ظل تحريم تعدد الزوجات كما هو . ومنع هذا المجتمع الشيعي بمرسوم إمبراطوى صدر عام ١٦٢٢ في حرب الثلاثين عاماً ، وخير أعضاؤه بين أن يعتنقوا الكاثوليكية أو ينفوا من البلاد . وذهب بعض المنفيين إلى روسيا ، وذهب البعض الآخر إلى الحجر ولسوف نسمع عنهم مرة أخرى .

وفي الأراضي المنخفضة بشر ملشيور هوفمان ، وهو دباغ من سوابيا ، بإنجيل لامعمداني لاقى نجاحاً فائقاً . وانتهى تلميذه جان ماتيس في ليدن إلى الرأي القائل بأنه لن يكون في الوسع الانتظار في أناة لمجيء أورشليم جديدة ، بل يجب المبادرة إلى تحقيقها فوراً وبالقوة إذا لزم الأمر . وأوفد في أرجاء هولنده اثني عشر رسولا لإعلان الأخبار السارة ، وكان أقدرهم حائكاً صغير السن يدعى جان يويكلزون المعروف في التاريخ باسم جون الليديني وفي أوبرا ميير بير باسم « النبي » . وكان . دون أن يتلقى تعليماً نظامياً ، حاد الذهن خصيب الخيال وسيم الهيئة ذرب اللسان قوى الإرادة . وكتب مسرحيات أخرجها بنفسه . ونظم الشعر ، وعند ما وقعت في يده

كتابات توماس منتسر شعر بأن كل أشكال المسيحية ، التي تختلف عما كان ميلها وزن قد حصلها وفقدتها ، تفتقر إلى الحمية والإخلاص . وسمع ما قاله جان ماتيس وغدا نصيراً للامعمدانية (١٥٣٣) . وكان وقتذاك في الرابعة والعشرين من عمره وفي تلك السنة قبل دعوة مشثومة للحضور إلى منستر عاصمة وستفاليا الغنية الآهله بالسكان لإلقاء عظاته .

وكانت منستر ، بحكم تسميتها باسم الدير الذي نمت حوله ، تابعة إقطاعياً لأسقفها ولرجال الكاتدرائية ، ومع ذلك فإن نمو الصناعة والتجارة قد استحدثت فيها درجة من الديمقراطية . فقد كانت حشود الوطنيين ، الذين يمثلون سبع عشرة طائفة حرفية ، يختارون كل عام عشرة من المنتخبين ، وكانوا بدورهم يختارون مجلس المدينة . ولكن الأقلية الثرية كان يتوفر فيها الجانب الأكبر من الكفاية السياسية ، ومن الطبيعي أن تسيطر على المجلس .

وفي عام ١٥٢٥ قدمت الطبقات الدنيا في غمرة حماسها لثورات الفلاحين ستة وثلاثين مطلباً إلى المجلس فسلم لها بالقليل منها وبخبر من الباقي وأرجأ النظر فيها ، وأقام برنارد روتمان ، وهو واعظ من أنصار لوثر ، من نفسه لسان حال هذا التذمر ، وطلب من جان ماتيس أن يوفد بعض اللامعمدانيين الهولنديين لنصرتة . فجااء جون الليدينى (١٣ يناير سنة ١٥٣٤) وسرعان ما أقبل جان ماتيس بنفسه . ونحشى « حزب النظام » حدوث تمرد فأعد العدة لكي يدخل الأسقف فرانزفون فالديك المدينة مع ٢٠٠٠ من جنوده ، فحاربهم الأهلون بقيادة ماتيس وروتمان وجون الليدينى فى الطرقات ، وأجلوهم عن المدينة ، وسيطروا عسكرياً على منستر (١٠ فبراير سنة ١٥٣٤) . وأجريت انتخابات جديدة وفاز اللامعمدانيون بالمجلس واختير اثنان منهم وهما كنيبر دولنجاك وكييبرويك عمدتين وبدأت التجربة المنزرة .

ووجدت منستر نفسها على الفور في حالة حرب ، يحاصرها الأسقف وجيشه المدعم ، وفي حالة فزع من أن تتحد سريعاً كل قوى النظام والتقاليد في ألمانيا ضدها . ولكي يحمي المجلس الحديد نفسه ضد المعارضة الداخلية أصدر مرسوماً يقضى بأن يخير جميع المعارضين اللامعمدانيين بين قبول إعادة التعميد أو مغادرة المدينة . وكان هذا إجراء قاسياً لأنه كان يعنى إكراه الشيوخ ، والنساء الحاملات للأطفال ، والأطفال الحفاة على الركوب أو السعى مشياً من المدينة في قلب الشتاء بألمانيا . وخلال هذا الحصار أعدم كلا الجانبين بلا رحمة أى شخص وجدوه يعمل لصالح العدو .

وألقى المجلس تحت وطأة الحرب وحل محله مجلس شعبي وبلخنة تنفيذية للأمن العام ، وكان يرأس كلاهما زعماء من رجال الدين . ولقي ماتيس حتفه وهو يقاتل في هجوم فاشل لفك الحصار (٥ أبريل سنة ١٥٣٤) ومن ثم تولى جون اليبديني حكم المدينة باعتباره ملكاً لها .

وكانت الشيوعية التي أرست دعائمها وقتذاك تعنى اقتصاد الحرب ، ولعل هذا ما يجب أن تكون عليه كل شيوعية صارمة ، ذلك لأن الناس ليسوا متساوين بفطرتهم ، ولا يمكن إغراؤهم بمشاطرة الآخرين أمتعتهم وثرواتهم إلا عند ما يستشعرون خطراً جوهرياً مشتركاً ، وتتفاوت الحرية في الداخل بتفاوت الأمن في الخارج وتتحطم الشيوعية تحت وطأة السلام . وخشى المحاصرون أن يفقدوا حياتهم إذا لم تتحقق لهم الوحدة ، واستهوتهم العقيدة الدينية والفصاحة التي لا مفر منها ، فقبلوا حكومة دينية اشتراكية^(١٠) ، وكان براودهم أمل يائس بأنهم إنما يحققون القدس الجديدة ، التي وردت في سفر الرؤيا . وأطلق على أعضاء بلخنة الأمن العام اسم أكابر الأسباط الاثني عشر لإسرائيل ، وأصبح جون اليبديني ملك إسرائيل ، ولعل جون أراد أن يدخل في أذهان البسطاء معنى من معاني الوقار المفيد لمنصبه المقلقل فارتدى هو وأعوانه ملابس فخمة تركها لهم بعض السراة من المنفيين ، وآتهم

الأعداء الزعماء المتطرفين بأنهم كانوا متخمين في الوقت الذي أشرف فيه الأهالي المحاصرون على الموت جوعاً ، والدليل غير مقنع وذلك لأن الزعماء يستشعرون دائماً بأن عليهم التزاماً ملحاً بالمحافظة على صحتهم . وقد وزع الجانب الأكبر من أدوات الترف المصادرة على الشعب . وكتب أحدهم « يقول إن أفقر الناس منا كانوا يطوفون وهم يرتدون ثياباً فاخرة »^(٦١) ثم ماتوا جوعاً في شيء من الأبهة .

وبطريقة أخرى كانت الشيوعية في منستر مخلوذة وتحت الاختبار ، وطبقاً لما رواه شاهد من الخصوم أصدر الحكام أمراً ، يقضى بأن تكون كل الممتلكات على المشاع^(٦٢) ، ولكن في الحقيقة ظلت الملكية الخاصة عملياً في كل شيء ما عدا المحوهرات والمعادن الثمينة وغنائم الحرب . وكانت وجبات الطعام تقدم على الشيوع ، ولكن كان لا يتناولها إلا المشتغلون بالدفاع عن المدينة . وعند تقديم هذه الوجبات كان يقرأ لإصحاح من الكتاب المقدس وتشد أناشيد فلسفية . وعين ثلاثة من الشياطين لإمداد الفقراء بحاجاتهم ، ولتوفير المواد لهذه الصدقات أغرى البقية من الأثرياء أو أكرهوا على التنازل عن فائض أموالهم . وخصصت الأرض الصالحة للزراعة داخل المدينة لكل أسرة طبقاً لعدد أفرادها . وأكد أحد المراسيم سيادة الزوج التقليدية على الزوجة^(٦٣) .

وكان ينظم الأخلاق العامة قوانين صارمة ، وشجعت الرقصات والألعاب والتمثيلات الدينية تحت الإشراف ، ولكن كان السكر والمقامرة يعاقب من يرتكبهما بقسوة ، وكان البغاء محرماً والفجور والزنا من الجرائم التي تستحق أقصى عقاب ، ودفعت زيادة عدد النساء بسبب فرار كثير من الرجال الزعماء على أن يصدروا أمراً يستند إلى السوابق في الكتاب المقدس ، بأن تصبح النساء غير المرتبطات رقيقات للزوجات - وكن في واقع الأمر حظايا^(٦٤) . ويبدو أن النساء اللاتي ارتبطن حديثاً قد تقبلان الموقف على أساس أنه أفضل من العيش في عزلة وحرمان . واحتج بعض المحافظين في المدينة

ونظموا ثورة ، وسجنوا الملك ، ولكن سرعان ما لقي جنودهم حتفهم بعد أن سلبت الخمر عقولهم ، وذلك على يد جنود اللامعبدانيين ولعبت النساء دوراً بطولياً في انتصار القدس الجديدة واتخذ جون ، بعد أن أطلق سراحه وأعيد إلى عرشه ، عادة زوجات (كما يقول المؤرخون من خصومه) ، وحكم المدينة حكماً يتسم بالعنف والطغيان (٦٥) . ولا بد أنه كان يتصف ببعض الصفات اللطيفة لأن آلاف الناس تحملوا حكمه وعرضوا للتضحية بأرواحهم في خدمته . وعند ما طالب بمتطوعين يسرون وراءه في هجوم مضاد على معسكر الأسقف انخرط في خدمته عدد كبير من النساء أكثر مما رأى أنه من الحكمة أن يستخدمن ، وعند ما طلب « رسلا » لاقتحام الطريق اطلب العون من جماعات اللامعبدانيين الأخرى حاول اثنا عشر رجلاً أن يخترقوا خطوط الأعداء ، وقبض عليهم جميعاً وقتلوا ، واندفعت فجأة امرأة متحمسة مستلهمة قصة جوديث ، إلى الخارج لاغتتيال الأسقف ، وحيل بينها وبينه ، وأعدمت .

وعلى الرغم من أن الكثيرين من اللامعبدانيين في ألمانيا وهولندا رفضوا التجاء طائفهم الأخوية في منستر للقوة فإن الكثيرين منهم هتفوا استحماساً للثورة . ونمت كولونيا وترير وأمستردام وميدن بصلوات لامعبدانية دعت فيها بنجاح اللامعبدانية ، وأبحرت من أمستردام خمسون سفينة (٢٢ مارس و ٢٥ مارس سنة ١٥٣٥) تحمل إمدادات للمدينة المحاصرة ، ولكن السلطات الهولندية فرقها كلها بحداء . وفي الثامن والعشرين من مارس استولت عصابة من اللامعبدانيين على دير في وست فريزلاند ، وحصنته بعد أن سمعت صدى ثورة منستر ، ولكنها غلبت على أمرها ، وفقد من أفرادها ثمانمائة .

وعند ما واجهت قوى الإمبراطورية المحافظة من البروتستانت والكاثوليك على السواء هذه الثورة التي استشرت حشدت جنودها لقمع حركة

اللامعمدانية في كل مكان . وها هو لور الذي كان قد أشار عام ١٥٢٨ بالرفق مع المهرطقة الجدد ينصح عام ١٥٣٠ بشهر السيف ضدهم ، لا باعتبارهم « كفاراً بل بوصفهم من كبار مشيرى الشعب » (٦٦) وأذن ميلانكتون ، وأرسات مدينة تلو أخرى المال والرجال للأسقف . وأصدر المجلس النباني في ورمس (٤ أبريل سنة ١٥٣٥) أمراً بمرض ضريسة على كل ألمانيا تقويل الحصار . وهكذا استطاع الأسقف وقتذاك أن يحيط بالمدينة ويحرمها من كل إمداداتها ، وعند ما واجه الملك جون الجماعة وخور العزيمة أعلن أن كل من يرغب يستطيع مغادرة المدينة ، فانهز الفرصة كثير من النساء والأطفال وبعض الرجال . أما الرجال فكان نصيبهم السجن أو القتل على أيدي جنرد الأسقف ، وأما النساء فقد أبقوا على حياتهم للاستفادة بهن في أداء خدمات مختلفة . وأنقل أحد المهاجرين حياته بأن عرض على المحاصرين أن يريهم جانباً من الأسوار خالياً من الحماية ، فتسلقته قوة ، واقتمحت أحد الأبواب بإرشاده (٢٤ يونية) ، وسرعان ما تدفق إلى المدينة بضع آلاف من الجنود . وكانت الجماعة قد أنشبت أنيابها في المحاصرين ، بحيث لم يبق منهم إلا ٨٠٠ رجل من القادرين على حمل السلاح ، وتحصنوا بمباريس في السوق ، ثم استسلموا مقابل وعد بمنحهم جواز الأمان لمغادرة منستر ، وعند ما سلموا أسلحتهم ذبحوا عن بكرة أبيهم . وفتشت البيوت وعثر فيها على أربعمائة من الأحياء كانوا مختبئين فقتلوا ، وربط جون الليدني واثنان من أعوانه على الساريات ، وخمش كل جزء من أجسادهم بكماشات ملتهبة إلى درجة الاحمرار حتى « أصيب بالغثيان تقريباً كل من كانوا وقوفاً في السوق من الراححة المنتنة » ، وشدت ألسنتهم حتى تدلت من أفواههم ، وأخيراً طعنت قلوبهم بالخناجر (٦٧) ٥

واستعاد الأسقف المدينة ، وزاد سلسطانه السابق ، وأصبحت كل أعمال السلطات المدنية عرضة من الآن فصاعداً للاعتراض من الأسقف ، واستعادت الكاثوليكية سلطانها المظفر ، وخشى اللامعمدانيون في أرجاء الإمبراطورية على أرواحهم ، فنبذوا كل عضو في طائفتهم يتهم باستخدام القوة ، ومع ذلك أعدم الكثيرون من هؤلاء المرطقة المسلمين . وأشار ميلانكتون ولوتر على فيليب الهسي بإعدام كل من انضموا إلى الطائفة (٦٨) ، وشعر الزعماء المحافظون أن مثل هذا التهديد الخطير للنظام الاقتصادي والسياسي الذي توطدت أركانه يجب أن يعاقب بقسوة لا تعرف الغفران .

وتقبل اللامعمدانيون الدرس وأجلوا الشيوعية إلى العصر الآلني (عصر حكم المسيح ألف سنة) وأسلموا أنفسهم إلى ممارسة ما يتفق مع مبادئهم عن الحياة الرصينة البسيطة التقية المسالمة - التي لا تغضب الدولة .

وقام ميثو سيمونز ، وهو قس كاثوليكي اعتنق مذهب اللامعمدانية (١٥٣١) ، بإرشاد أتباعه من الهولنديين والألمان إرشاداً بارعاً جداً ، إلى حد أن «المينونيين» عاشوا على الرغم من كل ما تعرضوا له من محن ، وكونوا كوميونات زراعية ناجحة في هولندا وروسيا وأمريكا . وليس هناك علاقة قرابة واضحة بين اللامعمدانيين في القارة الأوروبية وبين جماعة الكويكر الإنجليز والمعمدانيين (جماعة البابتست) الأمريكيين . إلا أن رفض جماعة الكويكر للحرب والأيمان ، وإصرار جماعة المعمدانيين (البابتست) على التعميد عند البلوغ مستمدان من نفس تقاليد العقيدة الدينية والسلوك ، التي اتخذت أشكالاً متعددة (٦٩) في سويسرة وألمانيا وهولندا . وتشارك هذه الجماعات تقريباً في صفة واحدة ، وهي تصميمها على تقبل العقائد التي تخالف عقائدها في سلام . وأن علم اللاهوت الذي ساندتها

وقت الشدة والفقر والاستشهاد لا يكاد يتفق مع فلسفتنا العابرة ، وإن كانت أيضاً بصلة لها وولائها ومسالمتها قد أثرت تراثنا وكفرت عن إنسانيتنا المدنسة(*) .

(*) هاجر فرع من اللامعمدانيين (١٧١٩) من ألمانيا إلى بنسلفانيا ، واستقر في جرمانتاون أو بالقرب منها . وهؤلاء الدونكر يبلغ عددهم الآن زهاء ٤٠٠,٠٠٠ . وفي عام ١٨٧٤ غادر روسيا كثير من اللامعمدانيين ، الذين ينحدرون من أصل مورافي ، واستقروا في جنوب داكوتا والبرتا .
وفي شرق بنسلفانيا لا يزال المينونيون الامينيون - وأطلق عليهم هذا الاسم نسبة إلى جاكوب أمين وهو زعيم عاش في القرن السابع عشر - يرفضون رسمياً استخدام الأمواس والأزرار وطرق السكك الحديدية والسيارات ومشاهدة الصور المتحركة وقراءة الجرائد ، بل إنهم لا يستخدمون الجرارات ، ومع ذلك فإن مزارعهم تعد من أنجح المزارع وأكثرها تلسيقاً في أمريكا ، ويبلغ تعداد المينونيين ٤٠٠,٠٠٠ عام ١٩٤٩ .

الفصل الثامن عشر

زونجلى - الإصلاح الدينى فى سويسره

(١٤٧٧ - ١٥٣١)

Multum in Parvo ?

(كثير فى القليل)

دعم نجاح المقاطعات السويسرية فى صد الهجوم الذى قام به شارل الجسور (١٤٧٧) اتحادها وأشعل جنادة اعزازها بقوميتها ، وشجعها على مقاومة المحاولة التى قام بها ماكسميليان لإخضاعها اسماً وفعلاً للإمبراطورية الرومانية المقدسة ، وثارَت منازعات على تقسيم الغنائم عقب هزيمة بورغنديا ، فدفعت بالمقاطعات إلى حافة الحرب الأهلية ، إلا أن فيلسوفاً ناسكاً بمجلس ستانز النيابى وهو نيكولاوس فون دير فلو - الأبخ كلاوس فى الذاكرة السويسرية - أقنعها بأن تركزن إلى السلام .

وانضمت مقاطعة لآر مقاطعة إلى الاتحاد ، ليزداد قوة ، فقبات فيه فرايبورج وسولوثورن عام ١٤٨١ ، وبازيل وشافهاوزن عام ١٥٠١ ، وابنتسيل عام ١٥١٣ ، وغدا الاتحاد بعد أن انضمت إليه ثلاث عنبرة مقاطعة ، تتحدث كلها باللهاجات الألمانية - ما عدا فريبورج وبرن ، فقد كان الحديث يدور فيهما بالفرنسية - جمهورية اتحادية : وكانت كل مقاطعة تنظم شؤونها الداخلية ، أما علاقاتها الخارجية فكانت تحكمها سلطة تشريعية عمامة .

وكانت الهيئة التشريعية الوحيدة للمجلس النيابى الاتحادى تتكون من عدد مماثل من النواب عن كل مقاطعة . ولم تكن الديمقراطية كاملة ، فقد

حرمت عدة مقاطعات من التصويت الأقليمي من رعاياها ، يضاف إلى هذا أن سويسرا لم تكن نموذجاً يحتذى في حب السلام .

ولقد انتهزت المقاطعات من ١٥٠٠ - ١٥١٢ فرصة تفكك وحدة إيطاليا ، واستولت على بليزونا ولوكارنو ولوجانو وبعض المناطق الأخرى جنوب الألب ، واستمرت في تأجير خدمات الفرق السويسرية - بموافقتها - للسلطات الأجنبية . ولكن الاتحاد تخلى عن التوسع الإقليمي بعد هزيمة حملة الحراب السويسرية في موقعة مارينانو **Marignano** (١٥١٥) ، وتبنى سياسة تتسم بالحياة ، ووجه فلاحيه الأقوياء وصناعه المهرة ، وتجارة الكينرى الموارد إلى تنمية حضارة ، تعد من أعظم الحضارات في التاريخ .

وكانت الكنيسة في سويسرة لجنة العريكة وفسادة . كما كانت في إيطاليا ، وأسبغت الرعاية على علماء الإنسانيات ، الذين احتشدوا حول فروبن وأرازموس في بازل ، ومنحتهم قسماً وافراً من الحرية . وأصبح هذا دعامة من دعائم التسامح الخلقى ، الذى ساد هذا العصر ، فاستمتع القساوسة السويسريون بالحظايا^(١) . وكان أحد الأساقفة السويسريين يتقاضى من رجال الدين التابعين له أربعة جيلدرات عن كل طفل يولد لهم ، وجمع في عام واحد ١٥٢٢ جيلدر من هذا المصدر^(٢) . وشكا من أن الكثيرين من القساوسة يقامرون ، ويترددون على الحانات ، ويشملون علناً^(٣) ، دون أن يدفعوا رسماً للأسقفية . وبدأت عدة مقاطعات ، وبخاصة زيورخ ، في الإشراف المدنى على رجال الدين ، وفرضت الضرائب على أملاك الأديرة . وزعم أسقف كونستانس أن زيورخ بأسرها إقطاعية تابعة له ، وطالب بخضوعها له وبضرائب العشور المفروضة عليها ، ولكن البابوية كانت جد مرتبكة باتجاهات السياسة الإيطالية ، فلم تستطع أن تؤيد مزاعمه بالفعل . ولقد وافق البابا يوليوس الثانى في عام ١٥١٠ على أن يدير مجالس المدينة في جنيف الأديرة ، وأن يضع قواعد للأخلاق العامة في نطاق سلطته^(٤) ،

وذلك مقابل الحصول على بعض الفرق من جنيف . ومن ثم فإن روح الإصلاح الديني كانت قد تحققت في زيوريخ وجنيف قبل ظهور أفكار لوثر بسبع سنوات ، وهي سيادة السلطة الزمنية على السلطة الدينية وأصبح الطريق ممهداً أمام زونجلى وكالفن لوضع الأسس المختلفة التي رأوا أنها تزيل هوة الخلاف بين الكنيسة والدولة .

٢ - زونجلى

إن زيارة يقوم بها المرء إلى محل ميلاد هولدرايخ ، أو أولريخ زونجلى ، لتوحى له بالقاعدة غير المضطربة التي تذهب إلى أن العظماء من الرجال إنما يولدون في بيوت متواضعة . ولقد استهل أعظم المصلحين الدينيين العقلانيين ، الذين جازهم التوفيق حياته (أول يناير عام ١٤٨٤) في كوخ صغير بقرية فيلدهاوس ، التي تربض في واد جبلي على بعد خمسين ميلاً جنوب شرقي زيوريخ في مقاطعة سانت - جولده الحالية ، سقف جملوني منخفض ، وجدران من ألواح ثقيلة ، ونوافذ مقسمة إلى مربعات ، وأرضيات مكونة من ألواح مصمتة ضخمة ، وسقوف واطنة ، وحجرات مظلمة ، ودرجات تحدث صريراً ، وأسرة مهيئة من خشب البلوط ، ومنضدة وكرسى ورف للكتب ؛ وهذا البيت التاريخي يدل على بيئة كان الانتخاب الطبيعي فيها يتم بصورة صارمة ، أما الانتخاب الحارق للطبيعة فقد كان يبدو أملاً لا غنى عنه ، وكان والد أولريخ كبير القضاة في هذه القرية الصغيرة المغمورة أما أمه فكانت شقيقة قس معترزة بنفسها . وكان الابن الثالث من بين ثمانية أبناء يتنافسون على الظفر بإعجاب شقيقتين ، ويبدو أنه قدر قد عليه أن يكون قساً منذ نعومة أظفاره .

وأسهم عمه ، وهو نائب الأسقف في كنيسة قرب فيزين ، في تعليمه مع والديه ، وكان له الفضل في أن يكون زونجلى نزعاً إنسانية وإتساع أفق ، تميز بها بوضوح عن لوثر وكالفن . وعند ما بلغ الصبي العاشرة من

عمره أرسل إلى مدرسة لاتينية في باويل ، وفي الرابعة عشرة دخل كلية في برن يرأسها أحد الأهلين من أنصار الكلاسيكية المبرزين . ودرس من السادسة عشرة إلى الثامنة عشرة في جامعة فيينا ، في الفترة التي ازدهرت فيها للدراسات الإنسانية ، في عهد كونراد سيلتس . وكان يسرى عن نفسه ما يلاقيه من عناء بالعزف على العود والقيثار والكمان والناي والسنتير .

وفي الثامنة عشرة من عمره عاد إلى بازيل ، ودرس اللاهوت على يد توماس فيتنباخ ، الذي هاجم قبل الأوان عام ١٥٠٨ صكوك الغفران وعزوبة رجال الدين والقداس . وحصل زونجلى على درجة الماجستير ، وهو في الثانية والعشرين من عمره ، (١٥٠٦) ورسم قساً . واحتفل بإقامة أول قداس له في فيلدهاوس وسط الأقارب المبهجين ، واشترى بمبلغ مائة جيلدر جمعت له وظيفة راعي أبرشية^(٥) في جلاروس على بعد عشرين ميلا .

وهناك تابع دراساته في الوقت الذي كان يؤدي فيه واجباته بغيرة وحماسة ، وتعلم اليونانية ليقرأ العهد الجديد بلغته الأصلية ، وقرأ بحماسة مؤلفات هوميروس وبنلدار وديموكريتوس وبلوتارك وسيشرون وقيصر وليفي وسينيكا وبليني الأصغر وتاسيتوس ، وكتب تعليقا على مؤلف لوسيان التشكك الفكه ، وتبادل الرسائل مع بيكوديلا ميراندولا وأرازموس ، بوصف أرازموس بأنه « أعظم فيلسوف وعالم باللاهوت » ، وزاره موقرا بإياه (١٥١٥) ، وكان يقرأ له كل ليلة قبل أن ينام . وقد درج ، مثل أرازموس ، على أن يسلق بلسان لاذع فساد رجال الدين ، وأن يسخر بقطرته من التطرف في العقيدة ، وأن يرفض بشدة الرأي القائل بأن قدامى الفلاسفة والشعراء يصلون نار جهنم . « وأقسم أنه يؤثر أن يشاطر سقراط أو سينيكا حظه المقدمور ولا يتلقى الإنعام من البابا »^(٦) . ولم يسمح لههود الكهنوتية بأن تحرمه من ملذات الجسد ، فكانت له علاقات مع نساء متميزات ، وظل منغمسا في ملذاته هذه حتى تزوج عام ١٥١٤ .

ولم تعبأ بأفعاله جموع المصلين عنده ، وظل البابوات يدفعون له حتى عام ١٥٢٠ معاشاً قدره خمسون فلورين ، نظير تأييده لهم ضد الحزب المناصر للفرنسيين في جلاروس . واصطحب من عام ١٥١٣ إلى عام ١٥١٥ فرقة الجنود المرتزقة السويسرية في جلاروس إلى إيطاليا ، بصفته واعظاً لها ، وبذل أقصى ما في وسعه لكي يحمّل الجنود على الحفاظ على ولائهم للقضية البابوية ، إلا أن صلته بالحرب في المعارك التي دارت في ناغارو ومارينيانو ، جعلته يعارض بشدة أى تدبير لبيع شجاعة الجنود السويسريين للحكومات الأجنبية .

وفي عام ١٥١٦ فاز الحزب الفرنسي في جلاروس ، وأصبحت له اليد الطولى ، فانتقل زونجلي إلى أبرشية في أنيزيدلان بمقاطعة شفيتز . وهنا اصطبغت عظمته بصبغة بروتستانتية حتى قبل قيام ثورة لوثر ، ونادى عام ١٥١٧ باعتناق دين يعتمد على الكتاب المقدس فحسب وأبلغ كثير الأساقفة الكاردينال ماتهويس شير أن في الكتاب المقدس أجازة ضمنية للبابوية ، ولقد هاجم في أغسطس عام ١٥١٨ مساوى بيع صكوك الغفران . وحرّض رهبان البندكتيين على أن يرفعوا من المزار ، الذى أقاموه للعنراء ، والذى يعود عليهم بالريح الوفير ، نقشاً يعدون فيه الحجاج بـ « الغفران الكامل لجميع الخطايا التي اقترفوها وإعفائهم من العقاب أيضاً » (٧) . وعاد بعض الحجاج من زيوريخ إلى قساوستهم برواية حماسية عن وعظه . وفي العاشر من ديسمبر عام ١٥١٨ قبل الدعوة لتنصيبه « قساً » أو « قسيساً للشعب » في جروسمنستر أو الكنيسة الكبرى في زيوريخ أعظم المدن السويسرية جراً ، وكان في ذلك الوقت يقترب من النضج في الروح المعنوية والتعقل . وقام بإلقاء سلسلة من العظات فسر فيها ، من النص اليوناني ، العهد الجديد بأسره ما عدا سفر الرؤيا ، الذى لم يكن يحبه ، وكان يطوى بين جوانبه شيئاً من اللصوفية ، التي أسهمت في تكوين لوثر . وليس لدينا صورة شخصية له ،

أخذت إبان حياته ، ولكن معاصريه وصفوه بأنه رجل وسيم أصهب صريح النسب ، له صوت شجي ، يستولى على ألباب جموع المصلين في كنيسة ، ولم يكن يضارع لوثر في الفصاحة أو التفسير ، ومع ذلك فإن عظاته كانت مقنعة ، لما تتسم به من صدق وصفاء ، وسرعان ما استجابت زيوريخ بأسرها لتأثيره . وأيده رؤساؤه من رجال الدين عند ما استأنف حملته ضده بيع صكوك الغفران . وقد اجتاز في أغسطس عام ١٥١٨ برنهاردن سمسون الراهب الفرنسيسكاني من ميلان (Bernhardin Samson) مضيق سانت جوتار ، وأصبح تيسزل سويسرة . وقدم صك غفران من البابا ليو إلى الأغنياء على ورق الورشمان نظير ريال ، وإلى الفقراء ، مقابل بضع بنسات ، وبتلوحة من يده أعني كل الأرواح التي هلكت في برن من عذاب المطهر . واحتج زونجلى ، وظاهره في هذا الاحتجاج أسقف كونستانس ، ولما كان ليو العاشر على علم بشيء من الأحداث الجارية في ألمانيا ، فقد استدعى رسوله المتلاف . وفي عام ١٥١٩ انتشر وباء الطاعون في زيوريخ ، وقضى على ثلث السكان في خلال نصف عام . ولازم زونجلى مقره ، وواصل العمل ليلا ونهاراً في العناية بالمرضى ، وأصيب هو نفسه بعدوى المرض ، وأشرف على الهلاك ، وما أن عوفي حتى غدا أعظم شخصية في زيوريخ ، تحظى بالشعبية ، وبعثت إليه بالتهاني بعض الشخصيات المرموقة ، التي تقيم بعيداً عنه ، من أمثال بركهايمر وديرر . ونصب عام ١٥٢١ كبيراً للقساوسة في جروسمنستر ، وأصبح وقتذاك من القوة بحيث استطاع أن ينادى في سويسرة بالإصلاح الديني .

٣ - إصلاح زونجلى الديني

ولقد تغيرت شخصية راعي الأبرشية في كنيسة ، دون وعى منه تقريباً ، وإن كان هذا التغيير نتيجة طبيعية لما تلقاه من تعليم غير عادي . . . كانت الموعدة قبله هيئة الشأن ، وبكاد القداس والقربان المقدس أن يستغرقا

معظم الخدمة الدينية ، وقد جعل زونجلى الموعظة المسيطرة في إقامة الشعائر الدينية ، وأصبح معلماً لا يقل براعة عنه واعظاً ، وكلما ازدادت ثقته اشتد إقناعه بأن المسيحية يجب أن تعود إلى بساطتها الأولى في النظام والعبادة . ولقد استفزته ثورة لوثر ورسائله ورسالة هس « عن الكنيسة » ، فما أن حل عام ١٥٢٠ حتى كان يهاجم علناً الرهبانية والمطهر والتوسل بالقدسين ، وبرهن أكثر من هذا على أن دفع ضرائب العشور لالكنيسة يجب أن يكون يمحض الاختيار ، كما جاء في الكتاب المقدس . ورجاه الأسقف الذى يتبعه أن يسحب هذه العبارة ، ولكنه أصر عليها وأيده مجلس المقاطعة ، بأن أصدر أمراً لكل القساوسة المعيّنين في نطاق اختصاصه ، أن تقتصر عظاتهم على ما وجدوه في الكتاب المقدس . وفى عام ١٥٢١ أقنع زونجلى المجلس بمنع تطوع الجنود السويسريين في صفوف الفرنسيين ، وبعد مرور عام امتد الحظر حتى شمل كل الدول الأجنبية ، وعند ما استمر الكاردينال شينر في تجنيد الفرق السويسرية للبابا ، أوضح زونجلى لجمهور المصلين عنده ، أن الكاردينال كان لا يرتدى قبعة حمراء دون داع لأنها « إذا عصرت لرأيت دم أقرب الأقرين يقطر من ثناياها » (٨) . ولما لم يجد في العهد نصاً يحرم اللحم في الصوم الكبير ، فقد سمح لرعايا أبرشيته بأن يتجاهلوا أوامر الكنيسة الخاصة بهذا الصوم الكبير . واحتج أسقف كونستانس ، فرد عليه زونجلى في كتاب عنوانه (بداية ونهاية) تنبأ فيه بثورة عالمية ضد الكنيسة ونصح البطارقة بأن يقلدوا قيصر وأن يطووا حولهم أرديتهم ، ويموتوا في جلال ووقار . والتمس ، هو وعشرة من القساوسة الآخرين ، من الأسقف أن يضع حداً لفجور رجال الدين ، وذلك بأن يسمح بزواج رجال الكهنوت (١٥٢٢) . وكان في إبان ذلك العهد يحتفظ بسيدة تدعى أنا راينهارد بصفة عشيقة أو زوجة له في الخفاء . وتزوجها علناً عام ١٥٢٤ قبل زواج لوثر من كاترين فون بورا بعام .

وقد سبق هذا الانفصام النهائى من الكنيسة جدلان ذكرا الناس بمناظرة

لوثر وايلك في ليزج ، وكانت لهما أصداء بعيدة في جدل أنصار الفلسفة الكلامية في جامعات العصور الوسطى .

ولما كانت سويسرة جمهورية نصف ديمقراطية فلم يروعها رأى زونجلى ، الذى يذهب إلى أن الخلافات بين آرائه وآراء خصومه المحافظين يجب أن تلتقى أذنأ صاغية غير متحيزة ، وأخذ مجلس زيوريخ الكبير على عاتقه باغتباط مهمة الحكم على رجال الدين ، فدعا الأساقفة أن يرسلوا ممثلين لهم فحضروا بكامل أهبتهم واحتشد منهم نحو ستمائة فى قاعة المدينة ، للاشتراك فى الجدل المثير (٢٥ يناير سنة ١٥٢٣) .

وعرض زونجلى سبعة وستين بنداً يدافع عنها :

١ - يخطئ كل من يقول أن الإنجيل لا يساوى شيئاً ، إذا لم ترض عنه الكنيسة .

١٥ - يتضمن الإنجيل الحقيقة بأكملها فى وضوح وجلال

١٧ - المسيح هو الكاهن الأعظم الخالد الوحيد ، والذين يزعمون أنهم كهنة عظام ، إنما يعارضون فى الحقيقة شرف المسيح وجلاله .

١٨ - أن المسيح الذى ضحى بنفسه يوماً فوق الصليب ، قد قام بالتضحية الكافية والدائمة للتكفير عن خطايا كل المؤمنين ، ومن ثم فإن القديس ليس تضحية ، وإنما هو تذكرة للتضحية الوحيدة على الصليب

٢٤ - المسيحيون غير مكلفين بأية أعمال لم يأمر بها المسيح ، ويمكنهم أن يأكلوا فى جميع الأوقات كل أنواع الطعام

٢٨ - كل ما يبيحه الله ولم يحرمه حلال . ومن ثم فإن الزواج مباح لكل الناس .

٣٤ - لا أساس للسلطة الروحية التى يطاق عليها اسم (الكنيسة) فى الكتب المقدسة وفى تعاليم المسيح .

٣٥ - إلا أن السلطة الزمنية تؤيدها تعاليم المسيح وسنته (لإصحاح لوقا ٢ - ٥ وإصحاح متى ٢٢ ، ٢١)

٤٩- لا أعرف فرية أعظم من تحريم الزواج الشرعى على القساوسة . بينما يباح لهم اتخاذ حظايا على شريطة دفع غرامة . يا للعار ! .

٥٧- إن الكناس المقدس لا يعرف شيئاً عن المطهر

٦٦- على جميع الرؤساء الروحيين أن يبادروا بالتوبة . وأن ينصبوا صليب المسيح وحده وإلا هلكوا . إن البلمبة موضوعة على الجندر (٩) .

ورفض جوهان فاير - الأستقف العام لأبرشية كونستانس هذه الآراء تفصيلاً ، وطالب بأن تطرح أمام جامعات كبيرة أو أمام مجلس عام للكنيسة . ورأى زونجلى أن هذا لا ضرورة له . فبعد أن أصبح العهد الجديد وقتذاك فى متناول الناس باللغات الدارجة ، صار فى وسع الجميع أن يحصلوا على كلمة الله ليحكموا على هذه الآراء وهذا يكفى ووافق المجلس وأعلن أن زونجلى برىء من المرطقة ، وأمر كل رجال الكهنوت فى زيوريخ بأن تكون عظاتهم مقصورة على ما يجدون له سنداً فى الكتاب المقدس . وهذا تولى الدولة أمر الكنيسة كما حدث بألمانيا فى عهد لوثر .

وقبل معظم القساوسة - بعد أن تضمنت لهم الدولة الآن روايتهم . . . أمر المجلس . وتزوج الكثيرون منهم وتعاملوا باللغة الدارجة وأخذوا أمر القداس وتحلوا عن تمديس الصور . وبدأت عصبية من المتحمسين فى إتلاف الصور واتماثيل بلا تمييز فى كنائس زيوريخ . وانزعج زونجلى من انتشار العنف على هذا النحو فرتب مناظرة أخرجت (٢٦ أكتوبر سنة ١٥٢٣) حضرها ٥٥٠ من عامة الناس و ٣٥٠ من رجال الكهنوت . وتمخضت عن أمر صدر من المجلس يقضى بأن تتولى لجنة من أعضائها زونجلى . إعداد كتيب يتضمن تعليمات . توضح العقيدة للناس . وأن يتوقف فى حضور ذلك العنف بجميع صورته . وألف زونجلى بسرعة « مقامة فصيحه فى المسيحية » أرسلت لجميع رجال الدين فى المناطقة .

واحتجت السلطة الكهنوتية الكاثوليكية . وأيدها فى الاحتجاج المجلس

النيابي للاتحاد الذي اجتمع في لوسون (٢٦ يناير سنة ١٥٢٤) ، في الوقت نفسه تههد بالقيام بإصلاح كهنوتى ، غير أن مجلس المدينة تجاهل هذه الاحتجاجات .

وصاغ زونجلى عقيدته بتوسع في رسالتين باللاتينية : « الدين الحقيقى والزائف (De vera et false religione) (١٩٢٥) و (Ratio fidei) (١٥٣٠) وقبل لاهوت - الكنيسة الأساسى - إله ثلاثى التوحد ، وهبوط آدم وحواء من الجنة ، وتجسد الأقتوم الثانى ، وولادة العذراء والتكفير ، ولكنه فسر « الخطيئة الأصلية » لا بأنها لوثة لثم ورثناه من « أبائنا الأوائل » ولكن بأنها نزعة غير اجتماعية ، تكمن فى طبيعة الإنسان (١٠) . وقد اتفق فى رأى مع لوثر بأن الإنسان لن يستطيع أبداً أن يحصل على الخلاص بالأعمال الصالحات ، بل يجب أن يؤمن بالقدرة التكفيرية لموت المسيح المقترن بالتضحية . واتفق فى رأى أيضاً مع لوثر وكالفن فى موضوع القدر : كل حادث وبالتالى المصير الأزلى لكل فرد قدره الله ، ولا بد أن ينفذ كما قدر سبحانه ، ولكن الله لم يقدر اللعنة الأبدية إلا على الذين أعرضوا عن آيات الإنجيل ، التى بسطت عليهم ، وكل طفل (من أبوين مسيحيين) يموت ، وهو طفل ، يكتب له الخلاص ، حتى ولو لم يعمد ، لأنه أصغر من أن يرتكب خطيئة . وجهنم حق ، أما المطهر فهو « خرافة » مهنة مربحة لمن ابتدعوه (١١) وليس فى الكتاب المقدس إشارة عنه ، أما القرايين المقدسة فإنها ليست وسائل معجزة بل رموزاً نافعة لرحمة الله والاعتراف السرى لا ضرورة له ، وليس فى وسع قسيس أن يغفر لأحد - خطيئته - فالله وحده هو الغفور ، وإن كان من المفيد غالباً أن نسر بمتابنا إلى قسيس (١٢) . وليس العشاء الربانى ، أكلا فعلياً لجسد المسيح ، ولكنه رمز لاتحاد الروح بالرب والفرد بالجماعة المسيحية .

وحافظ زونجلى على القربان المقدس باعتباره جزءاً من الصلاة التى

يقرها الإصلاح الدينى ، وناول القربان بالخبز والنبيد معاً ، ولكنه لم يناوله إلا أربع مرات في العام . وفي ذلك الاحتفال العرضى أبقى على جانب كبير من القداس ، وإن أخذ جمهور المصلين والقس يتلون به باللغة الألمانية في سويسرة . أما في باقى السنة فقد كان يستبدل بالقداس العظة الدينية . وأصبح سلطان الشعيرة على الحواس والتصور تابعاً لتأثير مخاطبة العقل ، وهو مقامرة تتسم بالتهور على الذكاء الشعبى وقمطرة الأفكار على الثبات ، ولما كان من الضرورى أن يستبدل بكنيسة معصومة من الخطأ إنجيلاً لا تشوبه شائبة ليكون نبراساً للعقيدة والساوك ، فإن الترجمة الألمانية للعهد الجديد التى قام بها لوثر ، أعدت باللهجة الألمانية فى سويسرة ، وعهد إلى هيئة من العلماء ورجال الدين برئاسة قداسة ليوجود إعداد نسخة بالألمانية من الكتاب المقدس بأسره ، وقد نشر هذه النسخة كريستيان فروشاور عام ١٥٣٤ فى زيوريخ ، قبل أن تظهر نسخة لوثر - وهى خير منها - بأربع سنوات .

وفى امثال صادق للوصية الثانية ، ودلالة على عودة المسيحية البروتستانتية إلى تقاليد اليهودية الأولى ، أمر مجلس مدينة زيوريخ برفع كل الصور الدينية ومخالفات القديسين والزينات من كنائس المدينة ، بل إن آلات الأرضن أبعدت عنها ، وترك الصحن الداخلى الفسيح لكنيسة جروسمنستر عاطلاً كئيب المنظر ، كما هو اليوم . وحقاً أن بعض الصور كان سخيفاً بصورة لا يقبلها العقل ، وبعضها كان مهيباً للاستسلام لخرافة والوهم بحيث يستحق الإطلاف ، إلا أن جانباً منها كان جميلاً ، إلى حد دفع هينريخ بولينجر خلف زونجلى إلى أن يحزن لفقدانها . وكان لزونجلى نفسه موقف عتسامح من التماثيل التى لا تعبد باعتبارها أصناماً خارقة الصنع (١٣) ، ولكنه صفع عن عملية التقويض باعتبارها زجراً لعبادة الأصنام (١٤) ، وسمح للكنائس القروية فى المقاطعة بأن تحتفظ بتماثيلها ، إذا كانت هذه رغبة غالبية جموع المصلين . واحتفظ الكشالكة ببعض الحقوق المدنية ، ولكنهم لم يقبلوا فى الوظائف

العامة . وعوقب كل من يحضر القداس بغرامة ، وحرّم (١٥) مبدأً أكل السمك بدلا من اللحم يوم الجمعة . وأغلقت أديرة الرهبان والراهبات (باستثناء دير واحد) أو حولت إلى مستشفيات أو مدارس ، وبرزت الرهبان والراهبات من الدير لعقد زواجهن ، وألغيت أعياد القديسين ، واختفت طقوس الحج والماء المقدس والقداسات التي كانت تقام للموتى .

وعلى الرغم من أن كل هذه التغييرات لم تتم حتى عام ١٥٢٤ ، فإن الإصلاح الديني ، حتى ذلك الوقت ، كان قد بلغ درجة من الرقي ، في عهد زونجلى وفي زيورخ ، تفوق ما بلغه في عهد لوثر وفي فيتنبرج ، وكان لوثر وقتذاك راهباً أعزب لا يزال يردد القداس .

وشكلت زيورخ مجلساً خاصاً ، في نوفمبر عام ١٥٢٤ ، يتكون من ستة أعضاء لإعداد الاتفاقات اللازمة لفض المشاكل العاجلة أو الدقيقة ، التي كانت تعانى منها الحكومة ، وتم بين زونجلى وهذا المجلس نوع من التفاهم ، اتخذ شكلا ما ، إذ سلم له بتنظيم كل الشئون الخاصة برجال الدين والعلمانيين على السواء ، وكان المجلس في كل من المجالين يتبع قيادته . وأصبحت الكنيسة والدولة في زيورخ منظمة واحدة ، على رأسها زونجلى بصفة غير رسمية ، وفيها ارتضى الإنجيل (كما هو الحال بالنسبة للقرآن في الإسلام) المصدر الأول والحكم الأخير للشريعة . وتحقق في زونجلى ، كما تحقق في كالفن فيما بعد ، المثل الأعلى للنبي الذي يرشد الدولة ، كما تصوره العهد القديم .

وما أن حقق زونجلى هذا النجاح التام والسريع في زيورخ حتى قلب عيناً متسائلة في المقاطعات التي تدين بالكاثوليكية ، وتساءل ألا يمكن كسب سويسرة بأسرها لصف الشكل الجديد للعقيدة القديمة :

٤ - إلى الأمام أيها الجنود المسيحيون

ولقد مزق الإصلاح الديني « الاتحاد » ويبدو أنه قدر له أن يقضي عليه ،
وآثرت برن وبازيل وشافهاوزن وآبنتسل والحريزونيون أن تناصر زيورخ ،
أما باقي المقاطعات فقد ناصبتها العدا . وكونت خمس مقاطعات - وهي
لوسرن وأورى وشفتيز وأونترفالدن وتسوج - حلفاً كاثوليكياً لقمع كل
الحركات الهسية وللوثرية والزونجالية (١٥٢٤) ، وحث الأرشيدوق فرديناند
النمساوي كل الولايات الكاثوليكية على أن تقوم بعمل موحد ، ووعدها
بتقديم المساعدة . وليس من شك في أنه كان يطمح في أن يستعيد سلطات
آل هابسبورج في سويسرة . وفي السادس عشر من يوليو وافقت كل
المقاطعات باستثناء شافهاوزن على إقصاء زيورخ من المجالس النيابية الاتحادية
في المستقبل . وردت زيورخ وزونجلى على هذا بإرسال مبشرين إلى مقاطعة
ثورجاو لإعلان الإصلاح الديني . وقبض على واحد من هؤلاء ، إلا أن
بعض الأصدقاء أنقذوه ، وساروا في حشد هائج نهب ديراً وأحرقه ، وحطم
التماثيل في عدة كنائس (يوليو ١٥٢٤) ، وأعدم ثلاثة من الزعماء ، وثار
روح عسكرية بين الطرفين . وروّع أرازموس ، وهاله الظهور في بازيل
خشية أن يرى متعبدين أتقياء يثورون بعسد سماع وعاظهم ويخرجون من
الكنيسة « كرجال تماكبهم جنة » ، يرسم الغضب والهياج على أساريهم : «
كمحاربين يسرون وراء قائدهم للقيام بهجوم قوى » (١٦) . وهددت ست
مقاطعات بأن تترك الاتحاد إذا لم يوقع العقاب على زيورخ .

وأشار زونجلى ، وقد أعجبه القيام بدوره بالحديد كقائد حربي ، على
زيورخ بأن تزيد من عدد جيشها وطاقة دار صناعة أسلحتها ، وأن تنشد
التحالف مع فرنسا ، وأن تشعل ناراً وراء فرديناند بالتحريض على الثورة

في التيرول وبعد تورجاو وسان - جال بمنحهما أملاك الأديرة مقابل تأييدهما لها . وعرض على الحلف الكاثوليكي السلام بثلاثة شروط : -

أن يسلم لزيورخ دير سان - جال الشهير وأن يتخلى عن الحلف النمساوي وأن يسلم إلى زيورخ توماس مورر المهجاء اللوسرني ، الذي طالما وجه نقداً لاذعاً في كتاباته للمصلحين الدينيين . وسخر الحلف من هذه الشروط ، فأمرت زيورخ ممثلها في سان - جال بالاستيلاء على الدير فأطاعوا (٢٨ يناير ١٥٢٩) وخففت حدة التوتر في فبراير إثر أحداث في بازيل .

كان زعيم البروتستانت في « أثينا سويسرة » هو جوهانس هاوسشاين ، الذي أسبغ على اسمه صفة الهلينية ، ومعناه مصباح البيت ، فأطلق على نفسه اسم أويكو ، لامباديوس . وقد نظم الشعر باللاتينية ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، وسرعان ما أتقن اللغة اليونانية فيما بعد ، وكان لا يفوقه في إتقان اللغة العبرية إلا رويجلين ، وذاع صيته كمصلح ديني وأخلاقي رقيق العاطفة في كل شيء إلا الدين ، وذلك من فوق منبره في كنيسة سانت مارتن ، وفي كرسي الأستاذية للاهوت في الجامعة . وما أن حل عام ١٥٢١ حتى كان يهاجم مساوي كرسي الاعتراف وعقيدة التجسد وعبادة العنراء . وحياء لوثر عام ١٥٢٣ ، وتبنى عام ١٥٢٥ برنامج زونجلي الذي يشمل اضطهاد الالمعمدانين ، ولكنه رفض التسليم بالقدر وعلم الناس أن « خلاصنا يأتي من الله أما هلاكنا فن أنفسنا » (١٧) . وعند ما أعلن مجلس مدينة بازيل ، وقد رجحت فيه وقتذاك كفة البروتستانت ، حرية العبادة (١٥٢٨) احتج أويكو لامبادموس وطالب بتحريم القلداس .

واجتمع في ٨ فبراير عام ١٥٢٩ ثمانمائة رجل في كنيسة الفرانسيسكان وبعثوا بطلب إلى المجلس التمسوا فيه ضرورة تحريم القلداس وعزل كل الكنائس من مناصبهم وبسريان دستور أكثر ديمقراطية ، وتشاور المجلس في الأمر ،

وفي اليوم التالي أُقبل مقدمو الالتماس إلى السوق ، وهم مدججون بالسلاح ، وعند ما حل الظهر ولم يصل المجلس بعد إلى قرار تحرك الحشد نحو الكنائس بالمطارق ، وحطموا كل التماثيل الدينية التي وجدوها (١٨) . ووصف أرازموس الواقعة في خطاب له بعث به إلى بيركهايمر :

لقد رفع الحدادون والعمال كل الصور من الكنائس ، وانهالوا بالشتائم على تماثيل القديسين والصليب نفسه ، بصورة تدعو إلى الدهشة ، لعدم حدوث معجزة ، بعد أن رأينا كيف اعتاد الناس حدوث الكثير منها دائماً عند ما يساء إلى القديسين أذى إساءة . أنهم لم يبقوا على تماثيل واحد في الكنائس أو في الدهاليز أو في الأروقة أو في الأديرة . وطمست الصور الجدارية بوساطة تغطيتها بطبقة من الخير ، وألقى في النار بكل ما يمكن حرقه ودق الباقي حتى استحال إلى شظايا . ولم يستبق شيء بدافع الحب أو المال (١٩) .

وتلقف المجلس التلميح وصوت بإلغاء القديس إلغاء كاملاً ، وغادر بازيل أرازموس وبياتوس رينانوس وكل الأساتذة في الجامعة تقريباً . وعاش أويكو لامباديوس المظفر حتى شهد اندلاع نيران الثورة ، ولكنه لم يعمر إلا سنتين ، إذ سرعان ما مات بعد وفاة زونجلى .

وفي مايو عام ١٥٢٩ أحرق على الخازوق مبشر بروتستانتى من زيورخ ، حاول أن يقدم عظامه في مدينة شفيتز . وأقنع زونجلى مجلس مدينة زيورخ بإعلان الحرب ، ورسم خطة الحملة ، وقاد بنفسه فرق المقاطعة ، وأوقفهم رجل يدعى لانديمان أيبلى الجلا روسى في كايبيل ، التي تقع على بعد عشرة أميال جنوب زيورخ ، وتوسل إليهم أن يمنحوه ، على سبيل الهدنة ، ساعة يتفاوض فيها مع الحلف . وساور زونجلى الشك في أن الأمر ينطوى على خيانة ، وآثر أن يتقدم بجيشه فوراً . إلا أن حلفاءه من أهل برن تغلبوا عليه هم وجنوده ، الذين تآخروا بالفعل مع جنود العدو عبر الحدود الفاصلة بين المقاطعتين زين اللاهوتين ، واستمرت المفاوضات ستة عشر يوماً

وأخيراً رجحت كفة التعقل بين السويسريين ، ووقعت اتفاقية كابل الأولى للسلام (٢٤ يونية ١٥٢٩) وكانت شروط الاتفاقية انتصاراً لزونجلى ، إذ وافقت المقاطعات بموجها على دفع تعويض لزبورخ ، ولإنهاء تحالفها مع النمسا ، وحظر مهاجمة أى من الطرفين للآخر بسبب الفوارق الدينية ، وعلى أن يترك للناس فى « الأراضى المشتركة » التابعة لمقاطعة أو أكثر أن يقرروا بأغلبية الأصوات تنظيم حياتهم الدينية . ومهما يكن من أمر فإن زونجلى لم يرض عن هذا الاتفاق ، فقد طالب بإطلاق حرية البروتستانت فى الرعظ بالمقاطعات الكاثوليكية ، ولم يتلق ما يفيد إجابته إلى طلبه ، وتذبأ بوقوع تصدع قريب للسلام .

واستمرت الاتفاقية سارية المفعول ثمانية وعشرين شهراً ، وفى خلال هذه الفترة القصيرة بذلت محاولة لتوحيد صفوف البروتستانت فى سويسرة وألمانيا . وكان شارل الخامس قد فض نزاعه مع كليمنت السابع ، وأصبح كل منهما وقتذاك حراً فى أن ينضم بقواته لخاربة البروتستانت ، ولكن هؤلاء كانوا يمثلون قوة سياسية عظيمة ، فقد كان نصف سكان ألمانيا من أتباع لوثر ، وكان كثير من المدن الألمانية - أולם وأوجسبورج وفيرتمبيرج وماينز وفرانكفورت - على - الماين وشراسبورج - تتعاطف بشدة مع أتباع زونجلى ، وعلى الرغم من أن المناطق الريفية فى سويسرة كانت تدين بالكاثوليكية ، فإن معظم المدن فيها كانت تدين بالبروتستانتية . وكان من الواضح أن حماية النفس من الإمبراطورية والبابوية قد تطلبت اتحاد البروتستانت ولم يقف فى الطريق إلا اللاهوت .

وأخذ فيليب لاندجراف الهيسى زمام المبادرة بدعوة لوثر وميلانكتون وآخرين من البروتستانت الألمان لمقابلة زونجلى وأويكو لامبيادوس وآخرين من البروتستانت السويسريين فى قصره بماربورج شمالي فرانكفورت . وتقابل الحزبان المتناظران فى ٢٩ سبتمبر سنة ١٥٢٩ ، وأقدم

زونجلى فى سخاء على التسليم ببعض الأمور وأزال ما ساور لوثر من شك فى أنه يتشكك فى ألوهية المسيح ، وقبل العقيدة النيقاوية والمذهب القائل بالخطيئة الأصلية . ولكنه لم يتراجع عن رأيه فى القربان المقدس باعتباره رمزاً وذكرى أكثر منه معجزة . وكتب لوثر بالطباشير على مائدة المؤتمر هذه الكلمات المنسوبة للمسيح : « هذا جسدى » ولم يقبل أن يفسرها إلا تفسيراً حرفياً . ووقع الطرفان اتفاقاً ، تضمن أربعة عشر بنداً ، ولكنهما اختلفا فى موضوع القربان المقدس (٣ أكتوبر) ولم يكن اختلافهما متأسماً بالود ، ورفض لوثر أن يصفح اليد التى مدها إليه زونجلى ، وقال : « إن روحك تختلف عن روحنا » . واستخلص اعترافاً لاهوتياً من سبعة عشر بنداً يشمل « التجاسد » ، وأقنع الأمراء اللوثرين برفض التحالف مع أى جماعة لا توقع على كل البنود السبعة عشر (٢٠) . واتفق ميلانكتون فى الرأى مع أستاذه ، وكتب يقول لقد أبلغنا أتباع زونجلى أننا عجبنا كيف تسمح لهم ضمايرهم بأن ينادونا بأخوتهم فى الوقت الذى يتمسكون فيه بأن عقيدتنا خاطئة (٢١) . وهنا تتضح روح العصر فى جملة واحدة . وفى عام ١٥٣٢ حث لوثر اللدوق البرنخت البروسى على ألا يسمح لأى شخص من أتباع زونجلى بالإقامة فى أرض بلاده ، وإلا حقت عليه اللعنة الأبدية .

وكان كثيراً جداً مطالبة لوثر بأن يجناز فى خطوة واحدة المسافة من العصور الوسطى إلى الحديثة ، فقد كان تأثره بدين القرون الوسطى عميقاً جداً ، إلى حد أنه لم يستطع أن يتحمل صابراً أى جحود لأركانه الأساسية ؛ وأحس ، كأى كاثوليكى متدين ، أن عالمه الفكرى سوف ينهار ، وأن معنى الحياة بأسره سوف ينوى ، إذا خسر أى عنصر أساسى من عناصر العقيدة التى كانت قد صاغته ، والحق أن لوثر كان أقرب المحدثين إلى القرون الوسطى ، وعاد زونجلى بعد أن حطمه هذا الفشل إلى زيورخ ، التى أصبحت تموج بالاضطراب تحت وطأة دكتاتوريته . وعم الاستياء من قوانين النفقات

الصارمة ، وعرقلت التجارة بالاختلافات الدينية بين المقاطعات ، ولم يرض الحرفيون عن صوتهم الضئيل في الحكومة ، وفقدت عضات زونجلى المختلطة بالسياسة إلهامها وسحرها . وكان شعوره بالتغير قوياً إلى الحد الذي طلب فيه من المجلس الإذن له بالبحث عن أبرشية في مكان آخر ، ولكنه أقنع بالبقاء .

وخصص جانباً كبيراً من وقته آنذاك للكتابة ، وأرسل عام ١٥٣٠ رسالته *ratio fidei* إلى شارل الخامس ، الذي لم يبد منه ما يدل على أنه تلقاها .

وفي عام ١٥٣١ وجه إلى فرانسيس الأول رسالة عنوانها « عرض موجز وواضح لعقيدة المسيحية » ، وفي هذه الرسالة عبر عن اقتناعه ، الأرازموس بأن أى مسيحي سوف يجد عند وصوله إلى الفردوس كثيراً من اليهود والوثنيين الأجلاء ، إنه لن يجد آدم وإبراهيم وإسحق وموسى وأشعيا فحسب . . . ولكنه سيجد أيضاً هرقل وتيزيوس وسقراط وأرستيد ونوما وكاميلوس وكاتو الكبير والصغير وسيبيو الكبير والصغير ، وقال : « وباختصار ليس هناك رجل صالح ولا عقل مقدس ولا روح مخلص ، منذ بداية العالم إلى نهايته ، لن تراها هناك مع الله . ماذا يمكن أن نتصور أنه أكثر بهجة للنفس ومسرة الفؤاد وسموا بالروح من هذا المنظر » (٢٢) ، وذعر لوثر لهذه الفقرة إلى حد أنه انتهى إلى أن زونجلى لا بد أن يكون « وثلياً » (٢٣) ، واتفق الأسقف بوسويه في الرأى في هذه المرة مع لوثر ، فاستشهد بهذه الفقرة ليثبت أن زونجلى (٢٤) كافر لا أمل في إصلاحه .

واجتمع في ١٥ مايو عام ١٥٣١ مجلس من زيورخ وحلفائها ، وصوت لإكراه المقاطعات الكاثوليكية على السماح بحرية الوعظ على أرضها ، وعند ما رفضت المقاطعات اقترح زونجلى إعلان الحرب عليها غير أن حلفاءه آثروا أن يفرضوا عليها حصاراً اقتصادياً ، فما كان من المقاطعات الكاثوليكية إلا أن أمسكت عن الواردات وأعلنت الحرب . وسار من جديد

جيشان متناظران ، وتقدم زونجلى مرة أخرى ، وحمل العلم ، وتقابل الجيشان مرة ثانية في كايبيل (١١ أكتوبر سنة ١٥٣١) - جيش الكاثوليك ويضم ٨٠٠٠ رجل وجيش البروتستانت ويضم ١٥٠٠ - واشتبك الجيشان في هذه المرة ، وانتصر الكاثوليك ، وكان زونجلى البالغ من العمر سبعة وأربعين عاماً من بين ٥٠٠ رجل قتلوا من أهل زيورخ . ومزق جسده إلى أربعة أجزاء ، ثم أحرق على محرقة نصبت فوق الروث (٢٥) . وعند ما سمع لوثر بموت زونجلى هتف يقول « إن هذا حكم السماء على كافر (٢٦) وانتصار لنا » (٢٧) ويروى أنه قال : « كم أود من أعماق قلبي لو أمكن إنقاذ حياة زونجلى ولكنى أختشى أن يحدث العكس لأن المسيح قال إنه : « ملعون كل من يكفر به » (٢٨) .

وخلف هينريخ بولينجر في زيورخ سلفه زونجلى ، أما في بازيل فقد اضطلع أوزوالد ميكونيوس بالعبء بعد وفاة أويكو لامبيادوس ، وتجنب بولينجر الخوض في الأمور السياسية ، وأشرف على مدارس المدينة ، وتستر على اللاجئين من البروتستانت ، ووزع أموال البر على المحتاجين ، بغض النظر عن المذهب الذى يعتقونه ، وانضم إلى ميكونيوس وليوجود في صياغة أول إقرار للسويسريين البروتستانت من أتباع زونجلى ، الذى ظل جيلا كاملا التعبير الرسمى عن آراء زونجلى ، واستخلص مع كالفين اتفاق تيجورينوس (١٥٤٩) **Consensus Tigurinus** الذى حمل زيورخ والبروتستانت من أهالى جنيف على تكوين « كنيسة تؤمن بالإصلاح الدينى » .

وعلى الرغم من هذا الاتفاق الوقائى فإن الكاثوليكية استعادت في السنين الأخيرة كثيراً من أرضها المفقودة في سويسرة ، ويرجع جزء من ذلك إلى انتصارها في كايبيل ، وليس من شك في أن إثبات قضايا اللاهوت أو عدم إثباتها في التاريخ إنما يتم بالتنافس في المذبة أو في إثراء الموارد . واعتنقت الكاثوليكية سبع مقاطعات - وهى لوسرن وأورى وشفيتز

وتسرح وأوفر فالدين وفريبورج وسولوثورن . وتمسكت أربع مقاطعات بالبروتستانتية نهائياً . . . وهي زيورخ وبازل وبرن وشلافهاوزن ، أما بقية المقاطعات فقد ظلت تتأرجح بين العميدتين لا يستقر رأيا على قرار على وجه اليقين ، ووفق فالتين تشودى ، خلف زونجلى فى جلاروس ، بين وجهتى النظر ، بأن قال بإقامة قداس فى الصباح للكاثوليك ، وإلقاء عظة حسب تعاليم الكنيسة الإنجيلية - من الكتاب المقدس لا غير - فى المساء للبروتستانت ، وناقش مبدأ التسامح المتبادل بين الطرفين ، وقوبل بالتسامح ، وكتب مدونة تاريخية ، اتسمت بعدم التحيز ، إلى حد أنه لا يستطيع امرؤ أن يجزم بالعقيدة التى كان يؤثرها ، فحتى فى ذلك العصر كان هناك مسحيون .

الفصل التاسع عشر

لوثر وأرازموس

(١٥١٧ - ١٥٣٦)

١ - لوثر

بعد أن أجملنا الظروف الاقتصادية والسياسية والدينية والأخلاقية ، والفكرية ، التي شهدت مهد الإصلاح الديني ، نرى لزاماً علينا أن نعد من عجائب التاريخ في ألمانيا أن يتمكن رجل واحد من أن يجمع ، بلا قصد ، هذه التأثيرات في ثورة ، غيرت صورة قارة . ولسنا في حاجة إلى المبالغة في دور البطل هنا ، ذلك لأن قوى التغيير كان يمكن أن تجد تجسيمياً آخر لها ، إذا استمر لوثر في خضوعه . ومع ذلك فإن منظر هذا الراهب الخشن ، وهو واقف في شك وفزع ، لا يستقر على قرار ، ضده أقوى النظم حصانة ، وأشد العادات قداسة في أوروبا ، يجعل الدم يغلي في العروق ، ويشير مرة أخرى إلى المسافة التي قطعها الإنسان وهو ينحدر من الطين أو من القرد .

ترى كيف بدا ذلك الرجل ، الذي كان صوت عصره المدوي ، كما كان قمة من قمم التاريخ الألماني ؟ لقد كان في عام ١٥٢٦ ، كما صورته لوكاس كراناخ^(١) ، وهو في الثالثة والأربعين من عمره في مرحلة التحول من النحافة إلى البدانة ، صارم القسماة وإن لم يتخل من لمحة مرح قوية ، وله شعر يجعله لا يزال حاللك السواد ، وأنف ضخم ، وعينان سوداوان لامعتان - قال خدسومه إن الشياطين تظهر فيهما للعيان . وكانت له سحنة صريحة

لا تخفى شيئاً جعلته لا يصلح للدبلوماسية . وثمة صورة شخصية رسمها له فيما بعد كراناخ أيضاً (١٥٣٢) ظهر فيها لوثر في هيئة رجل بدين منبسط الأسارير ، له وجه مستدير عريض يجعل الناظر يحكم بأنه رجل يستمتع بالحياة . وتخلّى عام ١٥٢٤ عن مسوح الراهب ، واتخذ لباس واحد من عامة الناس ، فكان يرتدى ثوب المدرس حيناً ، ويلبس سترة وسراويل عادية حيناً آخر ، ولم يتعفف عن ارتق هذه الثياب بنفسه . وقد شكّت زوجته مرة من أن هذا الرجل العظيم اقتطع رقعة من سراويل ولده ، ليصلح بها من شأن سراويله .

ولقد انزلت إلى الزواج بطريق السهو ، واتفق في الرأي مع القديس بولس بأنه خير للمرء أن يتزوج ولا يحرق ، وصرح بأن الجنس أمر فطري وضروري كالطعام^(٢) ، واحتفظ بالفكرة السائدة في القرون الوسطى ، والتي تذهب إلى أن الجماع أمر آثم ، حتى في الزواج ، ولكن «الله يستر الخطيئة»^(٣) ، وندد بالعنزة باعتبارها انتهاكاً لسنة الله التي تفضى بالتناسل والتكاثر . وإذا «لم يستطع واعظ بالإنجيل أن يعيش محتفظاً بعفته دون أن يتزوج ، فلنسمح له باتخاذ زوجة ، لأن الله خلقها بلسماً لذلك الجرح»^(٤) . وكان يعد طريقة البشر في التناسل منافية للعقل بعض الشيء ، على الأقل عند تأمل الماضي ، ورأى أنه «لو استشارني الله في الأمر لأشرت عليه بأن يستمر في خلق جيل من البشر بتشكيلهم من الطين مباشرة كما خلق آدم»^(٥) . وكان مفهومه عن المرأة تقليدياً وألمانياً ، فالله قد خلقها للحمل والطهي والصلاة لا لأي شيء آخر ، وهو القائل «انتزع النساء من تدبير شئون المنزل ، تجدهن لا يصلحن لشيء»^(٦) . و«إذا أنهك الحمل النساء ، ولقين حتفهن ، فليس في هذا ضرر ، دغهن يلاقين حتفهن ما دمن يحملن ، فقد خلقن لهذا»^(٧) . ويجب على المرأة أن تمنح زوجها الحب ، وأن تحافظ على شرفه ، ولا تعصى له أمراً ، وعليه أن يحكمها ، ولكن برفق ، ويجب عليها أن تلتزم

مجالها وهو البيت ، ولكنها تستطيع هناك أن تفعل بالأطفال بينما أكثر مما يستطيع الرجل أن يفعل بقبضتيه^(٩) . وبين الرجل والزوجة يجب ألا يكون هناك ملكى وملكك ، وذلك لأن كل الممتلكات يجب أن تكون بينهما على المشاع^(١٠) .

وكان لوثر يكنّ كراهية الذكر العادية للمرأة المتعلمة ، وقال عن زوجته « بودى أن تتلو النساء صلاة الرب قبل أن ينهسن بشفة »^(١٠) ، ولكنه ازدرى الكتاب الذين ألفوا مقالات في هجو النساء ، وقال : « مهما يكن في النساء من عيوب فإننا يجب أن نردعهن في الخلوة برفق . . . لأن المرأة قارورة هشّة »^(١١) . وعلى الرغم من صراحته الفظة في أمور الجنس والزواج ، فإنه لم يكن يخلو من الإحساس بالاعتبارات الجمالية ، ويقول : « الشعر أجل زينة للمرأة . وقد اعتادت العذارى قديماً أن يرسلن شعورهن ، إلا إذا كن يرتدين ثياب الحداد ، وأنا أحب أن ترسل النساء شعورهن حتى يستقط على ظهورهن ، فهو منظر من أروع المناظر وألطفها »^(١٢) . (وكان هذا حرياً بأن يجعله أكثر ليناً مع البابا اسكندر السادس الذى عشق شعر جوليا فارنيزى المرسل) .

ويبدو أن لوثر لم يتزوج لإشباع حاجة من حاجات الجسد . وقال في نوبة من المرح ، إنه قد تزوج لإرضاء والده ، وعلى الرغم من أنف الشيطان والبابا ، ولكنه استغرق وقتاً طويلاً لكي يستقر على رأى في هذا الموضوع ، ثم حسم الأمر له . وعند ما تركت بعض الراهبات ديرهن بناء على توصية منه ، أخذ على عاتقه أن يجد لهن أزواجاً . ولم يبق في آخر الأمر منهن واحدة لم تتزوج ، إلا كاترين فون بورا ، وهى امرأة كريمة المحتد على خلق قويم ، ولكنها لم تخلق لتثير عاطفة متعجلة ، وكانت قد وضعت أنظارها على طالب شاب من فيتنبرج ، ينحدر من سلالة نبيلة ، وفشلت في أن توقعه في حبالها ، وعملت مربية لكي تكسب ما يسد رمقها . واقترح عليها

لوثر أن تزوج من الدكتور جلالتز ، فردت عليه بأنها لا تقبل هذا الدكتور ، ولكن ليس لديها مانع من الزواج من هرامسدورف أو الدكتور لوثر . وكان لوثر في الثانية والأربعين من عمره وقتذاك ، بينما كانت كاترين في السادسة والعشرين ، ورأى أن التفاوت في السن يجرم عليه هذا الزواج ، غير أن أباه حثه على أن يحافظ على اسم الأسرة ، وهكذا تزوج الراهب السابق في ٢٧ يونية سنة ١٥٢٥ من الراهبة السابقة .

ومنحهما الأمير المختار الدير الأوغسطيني الكئي . منه مقررًا لهما ، ورفع مرتب لوثر إلى ٣٠٠ جيلد (٧,٥٠٠ دولار) في العام ، ثم زيد هذا المرتب فيما بعد إلى ٤٠٠ ، ثم إلى ٥٠٠ . واشترى لوثر مزرعة أدارتها كاتى ، وأحببها وأنجبت له ستة أطفال ، وتعهدهم بالرعاية في إخلاص ، ولبت كل احتياجات مارتن المنزلية من معصرة للخمر بالبيت ، وبركة للسماك ، وحديقة للخضر ، وربت له اندواجن والخنازير . وقد أطلق عليها اسم « سيدى كاتى » وأشار بهذا إلى أن في وسعها أن تضعه في موضعه إذا ما نسى خضوع الرجل بيولوجيا للمرأة ، ومع ذلك فقد كان عليها أن تتحمل الكثير من ثوراته العاصفة بين آن وآخر ، وثقته التي تصل إلى حد عدم التبصر ، وذلك لأنه كان لا يعبأ قط بالمال ، وكان كريماً إلى حد التهور ، ولم يتسلم من كتبه حقوق التأليف ، على الرغم من أنها عادت بثروة طائلة على ناشرها ، وتميط رسائله إلى كاترين أو عنها اللثام عن حبه المتزايد لها ، وعن زواج موفق بصفة عامة . ولقد ردد بطريقته الخاصة ما قيل له في شبابه « إن أعظم نعمة يمنحها الله للإنسان زوجة تقيه رقيقة ، تخشى الله وتحب البيت » (١٣) .

وكان أباً صالحاً يعرف بالفطرة كيف يمزج على أحسن وجه بين التأديب والحب . ويقول : « عاقب إذا لم يكن هناك بد من ذلك ولكن قدم قطعة الحلوى (بونبون) مع العصا » (١٤) . وألف أغنيات لأطفاله ، وغناها معهم ، وهو يعزف على العود ، وتعد خطاباته إلى أطفاله من درر الأدب الألماني .

وإذا كان قد استطاع بقوة شكيمته أن يواجه إمبراطوراً في الحرب ، فإن شجاعته قد أنهارت بموت ابنته الأثيرة ماجدالينا ، وهى فى الرابعة عشرة من عمرها ، وقال : « إن الرب لم يهب أسقفاً نعمة كبرى فى ألف عام كما وهبها لى ممثلة فيها » (١٥) . وكان يتلو الصلوات ليلاً ونهاراً ، طالباً لها من الله الشفاء ، وقال : « رباه لى أحبها كثيراً ، ولكن إذا شاءت إرادتك تعالى أن تأخذها ، فإنى أتخلى عنها لكم عن طيب خاطر » (١٦) . وقال لها : « ابنتى الصغيرة العزيزة لينا ، لى لك تحيين أن تظلى هنا مع أبىك . أترىدين أن تذهبي لى ذلك الأب الآخر ؟ » . فأجابت لينا : « نعم يا أبته كما يشاء الله » . وعند ما قضت نحبها بكهاها طويلاً بكاء مريراً ، وبينما كانت توسد فى الثرى ، خاطبها قائلاً كما لو كانت حية ترزق : « أنت تحيين وسوف تنهضين وتشرقين كالنجوم والشمس . إنه لأمر غريب أن يعرف الإنسان أنها ترقد فى سلام ، وأن كل شىء على ما يرام ، ومع ذلك يشعر بالأسى والحزن » (١٧) .

ولم يقنع بستة أطفال فأوى فى بيته كثير الغرف بالدير أحد عشر يتيماً من أولاد أخيه وأخته ، ورباهم ، وكثيراً ما جلس معهم لى المائدة ، وتجاذب معهم أطراف الحديث فى غير ملل ، وحزنت كاترين لاحتكارهم لياه . وأبدى بعضهم ملاحظات جريئة على حديثه معهم حول المائدة . وليس من شك فى أن حصيلة ٦٥٩٦ تدوين لأحاديثه تضارع أحاديث جونسون لبوزويل ، وأحاديث نابليون المدونة ، فى الوزن والذكاء اللماح والحكمة .

ويجب علينا عند الحكم على لوثر ، أن نتذكر أنه لم يعد سلفاً أحاديث المائدة هذه ، وقل بين الرجال من تعرض تماماً لى استراق السمع من البشر ، فهنا لا فى المحادلات التى كانت فى ميدان المعركة اللاهوتية ، نجد لوثر فى بيته على سجيته . وندرك ، أولاً وقبل كل شىء ، أنه كان إنساناً لا مجرد

دواة ، وأنه عاش حياته وكتب عنها . ولا يمكن شخص صحيح الجسم أن ينفس على لوثر تلذذه بأطيب الطعام وشراب الجعة ، أو استمتاعه المشمر بكل المباح ، التي استطاعت كاترين بورا أن توفرها له . ولعله كان حرياً به أن يكون ، بدافع الحرص ، أكثر تحفظاً في هذه الأمور ، ولكن التحفظ جاء مع المتطهرين ، ولم يعرفه الإيطاليون في عصر النهضة ، ولا الألمان في عهد الإصلاح الديني ، بل إننا نجد أن أرازموس الرقيق يصد منا بجديته الفسيولوجي الصادق . كان لوثر يأكل بإفراط ، ولكنه استطاع ردع نفسه بالصوم الطويل ، وكان يفرض في الشراب ، ولكنه كان يبدي الأسف ، ويعمل الشرب رذيلة قومية ، ومع ذلك فإن الجعة كانت ماء الحياة بالنسبة للألمان ، كالكالينيد بالنسبة للإيطاليين والفرنسيين ، وكان يمكن أن يكون الماء سما زعافاً في تلك الأيام الخوالي ، ومع ذلك فإننا لم نسمع قط عن إفراطه في السكر حتى يفقد صوابه ، وقال : « إذا كان الله يغفر لي أني صلبته بالقداسات عشرين عاماً مضت ، فإنه يستطيع أن يتحملني لأنني أتناول شراباً طيب المذاق ، من آن لآخر ، لكي أكرمه » (١٨) .

وبدت أخطاؤه واضحة للعين والأذن ، فقد كان الفخر يشيع وسط تعبيراته الدائمة عن التواضع ، وكان عقيدياً ضد العقيدة ، مفرطاً في الحماسة لا يبدي أية مجاملة لخصومه ، ويتشبهت بالخرافات ، في الوقت الذي يسخر فيه من الخرافة ، ويندد بالتعصب ويمارسه في الوقت نفسه — وهكذا لم يكن قدوة للصلاة أو مثلاً أعلى للفضيلة ، ولكنه رجل جمع متناقضات الحياة ، وإنسان مزقه بارود الحرب ، وقد اعترف قائلاً « لم أكن أتوانى عن الانقضاض على خصومي بلسان حاد ، ولكن ما فائدة الملح إذا لم يكن لاذع الطعم ؟ » (١٩) وتحدث عن المراسيم البابوية ، فوصفها بأنها قذارة وروث (٢٠) ، وقال عن البابا إنه : « بذرة الشيطان » أو الملازم ، ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، أما الأساقفة فقد نعتم بأنهم « ديدان » وهراطقة كفر « وقردة جهلة » . وتحدث عن الرسامة الكهنوتية فقال إنها بمثابة دمع إنسان « بشارة

البهيم في سفر الرؤيا » ، وقال عن الرهبان إنهم أسوأ من الجلادين أو السفاحين أو على أحسن الفروض « براغيث فوق فراء الرب القادر » (٢١) . ولنا أن نتصور إلى أى حد كان المستمعون إليه يجدون متعة في هذا العبث . وقد قال : « إن الجزء الوحيد من جسم الإنسان الذى اضطرب البابا إلى إعفائه من رقابته هو العَجْزُ ! » (٢٢) وكتب يصور رجال الدين الكاثوليك بقوله : « إن نهر الراين لا يكاد يتسع لكى يغرق فيه كل عصابة المغتصبين الرومانيين الملاحين . . . من كرادلة ومطارنة وأساقفة ورهبان » (٢٣) أو إذا نقص الماء « لعل الله يرضى بأن يرسل عليهم صيداً من النار والكبريت كالذى قضى على سودوم وعمورة » (٢٤) ، وهذا يذكر الإنسان بالتعليق الذى صدر من الإمبراطور جوليان : « ليس هناك حيوان مفترس أشد ضراوة من عالم لاهوت ذاضب » (٢٥) . ولكن لوثر عجب مثل كلايف لا عند الله ، وقال : « يعتقد الكثيرون أنى شديده الشراسة ضد البابوية ، ولكنى على النقيض من ذلك أشكو من أننى ، الأسف لىن العريكة إلى حد كبير . وكم أود أن أنفث صاعقة ضد البابا والبابوية ، وأن تكون كل ریح صاعقة » (٢٦) : ولسوف ألعن وأنهر الأفاقين حتى أتوى فى لحدى ، ولن ينالوا منى كلمة مهذبة . . . لأنى لا أستطيع أن أصلى دون أن أصب اللعنات فى الوقت نفسه . وإذا كنت مدفوعاً إلى أن أهتف « تبارك اسمك » فلأنى يجب أن أضيف أن « اسم البابوية ملعون رجيم مخصوب عليه » . وإذا كان ثمة ما يدفعنى إلى أن أهتف « لتأت مملكته » فلأنى مضطر إلى أن أضيف « البابوية ملعونة ، رجيمة ، هالكة لا محالة . والحق أنى أتلو صلواتى سنوياً على هذا النحو كل يوم وسراً فى قلبى دون توقف » (٢٧) ، وإنى لا أعمل أبداً على خير وجه إلا عند ما أستلهم الغضب ، ذلك أنى أستطيع ، عند ما أكون غاضباً ، أن أكتب ، وأن أصلى ، وأن أعظ على خير وجه ، لأن مزاجى بأسره يستثار ، وإدراكى يزداد حدة » (٢٨) ، ومثل هذه العاطفة البلاغية كانت تتفق مع روح العصر . ويعترف الكاردينال جاسكيه العلامة قائلاً : إن بعض الوعاظ وكتاب الرسائل من طائفة المعافطين كانوا

يضارعون لوثر في هذه الناحية» (٢٩) . وكان الطعن متوقفاً من المتصارعين في مجال الفكر ، ويستطيعه المستمعون ، وكان الشك يخامر الناس في أن الأخلاق المهدبة دليل على الجبن . وعند ما وجهت زوجة لوثر اللوم إليه بقولها : « أنت فظ للغاية يا زوجي العزيز » - رد عليها مجيباً : « إن الغصن يمكن قطعه بسكين الخبز أما شجرة البلوط فتستلزم الفأس » (٣٠) وإن جواباً ليناً يمكن أن يطوىء سورة الغضب ، ولكنه لا يستطيع أن يقبل البابوية رأساً على عقب ، وحرى بأى إنسان هذب حاشيته الكلام الدمث ، أن يتككب معركة مميته مثل هذه . وقد اقتضى الأمر بجلداً صفيقاً - أغلظ من جلد أرازموس - لنهذ الأوامر البابوية والحرمان من غفران الكنيسة وأوامر التحريم الإمبراطورية .

واقضى الأمر أيضاً إرادة قوية ، وهذه كانت صخرة القاع بالنسبة إلى لوثر ، ومن هنا كانت ثقته بنفسه وعقيدته وشجاعته وتعصبه . ومع ذلك فإنه كان لا يخلو من بعض الفضائل الرقيقة ، ففي أواسط عمره كان مثلاً أعلى في الروح الاجتماعية والمرح ، ودعامة قوية لكل من هم في حاجة إلى العزاء أو العون . ولم يشمخ بأنفه أو يتأنتق في ملبسه ، ولم ينس قط أن أباه كان فلاحاً ، واستهجن نشر مجموعة أعماله ، وطلب من قرائه أن يدرسوا الكتاب المقدس بدلاً منها ، واعترض على إطلاق اسم « لوثرية » على الكنائس التي كانت تتبع زعامته . وعند ما كان يعظ كان يحدث سامعيه باللغة التي يفهمونها . وكان ادعابته مسحة ريفية إذ كانت خشنة مريحة متحللة من كل القيود ، مثل دعابات « رايبليه » ، وقال شاكياً : « إن أعدائي يفحصون عن كتب كل ما أفعل ، فإذا شرطت في فيتنبرج فلنهم يشمون ريح الضرطة في روما » (٣١) . وقال : « ترتدى النساء النقاب بسبب الملائكة ، أما أنا فأرتدى السراويل بسبب البنات » (٣٢) . وليس من شك في أن الكثيرين منا قد أطلقوا مثل هذه الدعابات الساخرة ، ولكنهم

لم يجدوا مثل هؤلاء الرواة القساة . والرجل الذى تغوه بمثل هذه الدعايات كان يحب الموسيقى وهى هذا الجانب من عبادة الأوثان ؛ وهو نفسه الذى ألف لهم أناشيد رقيقة أو عاصفة ، وأسلمها - وفى هذا تحامل لاهوتى كان راكداً لحظة من الزمن - إلى أناشيد متعددة الأصوات ، استخدمت من قبل فى الكنيسة الرومانية ، وقال : « لن أنخلى عن موهبتى الموسيقية المتواضعة مقابل أى شىء مهما كان عظيماً . . . وأنا أرى أنه . . . ليس هناك فن بعد اللاهوت يمكن أن يضارع الموسيقى ، لأنها وحدها بعد اللاهوت تمنحنا . . . راحة القلب ومسرة الفؤاد » (٣٣) .

وأدى به لاهوته إلى أخلاقيات تؤمن بالدين ، لأنه علمه أن الأعمال الصالحة لا تكسب صاحبها الخلاص إذا لم تقترن بالإيمان بافتداء المسيح للناس ، كما أن الخطيئة لا يمكن أن تضيع الخلاص ، إذا بقى مثل هذا الإيمان . وكان يرى أن خطيئة ترتكب بين آن وآخر ، قد تشجعنا على اجتياز الصراط المستقيم . وعند ما سئم رؤية جسد ميلانكتون وهو يذوى من أثر الوسواس الكثيبي حول زلات صغيرة تتعارض مع القداسة ، قال له مداعباً فى مرح أصيل : « أكثر من الخطايا ، فالله لا يغفر إلا لرجل غارق فى الخطايا إلى أذنيه » ، ولكنه يسخر من المقتى المصاب بفقر الدم (٣٤) ومع ذلك فإن من السخف أن نصدر حكماً على لوثر بالإدانة على أساس هذا المزاج العارض . وثمة أمر واضح فى جلاء وهو أن لوثر لم يكن متطهراً وهو يقول : « إن مشيئة الله الحبيب هى أن نأكل ونشرب ونمرح » (٣٥) . ويقول : « إنى أنشد المتعة وأقبلها حينما أجدها ونحن نعلم الآن ، والله الحمد ، أننا نستطيع أن نكون سعداء وضمائرنا مرتاحة » (٣٦) . ونصح أتباعه بأن يحتفلوا ويرقصوا يوم الأحد . وأقر ألعاب التسلية ولعب الشطرنج ، ووصف اللهو بورق اللعب ، بأنه تحويل لا ضرر منه للعقول (٣٧) ، التى لم تنضج بعد ، وقال كلمة حكيمة عن الرقص : « إن الرقصات أعدت لكى تعلم الدمثة بين

الصحية ، وتعقد الصداقة والتعارف بين الشبان والفتيات ، وهنا يمكن ملاحظة صلاتهم ، وترتيب لقاء شريف عابر بينهم ، وأنا نفسي لا مانع عندي من حضوري معهم في بعض الأحيان ، ولكن الشباب سيكون أقل إمعاناً في الرقص لو أنني فعلت» (٣٨) . وأراد بعض الوعاظ البروتستانت تحريم اللهو ، ولكن لوثر كان أكثر تسامحاً وقال : «يجب على المسيحيين ألا يعرضوا عن اللهو ، لأن فيه أحياناً فظاظة وفحشاً ، فما أحراهم ، من أجل هذه الأسباب نفسها ، أن يتخلوا أيضاً عن الكتاب المقدس» (٣٩) .

فاذا نظرنا لكل هذه الاعتبارات ، فإن مفهوم لوثر عن الحياة كان صحيحاً باعتماداً على المرح ، إلى درجة ملحوظة لإنسان كان يعتقد أن «كل النوازع الفزارية ليست بعيدة عن الرب أو ضده» (٤٠) ، «وأن كل تسعة أرواح من عشرة قد عليها الله أن تخلد في الجحيم» (٤١) . والحق أن الرجل كان خيراً من لاهوته إلى حد كبير .

وكان عقله قوياً ، وإن غامت عليه إلى حد بعيد روائح عنف شبابه ، وصبغته الحرب باللون الأحمر ، فحالت بينه وبين التفكير في فلسفة عقلانية . وكان يعتقد ، مثل معاصريه ، في الغيلان والساحرات والشياطين ، وقدرة الضفادع (٤٢) البرية الحية على الشفاء ، والكوابيس الخبيثة ، التي تبحث عن العذارى في حماماتهن أو في مخادعهن ، وتفزعهن ويدفعنهن إلى الأمومة (٤٣) . ويخر من التنجيم ، واستخدم مع ذلك في حديثه اصطلاحاته أحياناً ، وامتدح الرياضيات ، من حيث أنها «تعتمد على الأدلة والبراهين الثابتة» (٤٤) ، «وأعجب بما توصل إليه الفلك في جرأة في مجال النجوم ، ولكنه ، شأنه في هذا شأن جميع معاصريه ، رفض النظام الكوبرنيقي في الفلك ، باعتباره مناقضاً لاكتاب المقدس ، وأصر على أن العقل يجب أن يلزم الحدود التي وضعتها له العقيدة الدينية .

وليس من شك في أنه كان محقاً في حكمه الذي يذهب إلى أن الشعور ،

وليس الفكر ، هو عصا الميزان بالنسبة للتاريخ ، فالناس الذين يصوغون الأديان يحركون العالم ، أما الفلاسفة فإنهم ، جيلاً بعد جيل ، يغلفون بعبارات جديدة الجهل الفائق للجزء ينصب نفسه حبراً على الكل . وعلى هذا فإن لوثر كان يصلي ، بينما كان أرازاموس يفكر تفكيراً منطقياً . وبينما كان أرازاموس يتملق الأمراء ، كان لوثر يخاطب الرب - وقتذاك في كبرياء امرئ ، خاض بعزم ، معارك في سبيل الرب ، فأصبح له الحق في أن يسمع وقتذاك كطفل ضل في فضاء لا نهاية له ، وكان واثقاً أن الرب يقف في جانبه ، فواجه عقبات يصعب التغلب عليها وانتصر . وقال : « إنى أحتمل حقد العالم بأسره ، ومقت الإمبراطور والبابا وكل بطانتهم . حسن ، باسم الرب إلى الأمام ! »^(٤٥) وكان لديه من الشجاعة ما يكفي لأن يتحدى أعداءه ، فلم يكن يدور بخلده ما يدفعه للشك في صدقه . كان يعتقد أن عليه أن يفعل ما ينبغي عليه أن يفعل .

٢ - الهراطقة المتعصبون

من المفيد ملاحظة كيف انتقل لوثر من التسامح إلى العقيدة بازدياد قوته وبقينه . ومن بين « الأخطاء » ، التي اتهم بها البابا ليو العاشر في منشوره **Exsurge Domine** لوثر ، أنه قال : « إن حرق الهراطقة مخالف لإرادة الروح القدس » وفي خطاب مفتوح إلى طبقة النبلاء المسيحيين (١٥٢٠) نصب لوثر « كل رجل قساً » ، وأعطاه الحق في أن يفسر الكتاب المقدس ، وفق حكمه الخاص ، وفي ضوء فهمه الشخصي^(٤٦) ، وأضاف قائلاً : « يجب أن نقهر الهراطقة بالكتب لا بالإحراق »^(٤٧) وفي مقال له بعنوان عن السلطة الزمنية (١٥٢٢) كتب يقول : -

إن الله هو المتصرف في الروح وإن يسمح لأحد سواه أن يسيطر عليها . ونحن نود أن نجعل هذا واضحاً جلياً ، بحيث يفهمه كل إنسان ، ولكي يرى نبلاؤنا وأمرأونا وأساقفتنا إلى أي حد تبلغ حماقتهم ، عندما ينشدون

لإكراه الناس . . . على الإيمان بشيء أو بآخر . . . لأن الإيمان أو الكفر مسألة ترجع إلى ضمير كل إنسان . . . إن السلطة الزمنية يجب أن تقنع بالالتفات إلى شئونها الخاصة ، وأن تسمح للناس بأن يؤمنوا بشيء أو بآخر حسبما يستطيعون ، وكما يشاءون ، وألا تكره أحداً على شيء بالقوة ، لأن الإيمان عمل يتم بحرية ولا يكره عليه أحد . . . والإيمان والمهرطقة لا يشتدان إلا عند ما يعارضهما الناس بالقوة الغشوم ، بلا سند من كلمة الله (٤٨) .

وفي خطاب بعث به لوثر إلى الأمير المختار فردريك (٢١ أبريل سنة ١٥٢٤) طلب منه التسامح مع منسرف وآخر من أعدائه . وقال له : « يجب ألا تمنعهما من الكلام : يجب أن تكون هناك طوائف ويجب أن تتعرض كلمة الله لمعركة . . . دعنا نترك بين يديه تعالى الصراع ، ونطلق الحرية لصدام العقول » . وبينما كان الآخرون يدافعون . وفي عام ١٥٢٨ عند ما كان الآخرون يدافعون عن عقوبة الإعدام للمعمدانين أشار بأنه ما لم يثبت عليهم الشغب فإنه يجب أن يكتفى بنفهم (٤٩) .

وعلاوة على هذا فإنه أوصى في عام ١٥٣٠ بأن تخفف العقوبة على جريمة الكفر من الإعدام إلى النفي . حقاً أنه تحدث في هذه السنوات الحرة كما لو كان يتمنى من أتباعه ومن الله أن يفرقوا البابويين جميعاً ، أو يتخلصوا منهم . بيد أن هذا كان مجرد « حملة خطابية » ، لم يكن يقصدها بصفة جدية . ولقد كتب في يناير عام ١٥٢١ : « لست أريد أن يدافع أحد عن الإنجيل بالعنف أو القتل » ، وفي شهر يونية من ذلك العام وجه اللوم للطلبة في أرفورت ، لأنهم هاجموا القساوسة ، ومهما يكن من أمر فإنه لم يعارض في « تخويلهم » قليلاً لتحسين لاهوتهم (٥٠) . وفي مايو عام ١٥٢٩ أذاع خطأ ، أعدت لتحويل الأبرشيات الكاثوليكية عنوة إلى البروتستانتية ، وفي أواخر عام ١٥٣١ أخذ يلحق الناس « نحن لا نستطيع ولا يجب أن نكره أى إنسان على اعتناق العقيدة » (٥١) .

ولكن من الصعب على رجل يمتاز بخلق متين وإيجابي مثل لوثر أن يدافع عن التسامح ، بعد أن أصبح مركزه آمناً إلى حد ما . فرجل مثله ، على يقين من أنه يحمل كلمة الله ، لم يكن بوسعها أن يتسامح فيما يتناقض معها . وكان التحول إلى التعصب أسهل فيما يختص باليهود . فحتى عام ١٥٣٧ كان لوثر يرى ، أن من الواجب أن يغتفر لهم احتفاظهم بعقيدتهم الخاصة ، « ما دام الأغنياء من بابواتنا وأساقفتنا والسوفسطائين من فلاسفتنا ورهباننا ، هؤلاء الأجلاف الحمقى ، تعاملوا مع اليهود ، بأسلوب يدفع أى مسيحي إلى أن يفضل أن يكون يهودياً . والحق أنى لو كنت يهودياً ، ورأيت مثل هؤلاء المعتوهين والحمقى يشرحون معنى المسيحية ، لآثرت أن أكون خنزيراً لا مسيحياً . . . وأنا أود أن أنصح كل امرئ ، وأرجوه أن يعامل اليهود برفق ، وأن يفقههم الكتاب المقدس ، وبوسعي أن أتوقع في هذه الحالة أن يجيئوا إلينا زرافات ووحدانا » (٥٢) . ولعل لوثر قد أدرك أن البروتستانتية كانت في بعض مظاهرها عودة إلى الدين اليهودي ، وذلك في رفضها للرهبانية والعزوبة المفروضة ، على رجال الكهنوت ، وتشديدها على العهد القديم والأنبياء والمزامير ، وتبنيها (باستثناء لوثر نفسه) لأخلاقيات جنسية أشد صرامة مما تتطلبه الكاثوليكية . وقد خاب أمله عند ما لم يتم اليهود بحركة مماثلة نحو البروتستانتية ، وساعده عداؤه لتقاضى فائدة على أن يتقلب ضد مقرضى الأموال من اليهود ، ثم ضد اليهود بصفة عامة ، وعند ما نفي جون الأمير المختار اليهود من ساكسونيا (١٥٣٧) ، رفض لوثر التماساً يهودياً للتوسط في الأمر . وفي كتابه حديث المائدة جمع بين « اليهود والبابويين » ووصفهم بأنهم تعساء كفرة . . . « وأن الطائفتين جوربان صنعا من قطعة قماش واحدة » (٥٣) . واشتغرق في سنواته الأخيرة في نوبة غضب جامح ضد السامية ، وندد باليهود ، ووصفهم بأنهم « أمة من أناس غلاظ كفرة متكبرين خبيثاء ممقوتين » وطالب بإشعال النار في مدارسهم وهياكلهم حتى تتقوض دعائمها ، وقال : -

ودعوا كل من يستطيع أن يلتقى عليهم كبريتاً وزفتاً ، وإذا كان في وسع أحد أن يقذفهم بوابل من نار جهنم ، فإنه يحسن صنعاً لو فعل هذا . . . وهذا ما يجب عمله كرامة لربنا وللمسيحية ، حتى يرى الله أننا مسيحيون حقاً . ولتخطم بيوتهم وتدمر أيضاً . . . ولتنزع منهم كتب صلواتهم وتلمودهم وكتابهم المقدس بأسره أيضاً ، وليحرم على حاخاماتهم أن يلقنوا الناس تعاليمهم بعد ذلك من الآن فصاعداً ، وإلا عوقبوا بالإعدام ، ولتغلق في وجوههم الشوارع والطرق العامة ، وليحرم عليهم الاشتغال بالربا ، ولتؤخذ منهم كل أموالهم وكل ما يكتزون من الذهب والفضة ، ولتوضع في الحفظ والصون . وإذا لم يكف هذا كله فليطردوا من البلاد كما لو كانوا كلاباً مسعورة (٥٤) .

ولم يحدث قط أن غلبت الشيخوخة على لوثر ، ففي عام ١٥٢٢ كان لا يزال متحدياً للباباوات وكتب يقول : « إنى لا أقبل أن يحكم على عقيدتى أحد حتى لو كان من الملائكة ، وكل آمن لا يتلقى عقيدتى بالقبول ان يستطيع الخلاص » (٥٥) . وما أن حل عام ١٥٢٩ حتى استخلص فروقاً دقيقة بين العقيدتين ، وقال : -

« لا يجوز إكراه إنسان على اعتناق عقيدة ، ولكن ليس لأحد أن ياجح بها ضرراً . فليقدم خصومنا ما لديهم من اعتراضات ، وليستمعوا إلى ردودنا ، فإذا ما اهدتوا فيها ونعمت ، وإذا لم يفعلوا فليمسكوا ألسنتهم ويؤمنوا بما يشاءون . . . ولكى نتجنب المتاعب يجب ، إذا أمكن ، ألا نعاني من التعاليم المتناقضة في نفس الولاية ، ويجب أن يكره الجميع بما فيهم الكفار على الامتثال للوصايا العشر وحضور الصلاة في الكنيسة ، والتلازم معها في ظاهر السلوك (٥٦) .

وهكذا اتفق لوثر وقتذاك مع الكنيسة الكاثوليكية في أن المسيحيين في حاجة إلى يقين ثابت ومذاهب محددة ، وإلى كلمة الله الحق ، التي

يستطيعون أن يجيئوا بها ويموتوا عليها ، ولما كانت الكنيسة في القرون الأولى من المسيحية قد انقسمت وضعت بكثرة الطوائف الجاحمة ، فقد أحست بأنها مضطرة إلى تحديد عقيدتها ، وإقصاء كل المخالفين لها ، ولهذا فإن لوثر ، وقد راعه وقتذاك تنوع الطوائف المتنازعة ، التي نبتت من بذرة الحكم الخاص ، انتقل خطوة خطوة من التسامح إلى التعصب المذهبي ، وقال شاكيًا : -

« إن كل الناس الآن يتأهبون لانتقاد الإنجيل ، فكل أحمق مأفون تقريباً أو كل سوفسطائي مهرف ، يجب أن يكون ، حقاً ، دكتوراً في اللاهوت » . وآلمه ما وجهه إليه الكاثوليك من نقد جارح بأنه أطلق عقول فوضى ، لا تجد من يكبح جماحها ، في العقائد والأخلاقيات ، وانتهى في الرأي مع الكنيسة إلى أن النظام الاجتماعي في حاجة إلى شيء من حسم المناقشة ، وشيء من السلطة المنظمة ، ليخدمها باعتبارها مرساة للعقيدة « فكيف يجب أن تكون هذه السلطة ؟ على هذا السؤال أجابت الكنيسة بأن هذه السلطة هي الكنيسة نفسها لأن الكائن الحي وحده هو القادر على تعديل نفسه وكتبه المقدسة إلى صورة مغايرة لا مفر منها ، وقال لوثر : « لا ، إن السلطة الوحيدة والأخيرة يجب أن تكون الكتاب المقدس ، ما دام الجميع يسلمون بأنه كلمة الله .

وفي الإصحاح الثالث عشر من سفر التثنية من هذا الكتاب المنزه عن الخطأ وجد أمراً صريحاً يزعمون أنه صدر من فم الرب ، وهو يقضى بإعدام المراطقة : « إياك أن تشفق عينك عليه وإياك أن تحقيه » . حتى لو كان « أخاك أو ابنك أو زوجتك في حضنك . . . ولكنك يجب أن تقتله لا محالة ، ويجب أن تكون يدك هي أول يد تنفذ فيه حكم الإعدام » . وعلى أساس تلك الرخصة الرهيبة ، تصرفت الكنيسة في إبادة طائفة الإلبيجنس في القرن الثالث عشر ، وكانت تلك اللعنة الإلهية بمثابة شهادة معتمدة لما

قامت به محاكم التفتيش من إحراق . وعلى الرغم مما اتسم به حديث لوثر من عنف ، فإنه لم يصل قط إلى درجة القسوة التي عاملت بها الكنيسة من يخالفونها في الرأي ، ولكنه سار قدماً في نطاق وحدود سلطته ، لإقحامها سلمياً بقدر ما استطاع . وفي عام ١٥٢٥ استعان بلوائح موجودة خاصة بالرقابة في ساكسونيا وبراندنبرج لسحق « العقائد الخبيثة » التي يعتنقها اللامعمدانيون وأنصار زونجلى ، وفي عام ١٥٣٠ نصح ، في تفسيره للمزمور الثاني والثمانين ، الحكومات بإعدام كل الهرطقة ، الذين ينادون في عظاتهم بإثارة الشعب ، أو مناهضة الملكية الخاصة ، وقال : « إن هؤلاء الذين يعارضون في تعاليم مادة واضحة في العقيدة . . . مثل المواد التي يحفظها الأطفال عن العقيدة ، كالمادة التي تقول « إذا نادى أى واحد في تعاليمه بأن المسيح ليس إلهاً بل مجرد إنسان » (٦٠) . ورأى سباستيان فرانك أن هناك حرية في التعبير عن الرأي والعقيدة بين الأتراك أكثر مما يوجد في الولايات اللوثرية ، وانضم ليوجد من أنصار زونجلى إلى كارلشتادت في وصف لوثر بأنه بابا آخر . ومهما يكن من أمر فإننا يجب أن نلاحظ أن لوثر عاد إلى سابق شعوره بالتسامح في أخريات أيام حياته . ولقد نصح في آخر عظة له بالتخلي عن كل المحاولات للقضاء على الهرطقة عنوة ، وقال : يجب تحمل الكاثوليكية واللامعمدانيين في صبر حتى يوم القيامة ، عند ما يتولى أمرهم المسيح » (٦١) .

وقد ضارع مصلحون دينيون آخرون لوثرأ ، وفاقوه في مطاردة الهرطقة فقد حث بوسر الستراسبورجى السلطات المدنية في الولايات البروتستانتية على إبادة كل من يعتنق ديناً « زائفاً » ، وقال : إن مثل هؤلاء الناس أسوأ من القتلة ، وأنه يجب القضاء حتى على زوجاتهم وأولادهم وماشيئهم (٦٢) ، وقبل ميلانكيتون ، الرقيق الحاشية نسبياً ، أن يرأس التفتيش العلماني الذي قمع حركة اللامعمدانيين في ألمانيا بالسجن أو الموت . وتساءل قائلاً : « لماذا تشتمق على أمثال هؤلاء الناس أكثر من الله ؟ » . ذلك لأنه كان مقتنعاً بأن

الله قد قضى على كل اللامعمدانيين بعذاب جهنم^(٦٣) . وأوصى باعتبار رفض تعميد الطفل ، أو رفض الخطيئة الأصلية ، أو عدم الإيمان بالوجود الحقيقي للمسيح في القربان المقدس ، جرائم تستحق أن يعاقب عليها بالإعدام^(٦٤) . وأصر على عقوبة الموت لكل طائفي يعتقد أن الكفرة قد يظفرون بالخلاص ، أو لكل من يشك في أن الإيمان بأن المسيح يمكنه ، باعتباره الذي كفر عن خطايا البشر ، أن يغير آثماً بفطرته إلى رجل من الأبرار^(٦٥) . وهلل ، كما سوف نرى ، لإعدام سيرفيتوس . وطالب الحكومة بأن تجبر كل الناس على حضور الصلوات الدينية البروتستانتية بانتظام^(٦٦) . وطالب بالقضاء على كل الكتب ، التي تعارض أو تعوق انتشار التعاليم اللوثرية ، وعلى هذا فإن كتابات زونجلي وأتباعه وضعت رسمياً في قائمة الكتب الممنوعة في فيننبرج^(٦٧) ، وبينما نان لوثر ينفي الكنائس من المناطق التي يحكمها الأمراء اللوثيريون ، آثر ميلانكتون توقيع العقوبات البدنية ، واتفق الاثنان في الرأي بأن السلطة المدنية مرتبطة بواجب نشر « شريعة الرب » ورفع شأنها . أي رفع شأن مذهب لوثر^(٦٨) ، ومهما يكن من أمر فإن لوثر أشار بأنه حيث توجد طائفتان في ولاية فإن الأقلية يجب أن تخضع للأغلبية : ففي إمارة تغلب عليها الكنائس يجب على البروتستانت أن يخضعوا ويهاجروا ، وفي مقاطعة ترجح فيها كفة البروتستانت يجب على الكنائس أن يخضعوا ويرحلوا ، وإذا قاوموا فإنهم يجب أن يعاقبوا بشدة^(٦٩) .

وقبلت السلطات البروتستانتية ، وهي في هذا قد حذت حذو السوابق الكاثوليكية ، الالتزام بالحفاظ على المواطنة الدينية .

وأصدر مجلس المدينة في أوجسبورج (١٨ يناير سنة ١٥٣٧) مرسوماً يجرم العبادة الكاثوليكية ويقضى بنفي كل من لا يقبل اعتناق العقيدة الجديدة ، بعد ثمانية أيام .

وبعد انقضاء هذه المهلة من العفو بعث المجلس بالجند للاستيلاء على

كل الكنائس والأديرة ، وأزيلت كل المذابح والتماثيل ، وأقصى كل القساوسة والرهبان والراهبات . وأصدرت (٧٠) فرانكفورت — الواقعة على الماين — قانوناً مماثلاً ، وانتشرت موجة الاستيلاء على ممتلكات الكنيسة الكاثوليكية ، وتحريم إقامة الصلوات الكاثوليكية في الولايات التي يسيطر عليها البروتستانت (٧١) ، وانتهج البروتستانت فرض رقابة على المطبوعات وكانت قد فرضت فعلاً في مناطق كاثوليكية ، وعلى هذا أصدر جون الأمير المختار في ساكسونيا ، بناء على طلب لوثر وميلانكتون ، (عام ١٥٢٨) منشوراً يحرم نشر أو بيع أو قراءة الأدب الزونجلى أو اللامعمداني ، أو التبشير بعقائدهما أو تعليمهما وجاء فيه : « على كل من يعلم بحدوث شيء من هذا ، أو قيام أى أحد بعمله ، سواء أكان أجنبياً أو من المعارف ، أن يبلغ إلى . . . الحكام في قهَذَا المكان لكي يُلْتَقَى القبض على الآثم ويعاقب في الوقت المناسب . . . وهؤلاء الذين يعلمون بارتكاب مخالفات لهذه الأوامر . . . ولا يقومون بالإبلاغ عنها ، يعاقبون بالإعدام أو مصادرة ممتلكاتهم » (٧٢) .

وتبنى البروتستانت سياسة الحرمان من غفران الكنيسة والرقابة أيضاً مقتدين في هذا بالكثلكة . وأعلن حزب أوجسبورج عام ١٥٣٠ حق الكنيسة اللوثرية في حرمان كل عضو يرفض الاعتراف بعقيدة لوثرية أساسية (٧٣) من غفران الكنيسة . وقال لوثر مفسراً : « على الرغم من أن الحرمان من غفران الكنيسة في البابوية قد أسىء استعماله بطريقة منحجلة ، وجعل منه البابويون مجرد تعذيب للناس فإننا يجب ألا نعانى منه حتى نكفر ، ولكن يجب أن نحسن استخدامه كما أمر المسيح » (٧٤) .

٣ — العلماء الإنسانيون والإصلاح الديني

إن العقيدية المتعصبة للمصلحين الدينيين ، وعنف كلامهم وتشجيعهم الطائفي واحتقارهم ، وتدميرهم للفن الديني ، ولاهوتهم القائل بالخبز قضاء وقدراً وعدم اكتراثهم بالتعليم الدنيوى وتأكيدهم المتجدد للشياطين والجحيم ،

وتركيزهم على الخلاص الشخصي في حياة بعد القبر ، كل هذه شاركت في تنفير علماء الإنسانيات من الإصلاح الديني ، فقد كان المذهب الإنساني ردة وثنية إلى الثقافة الكلاسيكية ، أما البروتستانتية ففسد كانت عودة تتسم بالورع إلى أوغسطين الحزين ، إلى المسيحية الأولى ، بل إلى الدين اليهودي في العهد القديم ، وتجدد النضال بين الهلينية والعبرية . وكان علماء الإنسانيات قد أحرزوا تقدماً ملحوظاً داخل حظيرة الكاثوليك وقبضوا على زمام البابوية في شخص نيكولاس الخامس وليو العاشر ، ولم يتسامح معهم البابوات فحسب ، بل لأنهم أسبغوا عليهم حمايتهم ، وعاونوهم على استرداد الكنوز الضائعة من الأدب والفن الكلاسيكين ، وكل هذا على أساس الفهم الضمني بأن كتاباتهم سوف توجه ، فرضاً باللاتينية ، إلى الطبقات المتعلمة ، ولن تهدم العقيدة الكاثوليكية عند الناس .

ووجد علماء الإنسانيات ، وقد أزعجهم وقتذاك هذا الانفاق الودي المريح ، أن أوروبا التيتونية كانت أقل ميالة بهم وبثقافتهم الأرستقراطية منها بالحديث الحار عن الروح للوعاظ الجدد الذين يتكلمون باللغة الوطنية ، والذي يدور حول الرب والجحيم والخلاص الفردي . وسخروا من كل المناقشات المتحمسة التي ثارت بين لوثر وإليك ، وبين لوثر وكارلشتادت ، وبين لوثر وزونجلي ، باعتبارها معارك حول نتائج ، اعتقدوا أنه قضى عليها منذ عهد بعيد ، أو انطوت في غمار النسيان برقة . ولم يستسيغوا اللاهوت وأصبحت السماء والجحيم أساطير بالنسبة إليهم ، وأقل حقيقة من ميشولوجيا اليونان وروما . ورأوا أن البروتستانتية خيانة لعصر النهضة ، وأنها كانت تستعيد كل المذاهب الفوق الطبيعية واللاعقلية والشيطانية التي رانت بالظلام على عقلية القرون الوسطى ، وقد شعروا بأن هذا لم يكن تقدماً ، بل رجعية . . . كان إخضاعاً من جديد للعقل المتحرر لسيطرة الأساطير البدائية للسوق . واستاءوا من طعن لوثر للعقل ومن تمجيده للعقيدة كما كان يعرفها البطارقة أو الحكام من البروتستانت . وماذا بقي الإنسان من

تلك الكرامة التي كان بيكوديلا ميراندولا قد وصفها بمثل هذا النبيل ، إذا كان كل شيء حدث على ظهر الأرض - كل بطولة وكل تضحية ، وكل تقدم في أدب السلوك الإنساني يستحق الذكر - مجرد عمل آلى ، قام به أناس عاجزون تافهون ، لتحقيق ما سبق في علم الله ، وتنفيذه أوامره التي لا نعرفها ؟

وليس من شك في أن علماء الإنسانيات الذين افتقدوا الكنيسة ، وإن كانوا لم يتركوها قط - ويمفيلينج وبياتوس رينانوس وتوماس مورر وسيباستيان برانت - قد سارعوا وقتذاك إلى الإعراب عن ولائهم .

وابتعد عن لوثر كثير من علماء الإنسانيات الذين هلّوا لصورة لوثر الأولى باعتبارها إصلاحاً شاملاً لظلم نخبيل ، وذلك كلما تشكلت اللاهوت والجدل الديني للبروتستانت . وهاهو فيليبالد بيركهايمر وهو هليني وسياسي ، كان قد أيد لوثر علناً ، حتى إنه حرم من غفران الكنيسة في المسودة الأولى للمنشور **Exsurge Domine** راعه عنف كلام لوثر وقطع صلته بالثورة ، وفي عام ١٥٢٩ وبينما كان لا يزال ينتقد الكنيسة كتب يقول : -

« لا أنكر أن كل أعمال لوثر لم تبد عبثاً في مبدأ الأمر ، ما دام لا يوجد رجل صالح يستطيع أن يرضى عن كل تلك الأخطاء والضلالات ، التي تراكت تدريجياً في المسيحية . وعلى هذا فإني كنت أرجو أن وآخرون أن يستخدم دواء ما لمثل هذه الآفات العظيمة ، ولكنني كوفئت بخديعة قاسية ، لأنه قبل استئصال الأخطاء الآتفة الذكر ، تسلت أخطاء لا تغتفر أشد جسامة ، إذا قورنت بها الأولى ، فإنها تبدو من قبيل عبث الأطفال . . . لقد وصلت الأمور إلى معبر دفع الأفاقين الإنجيليين إلى إظهار زملائهم البابويين ، وهم يرتدون مسوح الفضيلة . . . ولا بد أن لوثر

بلسانه اللاذع ، الذى لا يعرف الخجل ، قد انزلق إلى الخجل أو استلهم الشيطان» (٧٥) .

ووافق موتيانوس على هذا وكان قد حيا لوثر ووصفه بأنه « نجم الصباح في فيتنبرج » وسرعان ما شكنا من أن لوثر « تعتره لوثة مجنون » (٧٦) أما كروتوس روبيانوس ، الذى كان قد مهد الطريق للوثر بـ « خطابات من أناس مغمورين » فإنه فر عائداً إلى حظيرة الكنيسة عام ١٥٢١ . وأرسل رويخلين إلى لوثر خطاباً رقيقاً ، ومنع إيك من إحراق كتب لوثر في أنجولشتادت ، ولكنه ندد بابن أخيه ميلانكتون ، لأنه تبني اللاهوت اللوثرى ومات بين ذراعى الكنيسة . وأما جوهانس دوبينيك كوكلايوس فقد ناصر لوثر في مبدأ الأمر ، ثم انقلب عليه في عام ١٥٢٢ ، وبعث له رسالة أنبه فيها قائلاً : -

« هل تظن أننا نريد العفو أو الدفاع عن آثام رجال الدين وشهرهم ؟ نسأل الله النجاة ! إننا لنفضل أن نستأصل شأفتهم ، ما دام هذا يمكن أن يتم بطريقة مشروعة . . . ولكن المسيح لا يعلمنا مثل هذه الطرق التى تعمل بها على تلك الصورة المؤذية مع خصم المسيح » و « مواخير » و « أعشاش الشيطان » و « بالوعات » وألفاظ سب أخرى لم يسمع بها أحد من قبل فما بالك بالتهديدات بالضرب بالسيف وسفك الدماء والقتل يا لوثر ! إن المسيح لم يعلمك قط هذه الطريقة فى العمل » (٧٧) .

ولعل علماء الإنسانيات فى ألمانيا قد نسوا بذاة أسلافهم الإيطاليين - فيليغو وبوجيو وكثيرين غيرهما - تلك البذاة جعات لوثر يسارع بأن يشرع قلمه المتمرد العنيد . ولكن أسلوب لوثر فى العراق لم يكن إلا سطحاً لآتهمهم . ولاحظوا - كما لاحظ لوثر - فساد الأخلاق والسلوك فى ألمانيا ، وعزوا ذلك إلى تفكك السلطة الكهنوتية وإسقاط اللوثرين « للأعمال الصالحات » ، باعتبارها مبرراً للخلاص . وساءهم انتقاص البروتستانت

للتعليم ومساواة كارلشتادت بين العلامة التحرير وبين والفلاح ، وتهون لوثر من شأن التضلع في العلم والحصافة ، وأعرب أرازاموس عن الرأى العام لعلماء الإنسانيات . وهنا سلم ميلانكتون^(٧٨) بهذا الرأى في حزن - وهو يذهب إلى أنه حيث تنمصر اللوثرية ينحط شأن الآداب (أى التعليم والأدب)^(٧٩) ، ودفع البروتستانت هذه الهمة بقولهم إن هذا يرجع إلى أن التعليم بالنسبة لعالم الإنسانيات يعنى ، أولاً وقبل كل شىء ، دراسة الكلاسيات الوثنية والتاريخ الوثنى . وشغلت الكتب والمجلات في المجادلات الدينية الذهن والمطابع في المانيا وسويسرة مدة جيل بأسره ، حتى فقد كل شكل آخر من أشكال الأدب (غير المهجو) تقريباً جمهوره . ووجدت دور النشر مثل دار فروين للنشر في بازيل والاطلانسى في فينا عدداً قليلا من المشترين للمؤلفات العلمية التى أصدرتها وكلفتها غالباً ، حتى أشرفت على الإفلاس^(٨٠) وحجب تعصب المنافسين النهضة الألمانية الفتية ، ووصل مسار مسيحية عصر النهضة نحو التوفيق بينها وبين الوثنية إلى نهايته .

وظل بعض علماء الإنسانيات مثل أيوبان هيس وأولريخ فون هوتن مخلصين للإصلاح الدينى ، وانتقل هس من موقع إلى موقع وعاد إلى أرفورت ليجد أن الجامعة قد هجرها روادها . ومات وهو يقرض الشعر في ماربورج (١٥٤٠) وهرب هوتن ، بعد سقوط سيمكنجن ، إلى سويسرة ، وبلأ إلى السرقة للحصول على طعامه ، وهو فى الطريق^(٨١) ، وبحث عن أرازاموس فى بازيل (١٥٢٢) ، وهو يعانى من المرض والحصاصة ، على الرغم من أنه كان قد دمع علناً عالم الإنسانيات بأنه جبان ، لأنه لم ينضم إلى المصلحين الدينيين^(٨٢) . ورفض أرازاموس أن يراه وزعم أن موقده لا يصلح لتدفئة عظام هوتن . ونظم الشاعر الآن قصيدة بعنوان « تحذير » ندد فيها بأرازاموس ووصفه بأنه زنديق مارق ، يفرق كفرخ الدجاج ، ووعد بأن يسلك عن نشرها إذا دفع له أرازاموس ، ولكن أرازاموس خيب ظنه ، وحث هوتن على التزام جانب الحكمة وتسوية خلافاتهما سلمياً ،

غير أن هوتن كان قد سمح بتداول النسخة الخطية لقصيدته الهجائية بين الخاصة ، ووصل ذلك إلى علم أرازاموس ودفعه هذا إلى الانضمام إلى رجال الدين في بازيل في طلبهم بإلحاح من مجلس المدينة لإقصاء الهجاء الخانق ، وبعث هوتن بقصيدته « تحذير » إلى المطبعة وانتقل إلى مولهاوس . وهناك تجمع حشد من الغوغاء ، وهاجم البيت الذى لاذ به ، ففر مرة أخرى ، وقبض عليه زونجلى في زيورخ (يونية ١٥٣٣) ، وقال المصالح الدينى وهو هنا كريم خير أكثر من عالم الإنسانيات « انظروا . . . إلى هذا الخرب ، انظروا إلى هوتن الرهيب ، الذى نراه مغرماً جداً بالناس وبالأطفال ؛ ، إن هذا الفم الذى تهب منه أعاصير على البابا لا ينفث غير الرقة والطيبة » (٨٣) . وفى غضون ذلك رد أرازاموس على « تحذير » فى رسالة كتبها على عجل وعنوانها *Spongia Erasmi adversus aspergimes Hutteni* ، (أى إسفنجة أرازاموس على مطاعن هوتن) وكتب إلى مجلس المدينة فى زيورخ محتجاً على « أكاذيب » هوتن التى تحدث بها عنه وأوصى بنفى الشاعر (٨٤) . ولكن هوتن كان يحتضر وقتذاك ، فقد أنهكته محارب الأفكار وأتلف الزهرى صحته وأطلق زفرته الأخيرة (٢٩ أغسطس سنة ١٥٢٣) فوق جزيرة فى بحيرة زيورخ ، بالغاً من العمر خمساً وثلاثين عاماً ، وهو لا يملك من حطام الدنيا سوى ملايسه وقلمه .

٤ - أرازاموس - حاشية على آرائه

(١٥١٧ - ٣٦)

إن رد الفعل عند أرازاموس بالنسبة إلى الإصلاح الدينى يثير مناقشة حامية بين المؤرخين والفلاسفة . ترى أية طريقة خير للبشرية - هجوم لوثر المباشر على الكنيسة أم سياسة أرازاموس التى تعتمد على المصالحة السلمية والإصلاح الدينى على درجات ؟ إن الإجابات تكاد تحدد نمطين من الشخصية : هما المحاربون « ذوو العقول الجامدة » الذين يعتممون بالعمل والإرادة ، « والمهادنون ذوو العقول المرنة فى الفكر والشعور » . لقد كان لوثر رجل عمل أساساً . وكانت أفكاره قرارات وكتبه أفعالاً . وكان تفكيره فى

مضمونه لا يختلف عن تفكير رجال القرون الوسطى الأولى ، واكنه في النتيجة يشبه تفكير المحدثين الأوائل ، ولقد عاونت شجاعته وحسمه للأمر القومي أكثر من لاهوته على تأصيل العصر الحديث . وكان لوثر يتحدث بلهجة ألمانية قوية ، تنبض بالرجولة إلى الشعب الألماني ، فأثار أمة ، ودفعها إلى القضاء على سلطة دولية ، أما أرازموس فكان يكتب بلغة لاتينية رشيقة رقيقة لجمهور دولي ، إلى صفوة عالمية من خريجي الجامعات . وكان شديد الحساسية لا يصلح لأن يكون رجل عمل ، يمتدح السلم ويتوق إليه ، بينما كان لوثر يشهر الحرب ويمجد فيها متعة . كان إماماً في الاعتدال ، يستهجن التطرف والمغالاة وهرب من ميدان العمل إلى ميدان الفكر ، ومن اليقين المتسم بالتهور إلى الشك المنطوي على الحذر ، وعرف الكثير ليرى أن الحق أو الخطأ ایسا جميعاً في جانب واحد ، ورأى الجانبين كليهما ، وحاول أن يوفق بينهما فسحق في وسطهما .

وصفق لمقالات لوثر ، وأرسل في مارس عام ١٥١٨ نسخاً منها إلى كولييه ومور ، وكتب إلى كولييه يقول : « إن المحكمة الرومانية قد كشفت عن وجهها برقع الحياء . أى شيء يفوق في القمحة صكوك الغفران هذه ؟ » (٨٥) وكتب في أكتوبر إلى صديق آخر يقول :

« سمعت أن لوثر يتفق معه في الرأي كل الناس الصالحين ، وإن قيل إن كتاباته ليست كلها في مستوى واحد . وأعتقد أن هذه المقالات سوف يرضى عنها الجميع ، اللهم إلا قلة ضئيلة لا تتفق معه في رأيه حول المطهر ، الذى يعتمدون عليه في كسب عيشتهم ، ولا يريدون أن ينتزع من أيديهم وأنا أدرك أن الحكومة الملكية للكهنة الأعظم الروماني (وهذا حال تلك الحكومة البابوية الآن) هى وباء يجتاح العالم المسيحي ، على الرغم من أن وعظماً يفتقرون إلى الحياء يمتدحونها في كل الظروف ، ومع ذلك فإننى لا أكاد أعرف هل من اللائق أن أمس هذا القرع المكشوف ، لأن هذا

فرض واجب على الأمراء ، ولكنى أخشى أن يتآمروا مع الخبر الأعظم للحصول على قدر من الغنائم» (٨٦) .

وعاش أرازموس الجانب الأكبر من حياته وقتذاك في لوفان ، وأسهم في تأسيس Collegium Trilingue في الجامعة ، بكراسى أستاذية في اللاتينية واليونانية والعبرية ، وفي عام ١٥١٩ منحه شارل الخامس معاشاً ، فاشترط أرازموس لقبوله أن يحتفظ باستقلاله جسداً وعقلاً ، ولكنه إذا كان بشراً ، فإن هذا المعاش ، مضافاً إليه ما كان يتلقاه من كبير أساقفة وارهام ولورد ماونتجوى ، قد قام بدور ما في صياغة موقفه نحو الإصلاح الدينى .

وفي الوقت الذى تجاوزت فيه ثورة لوثر مرحلة نقد بيع صكوك الغفران إلى رفض الاعتراف بالبابوية والمجالس الدينية ، تردد أرازموس ، فقد كان يأمل أن تتقدم عجلة إصلاح الكنيسة بالالتجاء إلى الإرادة الواعية للبابا ذى النزعة الإنسانية . كان لا يزال يحمل الكنيسة باعتبارها (خيل إليه هذا) مؤسسة للنظام الاجتماعى والأخلاق الفردية لا بديل عنها ، وعلى الرغم من اعتقاده أن لاهوت المحافظين قضى عليه ما تحلله من لغو ، فإنه كان لا يثق بحكمة الإفتاء الفردى أو الشعبى لتطوير شعيرة أو عقيدة أكثر نفعاً ، ذلك أن رجاحة العقل لا تتأتى إلا عن طريق تقطر الاستنارة العقلية ، من الفئة القليلة المتفهمة ، إلى الكثرة الغالبة . وأقر بأنه كان له دور فى تمهيد الطريق أمام لوثر ، فقد كانت رسالته « الثناء على الطيش » ، التى كان يتداولها وقتذاك الآلاف من القراء فى أرجاء أوروبا ، تسخر من الرهبان والمشتغلين باللاهوت ، وتشدد من لدغ خطابات لوثر المقذعة بالحافية ، وعند ما اتهمه الرهبان المشتغلون باللاهوت بأنه وضع البيضة التى فقسست تحت لوثر ، رد عليهم فى تأفف : « نعم ولكن البيضة التى وضعتها خرجت منها دجاجة ، أما البيضة التى فقسها لوثر فقد خرج منها ديك من ديوك

المصارعة» (٨٧) . ولقد قرأ لوثر نفسه رسالة « الثناء على الطيش » كما قرأ تقريباً غيرها من كل ما نشره أرازموس ، وقال لأصدقائه إنه إنما يقوم بصياغة مباشرة لما قاله عالم الإنسانيات الشهير ، أو ما ألمح إليه منذ سنوات عديدة مضت ، وكتب في ١٨ مارس عام ١٥١٩ إلى أرازموس في تواضع واحترام يندشده صداقته وعونه ضمناً .

وكان على أرازموس وقتذاك أن يتخذ قراراً حاسماً في حياته . وكان في مأزق بين أمرين أحلاهما مر . إذا تخلى عن لوثر فسوف يوسم بالجن ، وإذا اشترك مع لوثر في عدم الاعتراف بالكنيسة الرومانية فإنه لن يجسر فحسب ثلاثة مرات ، ويفقد ما أسبغه عليه ليو العاشر من حماية ضد المشتغلين باللاهوت ، الذين يعملون للحيلولة دون نشر العلم ، وسيجد نفسه مضطراً إلى التخلي عن خطته واستراتيجيته بشأن إصلاح الكنيسة عن طريق تحسين العقول والأخلاق في الرجال ذوي النفوذ . وكان قد أحرز (كما اعتقد) تقدماً حقيقياً في هذا المجال مع البابا ورئيس الأساقفة وارهام والأسقف فيشر ونائب الأسقف كوليو وتوماس مور وفرانسيس الأول وشارل الخامس ، ولم يرض هؤلاء الرجال بالتأكيد أن يتخلوا عن الكنيسة . حقاً لانهم كانوا على استعداد لأن يجمعوا عن تقويض نظام كان في نظرهم مرتبطاً بطريقة مهمة مع حكومة الأمراء في المحافظة على الاستقرار الاجتماعي ، ولكن يمكن تجنيدهم في حملة لتخفيف الخزعبلات والأهوان في عقيدة راجحة الكفة ، وفي تطهير رجال الدين وتعليمهم ، وفي السيطرة على الرهبان وإخضاعهم للتبعية ، وفي حماية حرية الفكر من أجل تقدم العمل .

إن تغيير ذلك البرنامج بانقسام العالم المسيحي انقساماً شديداً إلى شطرين متحاربين ، وبلاهوت ، يأخذ بالقدرية وبعدم أهمية الأعمال الصالحات ، سوف يبدو في نظر هؤلاء الرجال ، بل وبدا لأرازموس ، الطريق إلى

الحنون . وكان براوده الأمل في استعادة السلام إذا خفضت كل الأطراف أصواتها ، وأشار في فبراير عام ١٥١٩ على فروبين ألا ينشر المزيد من مؤلفات لوثر ، لأنها تفيض بالعبارات الملتهية (٨٨) ، وكتب في أبريل إلى الأمير المختار فريدريك ، بحثه على حماية لوثر باعتباره رجلاً ارتكبت الناس في حقه من الإثم أكثر مما ارتكبت هو من آثام (٨٩) . وأخيراً (٣٠ مايو) رد على لوثر ، وقال :

« يا أعز أخ لي في المسيح . إن رسالتك إلى تظهر حدة ذهنك وتبصر بروح مسيحية قد أسعدتني أكثر من كل شيء . أنا لا أستطيع أن أعبر عن مدى الاضطراب الذي تحدثه كتبك هنا . إن هؤلاء الناس لا يمكن ، بأي وسيلة ، ألا يراودهم الشك في أنني عاونتك في كتابة مؤلفاتك وأنا ، كما يصفونني ، حامل لواء حزبك . . . ولقد أقسمت لهم أني لا أعرفك بتاتا ، وأنا لم أقرأ كتبك ، وأنا لا أستحسن كتاباتك ولا أستهجنها ، ولكن عليهم أن يقرأوها قبل أن يتحدثوا بصوت مرتفع ، ومن رأيي أيضاً أن الموضوعات التي كتبت عنها ليست من النوع الذي يصلح للخطابة من فوق المنابر ، وبما أن من المسلم به أنك طاهر الذليل ، فلا محل للتنديد بك أو صب اللعنات عليك . وكان هذا بلا جدوى فقد ظلوا يتميزون غضباً . . . وأنا نفسى الهدف الرئيسي للعداء والكراهية ، وأما الأساقفة فإنهم في صني بوجه عام . . .

وأما أنت فإن لك أصدقاء أوفياء في إنجلترا ، حتى بين أكبر الشخصيات هناك . ولك أصدقاء هنا أيضاً . . . أنا بصفة خاصة . وأما بالنسبة لي فإنني اشغل نفسى بالأدب ، وأنا أقصر عليه جهودى بقدر الإمكان ، وأتخاى الخلافات الأخرى ، ولكنى بصفة عامة أعتقد أن اللطف مع الخصوم أشد تأثيراً من معاملتهم بالعنف . . . ولعل من الحكمة أن تندد بهؤلاء الذين سيئون استخدام سلطة البابا بدلا من أن تحصى أخطاء البابا نفسه . وهذا ما يجب عمله مع الملوك والأمراء . والأنظمة القديمة لا يمكن انتزاعها من

جلدورها في لحظة . والمناقشة الهادئة قد تفيد أكثر مما تفعل الإدانة الجماعية .
تجنب كل مظهر من مظاهر الشغب . واحتفظ ببرود أعصابك ولا تستسلم
للغضب . لا تذكره أحداً . لا تفرح بالضجة التي أرتها . لقد اطلعت على
كتابك « تعليق على المزامير » وسررت به كثيراً . . . ألا فليهبك المسيح
روحاً من عنده من أجل مجده ومن أجل خير العالم^(٩٠) .

وعلى الرغم من هذا الاحتياط في المواجهة بين الضدين ، فان المشتغلين
باللاهوت في لوفان استمروا في مهاجمة أرازموس ، باعتباره منيع الفيضان
اللوثري . ووصل الياندر في الثامن من أكتوبر عام ١٥٢٠ ، وعلق النشرة
البابوية التي تنص على حرمان لوثر من غفران الكنيسة ، وسجل أن أرازموس يعد
محرضاً سرياً على الثورة . وقبل العلماء النحارير زعامة الياندر وأقصوا أرازموس
من كلية لوفان (٩ أكتوبر عام ١٥٢٠) ، فانتقل إلى كولون وهناك ،
كما رأينا . دافع عن لوثر في مداولة مع فردريك صاحب ساكسونيا
(٥ نوفمبر) ، وفي الخامس من ديسمبر أرسل إلى الأمير المختار بياناً عرف
باسم **Axiomata Erasmi** جاء فيه إن التماس لوثر أن يحاكم أمام قضاة
لا يعرفون التحيز طلب معقول ، وأن الصالحين من الناس والمحبين للإنجيل
هم هؤلاء الذين كانت إساءتهم للوثر أقل من غيرهم ، وأن الناس يتعطشون
إلى معرفة الحقيقة الإنجيلية ، (أى الحقيقة التي تعتمد على الإنجيل فحسب)
وأنه لا يمكن قمع^(٩١) مثل هذا المزاج الذي انتشر انتشاراً واسعاً . ودبح بمعاونة
جوهان فابر الدومينيكانى عريضة إلى شارل الخامس ، طالباً فيها أن يقوم
شارل وهنرى الثامن ولويس الثاني ملك هنغاريا بتعيين محكمة محايدة للفصل
في قضية لوثر . وحث في رسالة بعث بها إلى الكاردينال كامبيجيو (٦
ديسمبر) على توفير العدالة للوثر ، وقال : « لقد أدركت أنه كلما كان
الإنسان صالحاً كان أقل عداء للوثر . . . إن بضعة أشخاص فقط كانوا
يصخبون في وجهه ، خوفاً من أن يجردهم مما في جيوبهم . . . ولم يرد عليه
أحد بعد أو يعدد أخطائه . . . فكيف يحدث هذا في الوقت الذي يوجد

فكيف يحدث هذا في الوقت الذي يوجد فيه أشخاص يزعمون أنهم أساقفة ...
وأخلاقهم كريمة .. وهل من الصواب أن تضطهد رجلا مثل هذا ، لا تشوبه
أخلاقه شائبة ، وليس في حياته ما يشينه ، ووجد أشخاص من الصفوة
في كتاباته الكثير مما يستحق الإعجاب ؟ لقد كان الهدف ببساطة القضاء
عليه وعلى كتبه ، ليضيع في غمرات النسيان ، وهذا لا يتحقق إلا إذا
ثبت أنه على خطأ . . . إذا كنا ننشد الحقيقة ، فان كل امرئ يجب أن يكون
حرآ في أن يقول ما يراه دون خوف أو وجل . وإذا كوفئ المدافعون عن
وجهة نظر أحد الطرفين بوضع تيجان الأساقفة على رؤوسهم ، وجوزى
المدافعون عن وجهة نظر الخصوم بالشنق أو بوضعهم فوق الخوازيق فإن
الحقيقة لن تسمع أبداً . . . ولا يمكن أن يكون هناك شيء يبعث على النفور
ويبعد عن الحكمة أكثر من نشرة البابا . . . إنها تخالف طبيعة البابا ليو
العاشر ، وأرى أن الذين أرسلوا لنشرها فحسب قد جعلوا الأمور تنقلب
إلى أسوأ . ومهما يكن من شيء فإنه من الخطر أن يعارض الأمراء الزمانيون
البابوية ، وأنا لست على استعداد لأن أكون أكثر شجاعة من الأمراء ،
وبخاصة عندما لا أستطيع أن أفعل شيئاً . ولعل فساد الحاشية الرومانية يجعلها
في حاجة إلى إصلاح شامل وعاجل ، ولكني أنا وأمثالي لا يطلب منا اتخاذ
إجراء مثل هذا على عاتقهم ، وأنا أرى أن تبقى الأمور على ما هي عليه ،
وأفضل أن أرى الأشياء على ما هي عليه على نشوب ثورة ، قد تؤدي إلى
نتيجة لا تحمد عقباها . . . ويمكنك أن تطمئن إلى أن أرازموس كان ،
وسوف يظل دائماً ، من الرعايا المخلصين الكرسى البابوية الروماني ، وإن
كنت أعتقد ، ويعتقد كثيرون مثلي ، أنه ستتاح فرصة أحسن لتسوية ما
إذا قل الالتجاء إلى العنف ، وإذا وضعت مقاليد الإدارة في أيدي رجال
لهم وزن وعلى حظ من التعليم ، وإذا تصرف البابا بوحى من ضميره ،
ولم يتأثر بآراء الآخرين» (١٢) .

وقد جعل لوثر من الصعب على أرازموس أن يتشفع له لأن لهجة خطبه كانت تزداد عنفاً كل شهر ، إلى أن دعا في يوليو عام ١٥٢٠ قراءة إلى أن يغسلوا أيديهم في دماء الأساقفة والكرادلة ، وعند ما وصل نبأ إحراق لوثر علناً لمنشور البابا الذي يقضى بحرمانه من غفران الكنيسة ، أقر أرازموس بأنه صدم لهذا النبأ . وفي الخامس عشر من يناير عام ١٥٢١ بعث إليه البابا برسالة أعرب فيها عن سروره بولائه ، وفي الوقت نفسه أرسل إليه تعليماته إلى الياندر بمعاملة علماء الإنسانيات بكل لطف . وعند ما اقترُب موعد انعقاد المجلس النيابي في ورمس ، طلب أمير ألماني من أرازموس أن يخف لمعاونة لوثر ، ولكنه رد بأن الأوان قد فات . وأسف لرفض لوثر الامتثال ، إذ كان يعتقد أن هذا الامتثال سوف يؤدي إلى الإسراع بحركة الإصلاح الديني ، أما الآن فإنه يخشى قيام حرب أهلية . وفي فبراير عام ١٥٢١ كتب إلى أحد أصدقائه : « إن كل إنسان أقر بأن الكنيسة قد عانت من نير طغيان بعض الناس ، وكثيرون كانوا يسألون النصيحة لعلاج هذه الحالة الراهنة . والآن وقد هب هذا الرجل ليعالج الأمر على هذا النحو . . . لم يجرؤ أحد على أن يدافع حتى عما أجاد التعبير عنه . وقد جذرته منذ ست شهور نخلت أن يحترس من الكراهية . ولقد نفرت رسالته « الأسر البابيلوني » منه الكثيرين ، وهو يعرض لنا كل يوم أشياء فظيعة (٩٣) .

وقد تخلى لوثر وقتذاك عن كل أمل في مساندة أرازموس ، وأسقطه من حسابه باعتباره داعية للسلام جباناً « يعتقد أن كل شيء يمكن أن يتم بالتهذيب والعطف » (٩٤) . وفي الوقت نفسه ، وعلى الرغم من تعليمات ليو ، استمر الياندر وعلماء اللاهوت في لوفان في مهاجمة أرازموس ، باعتباره نصيراً سرياً للوثر . فاستاء من ذلك وانتقل إلى بازيل (١٥ نوفمبر عام ١٥٢١) ، حيث راوده الأمل في أن يتناسى الإصلاح الديني الفتي في عمار النهضة العجوز . وكانت بازيل معقل مذهب الإنسيانيات في سويسرة ،

فهناك كان يعمل بياتوس رينانوس الذى نشر تاسيتوس وبليني الأصغر ، واكتشف فيليوس بايتركولوس ، وأشرف على طباعة العهد الجديد ، الذى أعده أرازموس ، وهناك كان طباعون وناشرون يعدون أيضاً من العلماء مثل هانز أمرباخ ، وذلك القديس بين الناشرين الذى يدعى جوهان فروبن (يوس) ، وهو الذى أضنى نفسه مكباً على مطابعه ونصوبه و (قال عنه أرازموس) « ترك لأسرته من الشرف أكثر مما ترك لها من الثروة » (٩٥) وهناك عاش ديرر أعواماً طويلاً ، وهناك قام هولبين برسم صورة الشخصية التى تخلب الألباب لفروين وبونيفاسيوس أمرباخ - الذى جمع المقتنيات الفنية الموجودة الآن فى متحف بازيل . وقبل سبع سنوات ، وفى زيارة سابقة ، كان أرازموس قد وصف هذا المحيط فى شيء من المبالغة التى تنطوى على الحب .

« يبدو لى أنى أعيش فى هيكل قدسى ساحر لربات الفنون ، يظهر فيه حشد من الأشخاص المتعلمين كأمر محتوم . ليس هناك من يجهل اللاتينية ، ولا أحد يجهل اليونانية ، ومعظمهم يعرفون العبرية . هذا يفوق زملاءه فى دراسة التاريخ ، وذلك متضلع فى اللاهوت ، وأحدهم بارع فى الرياضيات وآخر دارس للآثار وثالث ضليع فى القانون . وليس من شك فى أن الحظ لم يسعدنى ، حتى ذلك الوقت ، فى أن أعيش فى مثل هذا المجتمع الكامل . . . أية صداقة خالصة ترفرف عليهم جميعاً وأى بشر وأى توافق » (٩٦)

وعاش أرازموس مع فروبن وعمل معه مستشاراً أدبياً ، وكتب مقدمات وحرر جريدة «الآباء» . ورسم هولبين صوراً شخصية مشهورة له فى بازيل (١٥٢٣ - ١٥٢٤) ولاتزال إحداها هناك ، وأرسلت أخرى إلى كبير أساقفة وارهام ، وهى الآن من مقتنيات إيرل أف رادنور ، والثالثة فى متحف اللوفر ، وهى من روائع هولبين . ويرى فيها جالساً إلى منضدة ،

وهو يكتب ملتفاً بمعطف ثقيل حوافه مزينة بالفراء ، ويضع على رأسه قلنسوة تغطي نصف أذنيه ، وها هو أعظم علماء الإسانيات تشي كهولته التي جاءت قبل الأوان ، (كان وقتئذ في السابعة والخمسين من عمره) بالثمن الغالى الذى دفعه بسبب اعتلال صحته . حياة فيلسوف مشائى حافلة بالجدل والحصام ، والعزلة الروحية والحزن ، اللذين ترتبا على رغبته فى أن يكون عادلا مع الطرفين فى الخلافات المذهبية التى حدثت فى عصره . وتبرز من القلنسوة شعرات بيضاء مشعثة . وله شفتان رقيقتان كالحتان ، وتقاطيع جميلة ، وإن كانت قوية ، وأنف حاد معقوف ، وجفون ثقيلة ، تكاد تغلق عينين متعبتين ، هنا فى لوحة من أعظم الصور الشخصية ترى النهضة وقد مزقتها الإصلاح الدينى إرباً .

وفى أول ديسمبر عام ١٥٢٢ كتب البابا الجديد أدريان السابع إلى أرازموس بألفاظ توحى بسلطانه غير العادى على كلا الطرفين : يتوقف عليك ، وأسأل الله أن يعينك ، أن تهدى من أضلهم لوثر عن الطريق المستقيم ، وأن تقف إلى جانب من لا يزالون صامدين . . . ولست فى حاجة إلى أن أعرب لك عن مدى غبظى عند ما أتلقى ثانية هؤلاء المهرطقة دون حاجة إلى قرعهم بعصا القانون الإمبراطورى . وأنت تعرف إلى أى حد تتنافى مثل هذه الطرق النظة مع طبيعتى . أنا لا أزال كعهديك فى عند ما كنا ندرس معاً . تعال إلى فى روما ، وسوف تجد هنا ما تنشده من الكتب ، وسوف تجدى أنا وآخرين من الرجال المستنيرين ، لتبديل المشورة ، وإذا فعلت ما أطلبه منك فإنك لن تندم أبداً » (٩٧) .

وبعد تبادل تمهيدى لخطابات تعهد فيها كل منهما للآخر بالحفاظ على السرية ، فتح أرازموس قلبه للبابا وقال : « إن قداستك تطالب منى النصيحة ، وترغب فى أن ترانى . وكم كان يسعدنى أن أذهب إليك لو سمحت بذلك صحى . أما بالنسبة للكتابة ضد لوثر ، فأنا لست على درجة كافية من العلم ، وأنت تعتقد أن اكلماتى سلطاناً ، واكنى للأسف أرى

أن شعبي ، التي اكتسبتها فيما مضى قد استحالت إلى كراهية . لقد كنت يوماً أميراً للبيان ، ونجماً من نجوم ألمانيا . . . وكاهناً أعظم للعلم ومنافحاً عن لاهوت أكثر نقاء . أما الآن فقد تبدل الوضع ، ففريق يقول أنى أتفق فى الرأى مع لوثر ، لأنى لا أعارضه ، وفريق آخر يرى أنى على خطأ لأنى أعارضه . . . وفى روما وفى برابانت يصفوننى بأنى هرطيق ، وزعيم شعبة من الهرطقة ، وداعية إلى الانشقاق ، والحق أنى لا أتفق بتاتاً مع لوثر . وأنهم ليستشهدون بهذه الفقرة أو تلك ، ليسينوا أننا متشابهان ، ومع ذلك فى وسعى أن أجد مائة فقرة يبدو فيها أن القديس بولس يعلم العقائد التى يستنكرها عند لوثر . وخير من محضك النصيح هم الذين يشيرون باتخاذ إجراءات خفيفة . والرهبان - يطلقون على أنفسهم العمالقة الذين يسندون كنيسة تهتز وتوشك أن تنقض - ينفّرون من يمكن أن يكونوا أنصاراً لها . . . ويعتقد البعض أنه لا علاج لهذه الحالة إلا القوة . وأنا أرى غير هذا . . . فسوف تودى إلى سفك مروع للدماء . إن المسألة ليست الجزاء الذى تستحقه الهرطقة ، ولكنها الطريقة الحكيمة التى تعالج بها . . . وأنا من جهتى أرى اكتشاف جنور المرض واقتلاع ما يجب البدء به منها . لا تعاقب أحداً . وأعتبر ما حدث عقوبة أنزلتها العناية الإلهية ، وامنح عفواً عاماً . وإذا كان الله يغفر لى خطاياى ، فإن كاهن الرب يمكن أن يغفرها ، وفى وسع الحكام أن يمنعوا قيام ثورة مسلحة ، وإذا أمكن يجب مراجعة المواد المطبوعة . ثم دع العالم يعرف ويرى أنك تنوى جاداً رفع المظالم ، التى يشكو منها الناس بحق . وإذا أردت قداستك أن تعرف ما هى الجذور التى أشير إليها ، فأرسل أشخاصاً تثق بهم إلى كل جزء من أجزاء العالم المسيحى اللاتينى ، ودعهم يتبادلون الرأى مع أعقل من يجدون من الرجال فى مختلف البلاد وسرعان ما تعرف بعد ذلك (٩٨) .

يا لأدريان المسكين الذى تجاوزت نياته الطيبة حدود قواه ! لقد مات

كسير الفؤاد عام ١٥٢٣ . واستمر خلفه كليمنت السابع في حث أرازاموس على الانخراط في سلك المناهضين للوثر . وعند ما خضع العالم أخيراً ، لم يكن هجومه على لوثر بصفة شخصية ، ولم يكن لديه اتهام عام للإصلاح الديني ولكنه ناقشه مناقشة موضوعية مهذبة بإرادة حرة (De Libro arbitrio) - (١٥٢٤) . وسلم بأنه لم يستطيع أن يسبر غور لغز الحرية الأخلاقية ، ولا أن يوفق بينها وبين علم الله بكل شيء وقدرته على كل شيء . ولكن ما من عالم بالإنسانيات يستطيع أن يتقبل العقائد ، التي تقول بجمتية القدر ومذهب الجبر ، دون تضحية بكرامة الإنسان أو الحياة البشرية وقيمتها : هنا فارق أساسي بين الإصلاح الديني والنهضة . وبدا واضحاً لأرازاموس أن الإله الذي يعاقب على الخطايا ، التي ترتكبها مخلوقاته ، ولا حيلة لهم في الامتناع عنها ، وحش لا خلاق له لا يستحق العادة أو الثناء ، وثسبة مثل هذا السلوك إلى « الأب الذي في السماء » كفر فظيع . ووفق افتراضات لوثر يكون أسوأ المجرمين شهيداً بريئاً ، ذلك أن الرب قدر عليه الخطيئة ، ثم حكم عليه المنتقم الجبار بالعذاب في نار جهنم خالداً فيها ، فكيف يستطيع أى مؤمن بجمتية القدر أن يقدم أى مجهود خلاق ، أو يعمل على تحسين أحوال البشر ؟ وأقر أرازاموس بأن اختيار الإنسان رهن بآلاف الظروف ، التي لا يستطيع أن يتحكم فيها ، ومع ذلك فإن شعور الإنسان يصير على أن يؤكد أن له بعض الحرية ، وبدونها يكون آلة ذاتية الحركة لا معنى لها . وانتهى أرازاموس إلى القول : على أية حال دعونا نسلم بجهلنا وبعجزنا في التوفيق بين حرية الإنسان في التمييز بين الصواب والخطأ ، وبين سابق علم الله أو سبب وجوده في كل مكان . دعونا نؤجل الحل إلى يوم القيامة ، ولكن في الوقت نفسه دعونا نجنب كل فرض يجعل من الإنسان مجرد دمية ، ومن الرب طاغية أنسى من أى طاغية عرف في التاريخ .

وأرسل كليمنت السابع ما تى فلورين (٥,١٠٠ ؟ دولار) إلى أرازاموس ،

عند ما تسلم منه الرسالة ، وشعر معظم الكاثالكة بخيبة الأمل بسبب اللهجة الفلسفية ، التي تنشئ المصالحة ، والتي تنطوي عبارات الكتاب عليها ، فقد كانوا يأملون أن يسمعوها خبر إعلان حرب يطربون لها . والحق أن ميلانكتور الذى أعرب عن وجهة نظره فى التجربة بكتاب **Loci Communes** تأثر كثيراً بالرأى الذى أبداه أرازموس ، وحذف نظريته فى هذا الموضوع ، وذلك فى الطبعات التى ظهرت فيما بعد^(٩٩). وكان هو أيضاً لا يزال يراوده الأمل فى السلام - ولكن لوثر دافع عن التجربة بلا هوادة فى رد متأخر عنوانه **De Servo arbitro** عام ١٥٢٥ ، وقال :

« إن الإرادة البشرية مثل دابة الحمل ، إذا امتطها الرب رغبت ، وانطلقت كما يشاء الرب ، وإذا امتطها الشيطان رغبت ، وانطلقت كما يهوى الشيطان . وهى لا تستطيع أن تختار ركبها . . . والركاب يتنازعون على امتلاكها . . . والرب يعلم الغيب ، ويقدر ويعمل كل شئ ، بإرادة فعالة أزلية ، لا تتبدل ، وهذه الإرادة القاهرة تغوص الإرادة الحرة ، وتفتت فى التراب^(١٠٠) » .

ومن الأمور ذات المغزى عن المزاج السائد فى القرن السادس عشر ، أن لوثر رفض التسليم بحرية الإرادة ، لأنها تتعارض مع حكم قانون عالمى وعلمية عالمية ، كما ذهب إلى ذلك بعض المفكرين فى القرن الثامن عشر ، ولا لأنه يبدو أن الوراثة والبيئة والظرف تحدد ، كثالوث آخر ، الرغبات التى يبدو أنها تحدد الإرادة ، كما ذهب إلى ذلك كثيرون فى القرن التاسع عشر ، بل إنه رفض التسليم بالإرادة الحرة على أساس أن قدرة الله على كل شئ ، تجعله تعالى السبب الحقيقى لكل الحوادث وكل الأفعال ، وبالتالي فإنه تعالى ، وليست فضائلنا أو خطايانا ، هو الذى يحكم علينا بالخلص أو العذاب الأبدى : ويواجه لوثر مرارة منطقته برجولة فيقول : « لقد أسىء إلى حسن الإدراك والعقل الفطرى ، إلى حد كبير ، بالقول بأن الله يتخلى عن عبده ويقسو عليه ويعذبه بمحض إرادته تعالى ، كما لو كانت

الخطيئة تسره ، والعذاب الأبدي يسعده ، وهو الذى يقال إنه رؤوف رحيم . ومثل هذا المفهوم عن الله يبدو خبيثاً قاسياً لا يغتفر ، ومن أجله ثار عدد من الرجال فى جميع العصور ، وأنا نفسى أسىء إلى مرة إساءة ، أردتني فى هوة اليأس ، إلى حد أنى تمنيت لو أنى لم أخلق قط . ولا جدوى من محاولة الهروب من هذا بإيجاد فوارق بارعة ، ومهما أحس العقل الفطرى بما لحقه من إساءة فلا مفر من تسليمه بنتائج علم الله بكل شىء وقدرته على كل شىء وإذا كان من الصعب الإيمان برسه الله ورأفته ، عند ما يعذب من لا يستحقون العذاب ، فإننا يجب أن نتذكر أن عدالة الله لا تكون إلهية إذا أحاط بها عقل الإنسان» (١٠١) .

ومما امتاز به هذا العصر الرواج الذى حظيت به الرسالة التى عنوانها : « الإرادة المستعبدة » فقد بيع منها عدد كبير فى سبع طبعات باللغة اللاتينية وطبعتين باللغة الوطنية ، واشته الإقبال عليها فى خلال سنة واحدة . وأثبت ذلك أنها أعظم مصدر للاهوت البروتستانتي ، وهكذا وجد كالفن عقيدة الجبر والاختيار والرفض **reprobation** ، التى نقلها إلى فرنسا وهولنده وسكوتلنده وإنجلترا وأمريكا . ورد أرازاموس على لوثر فى مقالين نشرنا فى كراستين دينيتين بعنوان **Hyperaspistes** (المدافع) ١ و ٢ (١٥٢٦ - ١٥٢٧) ، ولكن رأى العصر كان فى جانب الرأى الذى انتهى إليه المصلح فى المناظرة . واستمر أرازهوس ، حتى فى هذه المرحلة ، يبذل جهوده فى سبيل السلام . وأوصى كل من بعث إليهم برسائل بالتسامح واللطف فى المعاملة ولقد ظن أن الكنيسة عليها أن تسمح لرجال الدين بالزواج وتناول القربان المقدس بالأسلوبين المعروفين ، وأنها يجب أن تتنازل عن بعض أملاكها الواسعة للسلطات الزمنية ، لكى تستخدمها فى مرافقها ، وأن أمثال المسائل الحاسمة كالجبر والاختيار وحضور المسيح بجسده فى القربان المقدس ، يجب أن تترك دون تجليله . وفتوحه

لمختلف التفسيرات (١٠٢) . وأشار على الدوق جورج صاحب ساكسونيا بمعاملة اللامعمدانيين بالرفق ، وقال : « ليس من العدل أن تعاقب بالنار على أى خطأ يرتكب ما لم يكن مقترناً بشغب أو بأية جريمة أخرى تعاقب عليها القوانين بالإعدام » (١٠٣) . وحدث هذا في عام ١٥٢٤ ، ومهما يكن من أمر فإنه دافع عام ١٥٣٣ عن سجن الهراطقة ، الذى دعا إليه توماس مور (١٠٤) ، متأثراً بالصدقة أو الشيخوخة ، أما فى أسبانيا حيث أصبح بعض علماء الإنسانيات من مؤيدى أرازموس فقد بدأ رهبان محكمة التفتيش يفحصون أقوال أرازموس فحصاً منسقاً مستهدفين إدانته باعتباره هرطيقاً (١٥٢٧) . ومع ذلك فإنه استمر فى نقده لفجور الرهبان والجمود اللاهوتى ، باعتبارهما الحافزين الرئيسيين إلى الإصلاح الدينى . وكرر عام ١٥٢٨ الاتهام بأن كثيراً من الأديرة ، التى تضم الرهبان والراهبات ، « بيوت عامة للدعارة » وأن « آخر ما يوجد من فضائل فى أديرة كثيرة إنما هى فضيلة العفة (١٠٥) » . وأدان فى عام ١٥٣٢ الرهبان ، باعتبارهم متسولين يسألون فى إلحاح ، ومضلين يغوون النساء ، وصيادين ينطلقون فى إثر الهراطقة ، ومتصيدين للتركات ومزيفين للشهادات (١٠٦) . وكان يؤيد كل شئ لإصلاح الكنيسة بينما كان يستهجن الإصلاح الدينى . ولم يستطع أن يروض نفسه على التخلى عن الكنيسة ، أو أن يراها مشطوبة إلى نصفين ، وقال : « إنى أتحمل الكنيسة إلى اليوم الذى أرى فيه كنيسة أفضل (١٠٧) » .

وارتاع عند ما سمع بنياً نهب روما على يد فرق بروتستانتية وكاثوليكية تعمل فى خدمة الإمبراطور (١٥٢٧) . وكان قد راوده الأمل فى أن شارل سوف يشجع كليمنت على أن يتصالح مع لوثر ، ولكن البابا والإمبراطور كانا وقتذاك يمسك كل منهما بتلابيب الآخر . وأصيب بصدمة أكبر عند ما دمر المصلحون الدينيون ، فى ثورة ، التماثيل فى الكنائس (١٥٢٩) ، مع أنه كان قبل ذلك بعام واحد فقط قد ندد بعبادة التماثيل

وقال : « يجب أن يعلم الناس أن هذه ليست إلا رموزاً ، ومن الخير ألا يكون هناك شيء منها على الإطلاق ، وأن توجه الصلاة للمسيح وحده . ولكن ليكن رائدنا الاعتدال في جميع الأمور » (١٠٨) . وهذا بالضبط موقف لوثر من الموضوع نفسه . ولكنه رأى أن التجريد الأهوج الغبي للكنائس من التماثيل رجعية همجية ، تتسم بضيق الأفق . وغادر بازيل ، وانتقل منها إلى فرايبورج - الواقعة على نهر برايسجاو ، في أرض نمسوية كاثوليكية فاستقبلته سلطات المدينة بالترحيب والتكريم ، ومنحته قصر ماكسميليان الأول الذي لم يتم ، ليقم فيه . وعند ما لم يصله المرتب ، الذي خصصه له الإمبراطور بانتظام أرسل إليه آل فوجر كل ما احتاج إليه من أموال ، بيد أن رهبان فرايبورج وعلماء اللاهوت فيها هاجموا باعتباره من معتنى مذهب الشك في الخفاء ، والسبب الحقيقي لما حدث في ألمانيا من فتنة .

وعاد إلى بازيل عام ١٥٣٥ فخرج إليه وفد من أساتذة الجامعة مرحبين بعودته ، وخصص له جيروم فروين ابن جوهان غرماً في منزله .

وكان وقتذاك قد بلغ التاسعة والستين ، بوجه هزيل تغضن بفعل السنين وكان يعاني من القروح والإسهال وداء النقرس والحصى ونزلات البرد المتكررة . . . لاحظ اليلدين المتورمتين في رسم ديرر . وحبس نفسه ، في سنواته الأخيرة ، في حجراته ، وكثيراً ما كان يلزم الفراش . وأضناه الألم ، وفقد بسمته الجميلة المألوفة ، التي كانت تحببه إلى أصدقائه ، وأصبح دائم العبوس ، وهو يكاد يسمع كل يوم عن هجمات جديدة يوجهها إليه البروتستانت والكاثالكة . ومع ذلك فقد كانت ترد إليه يومياً تقريباً رسائل ، تفيض بالإخلاص والاحترام ، من ملوك أو بطاركة أو سياسيين أو علماء أو مالين ، وكان مسكنه كعبة يحج إليها الأدباء . وأصيب في السادس من يونية عام ١٥٣٦ بدوسنطاريا حادة ، وعرف أنه سوف يموت وشكاً ، ولكنه لم يبال . قسيساً أو كاهناً يعترف له ، ومات (١٢ يونيه) ،

دون أن تجرى له الطقوس الدينية ، التي فرضتها الكنيسة ، وأخذ يكرر مبتهلاً اسمى مريم والمسيح . وشيعته بازيل في جنازة تليق بأحد الأمراء ، ودفن في مقبرة الكاتدرائية . واشترك علماء الإنسانيات وأسقف المدينة في إقامة لوح حجري فوق جثمانه ، ولا يزال هذا اللوح في مكانه ، وقد أشادوا فيه بما اتصف به من «سعة علم لا تضارع في كل فرع من فروع المعرفة» . ولم يترك في وصيته ميراثاً لأغراض دينية ، ولكنه خصص مبالغ للعناية بالمرضى أو المسنين ، ولتقديم صدقات للفتيات الفقيرات ، ولتعليم الشبان الواعدين .

ويتذبذب موقفه في الأجيال القادمة مع تذبذب هيبة عصر النهضة ، فكل الطوائف تقريباً ، وصفته بأنه مذذب جبان ، وذلك في حماسة الثورة الدينية ، واتهمه أنصار الإصلاح الديني بأنه قادم إلى حافة الهاوية ، وأغرامهم بأن يقفزوا ثم لاذ بالفرار . ووصى في مجلس مدينة ترنت بأنه هرطيق فاسق ، وحرمت مؤلفاته على الفقراء الكاثوليك . وفي أواخر عام ١٧٥٨ وصفه هوراس والبول بأنه «طفيلي متسول لديه من الشماثل ما يكفي لأن يتوصل إلى الحقيقة ، ولكنه يفتقر إلى الشجاعة لكي يعترف بها» (١٠٩) . وفي أواخر القرن التاسع عشر ، عند ما انقشع دخان المعركة ، أسف مؤرخ بروتستانتى صائب الرأي على مفهوم أرازموس عن الإصلاح الديني ، وقال : « مفهوم لعالم . . . سرعان ما أوقف وطرح جانباً بوسائل فظة خشنة . ومع ذلك بحق لنا أن نتساءل أما كانت ، بعد كل شيء ، الطريقة البطيئة هي في النهاية أكثر الطرق أمناً ، وهل كان أى عامل من عوامل تقدم الإنسانية يمكن أن يكون بديلاً للثقافة على الدوام . لقد كان الإصلاح الديني في القرن السادس عشر من عمل لوثر ، ولكن إذا ظهر في الأفق أى إصلاح ديني جديد . . . فإنه لا يمكن أن ينهض إلا على أساس مبادئ أرازموس» (١١٠) . ويضيف مؤرخ كاثوليكي تقديراً يكاد يكون مطابقاً

مطابقاً لمقتضيات العقل : « إن أرازموس كان ينتمى فكرياً إلى عصر لاحق علمى وعقلانى أكثر من عصره . والعمل الذى قد بدأ به والذى أوقفته الاضطرابات التى حدثت فى عهد الإصلاح الدينى استأنفها علماء القرن السابع عشر فى وقت لقى فيه قبولا أكثر » (١١١) ، وكان لا بد أن يكون لوثر ، ولكن عند ما قام بعمله ، وهدأت سورة الانفعال ، حاول الناس مرة أخرى أن يتشبثوا بروح أرازموس وروح النهضة ، وأن يجددوا ، فى صبر وتسامح متبادل ، الجهد الطويل البطيء لتنوير أذهان الناس .

الفصل العشرون

العقائد في حرب

(١٥٢٥ - ١٥٦٠)

١ - التقدم البروتستانتي ١٥٢٥ - ٣٠

أى تحالف بين القوى والظروف مكن للبروتستانتية الوليدة من أن تعيش في مواجهة عداء البابوية والإمبراطورية؟ إن الورع الصوفي والدراسات الإنجيلية والإصلاح الديني والتطور الفكري" وجرأة لوثر لم تكن كافية ، فقد كان من الممكن أن يصرف عنها النظر أو تتم السيطرة عليها . ولعل العوامل الاقتصادية هي التي كانت حاسمة : الرغبة في الحفاظ على الثورة في ألمانيا ، والرغبة في تحرير ألمانيا من السيطرة البابوية والاستبداد الإيطالي ، وتحويل أملاك الكنيسة بحيث تستخدم للوفاء بالأغراض الدنيوية ، ودرء الاعتداءات الإمبراطورية على السلطة الإقليمية والقضائية والمالية للأمرء والمدن والحكومات . أضف إلى هذا بعض الظروف السياسية التي سمحت بنجاح البروتستانت ، فبعد أن فتحت الإمبراطورية العثمانية القسطنطينية ومصر ، أخذت في مد رقعتها بدرجة خطيرة في بلاد البلقان وأفريقيا . وابتلعت نصف هنغاريا ، وحاصرت فينا ، وهددت بإغلاق البحر الأبيض المتوسط في وجه تجارة العالم المسيحي ، وأصبح شارل الخامس والأرشيدوق فرديناند في حاجة ماسة إلى توحيد ألمانيا والنمسا - أموالا ورجالا من البروتستانت والكاثوليك على السواء - لمقاومة هذا التهديد الإسلامي ، الذي يوشك أن يكتسح أمامه كل شيء . وكان الإمبراطور عادة مشغولا بشئون أسبانيا أو

الفلاندرز أو إيطاليا ، أو منهنكاً في صراع مميت مع فرانسس الأول ملك فرنسا ، ولم يكن لديه متسع من الوقت أو فائض من الأموال لشن حرب أهلية في ألمانيا . واتفق في الرأي مع أرازموس ، الذى كان يحصل منه على معاش ، في أن الكنيسة في حاجة ماسة إلى الإصلاح ، وكان في فترات متقطعة على خلاف مع كليمنت السابع وبول الثالث ، حتى فيما يختص بالسماح بلحيشه بنهب روما . ولم يستطع الإمبراطور والبابا محاربة الثورة الدينية باقتدار ، إلا عند ما أصبحا صديقين .

ولكن ما أن حل عام ١٥٢٧ حتى كانت « المهرطقة اللوثرية قد أصبحت مذهباً للمحافظين في نصف ألمانيا ، ووجدت المدن أن البروتستانتية تعود عليها بالفائدة وقال ميلانكتون في أسى «إنهم لا يزالون ، ولو قليلا ، بالدين ، وهم لا يتطلعون إلا إلى وضع الأملأك بين أيديهم ، وأن يتحرروا من أشرف الأساقفة»^(١) . ونجوا بتغيير طفيف للمسوح الدينية من الضرائب والمحاكم ، واستطاعوا أن ينزعوا أجزاء لا بأس بها من أملاك الكنيسة^(٢) ، ومع ذلك يبدو أن رغبة صادقة في دين يتميز بالبساطة والإخلاص ، قد أثارت الكثير من المواطنين . ففي ماجديبرج اجتمع عدد من أعضاء أبرشية سانت أولريخ في فناء الكنيسة ، واختاروا ثمانية رجال ، لكي ينتخبوا بدورهم الواعظ ، وليديروا شئون الكنيسة (١٥٢٤) وسرعان ما كانت كل الكنائس في المدينة تناول العشاء الربانى بالطريقة اللوثرية . وكانت أوجسبورج شديدة الحماسة للبروتستانتية ، إلى حد أن العامة لقبوا كامبيجيو ، عند ما وصل هناك بصفته قاصداً رسولياً للبابا ، بأنه خصم للمسيح (١٥٢٤) . وتقبل معظم أهالى ستراسبورج اللاهوت الجديد من ولفجانج فابريسيوس كاييتو (١٥٢٣) ، وحمل مارتن بوسر الذى خلفه هناك في أولم على امتناق الدين الجديد أيضا . وفي نورمبرج كسب كبار رجال الأعمال ، أمثال لازاروس شيبينجلر وهيرونييموس باومجيرتر ، مجلس المدينة إلى

صف العقيدة اللوثرية (١٥٢٦) ، وحولت كنيسة زيبالدوس وكنيسة مورنز الشعائر التي تقام فيهما لتكون وفق هذه العقيدة ، بينما احتفظنا بفهمنا الكاثوليكي . وانتشرت مؤلفات لوثر انتشاراً واسعاً في برونزفيك ، ورتلت أناشيده علناً ، ودرست نسخته عن العهد الجديد باهتمام وجد ، حتى أن المصلين قاموا بتصحيح خطأ وقع فيه قسيس ، وهو يستشهد بقرات منها ، وفي نهاية الأمر أصدر مجلس المدينة أمراً إلى كل رجال الدين ألا يرددوا في عظاتهم إلا ما وجد في نصوص الكتب المقدسة ، وأن يقوموا بمراسيم العماد باللغة الألمانية وأن يناولوا القربان المقدس بكلا الشكائين (١٥٢٨) . وما إن حل عام ١٥٣٠ حتى كان المذهب الجديد قد كسب إلى صفه هامبورج وبريمن وروستوك ولوبيك وسترازوند ودانزج ودوربات وريجا وريفال وكل المدن الإمبراطورية في سوايا تقريباً . وشبت ثورات لتحطيم الأصنام في أوجسبورج وهامبورج وبرونزفيك وسترازوند . ولعل جانباً من هذا العنف كان رد فعل لاستخدام رجال الدين للتماثيل والصور الزيتية ، لغرس أساطير مضحكة ، تعود عليهم بالريج ، في عقول الناس .

وليس من شك في أن الأمراء الذين تبنوا باغتياب القانون الروماني ، الذي يجعل الحاكم الزمناً قادراً على الكثير باعتباره مفوضاً من « الشعب صاحب السيادة ، قد رأوا في البروتستانتية ديناً لا يرفع من شأن الدولة فحسب ، بل جعلها تتمثل لأوامرها أيضاً ، وأصبح في وسعهم وقتذاك أن يكونوا سادة روحيين وزمنيين على السواء ، ويمكن أن يديروا الكنيسة بأسرها أو يستمتعوا بها . وقبل جون الحازم الذي خلف فرديريك الحكيم كأمر مختار لساكسونيا (١٥٢٥) أن يعتنق بصفة نهائية العقيدة اللوثرية ، وهو ما لم يفعل فرديريك قط ، وحينما مات جون (١٥٣٢) فإن ابنه جون فرديريك أبقى البروتستانتية موطدة في ساكسونيا الانتخابية ، وكون فيليب الشهم لاندجراف هس مع جون حلف جوثا وتورجا لحماية اللوثرية

ونشرها ، وانخرط في سلك اللوثرية أمراء آخرون : أرنست اللونبيرجى ، وأوتو وفرانسس أمير برونزفيك لونبيرج ، وهنرى أمير ميكلينبورج وأولريخ أمير فيرتيمبرج . واستمع ألبرت ، البروسى كبير رهبان دير الفرسان اليتوتونيين ، إلى نصيحة لوثر ، وتخلّى عن عهوده الرهبانية ، ونزوح وخصص الأراضي التي تملكها طائفته للأغراض الدنيوية ، ونصب نفسه دوقاً على بروسيا (١٥٢٥) . ورأى لوثر نفسه ، فيما يبدو ، بقوة شخصيته وفصاحته فحسب ، يكسب إلى صفه نصف ألمانيا .

ولما كان الكثيرون من الرهبان والراهبات يتركون أديرتهم وقتذاك ، وبدا أن الجمهور لا يريد أن يؤيد من بقي منهم ، فإن الأمراء اللوثرين اضطهدوا كل الأديرة الواقعة في أقاليمهم ، ولم يستثنوا إلا قلة كان نزلاؤها قد اعتنقوا العقيدة البروتستانتية ، ووافق الأمراء على أن يتفاسموا الأملاك المصادرة والدخول مع النبلاء والمدن وبعض الجامعات ، ولكن هذا التعهد نقض في تراخ . وندد لوثر بتخصيص الثروة الكنسية لغير الأغراض الدنيوية أو التعليمية ، وأدان استيلاء طبقة النبلاء المتسم بالتهور على مباني الكنيسة وأراضيها . وتم التنازل عن جانب متواضع من الغنائم للمدارس وللتثريج عن الفقراء . أما الباقي فقد احتفظ به الأمراء والنبلاء . وكتب ميلانكون (١٥٣٠) يقول : « تحت ستار الإنجيل كانت نية الأمراء متجهة إلى سلب الكنائس فحسب » (٣) . وأخذ التحول العظيم يسير قدماً إلى الأمام للخير أو للشر . لأغراض روحية أو مادية ، واعتنقت مقاطعات بأكلها - إيست فريزلانند وسيليزيا وشليزفيج وهولستين - البروتستانتية بالإجماع تقريباً . ولا شيء يمكن أن يوضح مدى ما وصلت إليه الكاثوليكية المحتضرة خيراً من هذا . وحيثما بقي التساوسة استمروا في تأييدهم لاتخاذ حظايا (٤) . ورفعوا عقائدهم بالصياح ، مطالبين بالسماح لهم بالزواج الشرعى ، كما يفعل رجال الدين من أتباع لوثر (٥) . وأبلغ الأرشيدوق فرديناند البابا بأن الرغبة في الزواج تكاد تكون عامة بين رجال الدين الكاثوليك من غير الرهبان ، وأنه لا يكاد يوجد واحد من بين كل مائة من القسس

لم يتزوج علناً أو سراً . وتوسل الأمراء الكاثوليك للبابا وأبلغوه أن إلغاء العزوبة المفروضة على رجال الدين قد أصبحت ضرورة أخلاقية^(٦) . وشكا كاثوليكي مخلص (١٥٢٤) من أن الأساقفة استمروا في إقامة الولاثم الفخمة^(٧) ، على الرغم من أن الثورة كانت تطرق أبوابهم . وكتب مؤرخ كاثوليكي ، وهو يتحدث عن البرخت كبير أساقفة ماينز ، يصف « الشقى الفاخرة الأثاث التي استغلها هذا الأمير الدنس من أمراء الكنيسة لمضاجعة عشيقته سراً »^(٨) . ويقول نفس المؤرخ : « لقد أصبح كل إنسان يناصب القسوس العداوة ، إلى حد أنهم يقابلون بالسخرية ، ويتعرضون للمضايقات أينما ذهبوا »^(٩) ، وكتب أرازاموس (٣١ يناير عام ١٥٣٠) يقول : « إن الناس في كل مكان يؤيدون العقائد الجديدة »^(١٠) . ومهما يكن من أمر فقد كان هذا صحيحاً في شمال ألمانيا فقط ، وحتى هناك أصر الدوق جورج أمير ساكسونيا والأمير المختار جواكيم البراندنبورجى على أن يظلا كاثوليكين أما جنوب ألمانيا وغربها ، اللذان كانا جزءاً من الإمبراطورية الرومانية القديمة ، وتلقى أهلها شيئاً من الثقافة اللاتينية ، فإنهما ظلا في معظم أجزائهما يدينان بالولاء للكنيسة ، وآثر جنوبها الطرق المرححة الملونة التي تنحون نحو التساهل في المسائل الجنسية ، والتي تميزت بها الكاثوليكية ، وفضلتها على فاسفة الرواقية التي تقول بالخبير ، وتسود في الشمال . وحافظ كبيرو الأساقفة المختارون الأقوياء في ماينز وترير وفي كولونيا (إلى عام ١٥٤٣) على أن تسود الكاثوليكية في بلادهم ، وأنقذ البابا أريديان السادس بافاريا بمنح دوقاتها خمس دخل الكنيسة في ولايتهم ، لصرفه على شئونهم الدنيوية . وهدأت منحة مماثلة من دخول الكنيسة من سورة غضب فرديناند في النمسا .

ودخلت هنغاريا إلى المسرح بصورة جوهريّة . وكان ارتقاء لويس الثانى للعرش قبل الأوان ، وهو فى العاشرة من عمره ، ووفاته أيضاً فى سن مبكرة ، من العوامل التى أسهمت فى تكوين المأساة الهنغارية . بل إن مولده حدث قبل الأوان وأنقذ الأطباء فى ذلك العهد حياة الطفل الضعيف

بوضعه داخل الجثث الدافئة للحيوانات التي كانت تذبح ، لتوفر له الحرارة . وترعرع لويس وأصبح شاباً وسيماً رقيق الفؤاد كريماً ، ولكنه اعتاد التبذير وإقامة الولائم رغم موارد الهزيلة ، وسط حاشية فاسدة تفتقر إلى الكفايات . وعند ما أرسل السلطان سليمان سفيراً إلى بودا رفض النبلاء أن يستقبلوه ، وطافوا به حول البلد وجدعوا أنفه ، وصلموا أذنه ، وأعادوه إلى سيده (١١) . فما كان من السلطان الخانق إلا أن غزا هنغاريا ، واستولى على معقلين من أعظم معاقلها حيوية ، وهما ساباكس وبلغراد (١٥٢١) . وبعد تمهل طويل ووسط خيانة نبلائه وجبنهم جهز لويس جيشاً قوامه ٢٥,٠٠٠ من الرجال ، وزحف في بطولة متهورة ليواجه ١٠٠,٠٠٠ تركي في ميدان قرب موهاكس (٣٠ أغسطس سنة ١٥٢٦) . وقتل الهنغاريون عن بكرة أبيهم تقريباً . وغرق لويس نفسه ، بعد أن كبا به جواده ، وهو يحاول الفرار . ودخل سليمان مدينة بودا منتصراً ونهب جيشه العاصمة الجميلة وأحرقها ، ودمر كل مبانيها العظيمة ما عدا القصر الماكني ، وأشعل النيران في الجانب الأكبر من مكتبة ماتياس كورفينوس الثمينة .

وانتشر الجيش المنتصر في النصف الشرقي من هنغاريا ، وأخذ يحرق وينهب ، واستاق سليمان ١٠٠,٠٠٠ أسير مسيحي إلى القسطنطينية .

وانقسم الأقطاب ، الذين بقوا على قيد الحياة ، فرقاً وأحزاباً ، يناصب بعضها بعضاً العدا ، ورات جماعة أن المقاومة مستحيلة ، فاختارت جون زابوليا ملكاً وخولته سلطنة توقيع معاهدة استسلام ، وسمح له/سليمان أن يحكم في بودا ، باعتباره تابعاً له ، أما النصف الشرقي من هنغاريا فقد ظل في الواقع تحت سيطرة الأتراك حتى عام ١٦٨٦ . واتخذ حزب آخر مع النبلاء في بوهيميا لمنح فرديناند تاج كل من هنغاريا وبوهيميا ، وذلك بأول ضمان الحصول على مساعدة الإمبراطورية الرومانية المقدسة وأسرة هابسبورج القوية . وعند ما عاود سليمان الهجوم (١٥٢٩) ، وسار ١٣٥ ميلاً من

بودا على طول نهر الدانوب إلى أبواب فينا دافع فرديناند بنجاح عن عاصمته ، ولكن في خلال هذه السنوات الحرجة كان شارل الخامس قد أكره على مهادنة البروتستانت ، حتى لا تسقط أوربا كلها في أيدي الإسلام ، وليس من شك في أن تقدم الأتراك غرباً قد وفر الحماية للبروتستانتية حتى أن فيليب الهسي كان يطرب لانتصارات الأتراك . وعند ما فشل سليمان في اقتحام فينا عاد إلى القسطنطينية ، وبذلك أصبح الكاثوليكية والبروتستانت أحراراً ليدخلوا من جديد في صراع من أجل رو- ألمانيا .

٢ - مجالس الدايت لا توافق

(١٥٢٦ - ١٥٤١)

لما كانت الحرية الداخلية تختلف (بينما تتساوى أمور أخرى) باختلاف درجات الأمن الخارجي ، فإن البروتستانتية تورطت ، أثناء فترة أمنها ، في انقسام طائفي ، يبدو أنه كان كامناً في مبادئ الحكم الفردي وسيادة الضمير . وكتب لوثر عام ١٥٢٥ : « هناك اليوم طوائف وعقائد بقدر عدد الروثوس تقريباً »^(١٢) . وشغل ميلانكيون نفسه في حزن بالتحفيف من حدة سيده ، وأخذ يتلمس صيغاً مبهمة للتوفيق بين اليقينيات المتناقضة . وأشار الكاثوليك باغتباط إلى الأحزاب البروتستانتية ، التي تتبادل الاتهامات ، وتنبأوا بأن حرية التفسير وحرية الاعتقاد تؤديان إلى فوضى دينية . وانحلال خلقي ، وشككية بغیضة إلى البروتستانت والكاثوليك على السواء^(١٣) . وفي عام ١٥٢٥ أقصى من مدينة نورمبرج البروتستانتية ثلاثة من الفنانين لأنهم تساءلوا عن مؤلف الإنجيل ، وعن وجود المسيح بجسده حقاً في القربان المقدس ، وعن ألوهية المسيح .

وبينما كان سليمان يعد الحملة ، التي مزقت هنغاريا إلى شطرين ، اجتمع في سببر (يونيه سنة ١٥٢٦) مجلس نيابي من الأمراء والبطارقة والأوساط من الألمان ، لتبادل الرأي في المطالب التي تقدم بها الكاثوليك ، وموآداها أن مرسوم ورمس يجب أن ينفذ بالقوة والنظر في الاقتراح المضاد الذي

تقدم به البروتستانت ، ومؤداه أن الدين يجب أن يترك حراً ، إلى أن يقضى في النزاع مجلس عام ، تحت رعاية ألمانيا . ورجحت كفة البروتستانت وقضى مرسوم هذا المجلس النيابي في الختام - وهو معلق على مجلس مثل هذا - بأن كل ولاية ألمانية « يجب أن تعيش وتحكم وتتحمل أعباء نفسها ، بالطريقة التي يعتمد أنها يمكن أن تتفق مع أمر الله والإمبراطور » ، وذلك في موضوع الدين ، وأنه يجب ألا يعاقب أحد على ما ارتكبه من إساءات لمرسوم ورمس ، وأن كلمة الله يجب أن يعظ بها كل الأحزاب ، دون أن يتدخل أحدها في شؤون الآخرين . وفسر البروتستانت هذا بأنه « مرسوم سبيير » ، باعتبار أنه أباح تأسيس الكنائس اللوثرية ، ووفر السيادة الدينية لكل أمير في إقليمه ، وحرّم إقامة القداس في المناطق التي تدين بمذهب لوثر . ورفض الكاثوليك التسليم بهذه الدعوى ، ولكن الإمبراطور ، وهو مشتبك مع البابا ، قبلها مؤقتاً ، وسرعان ما انشغل فرديناند ، إلى أقصى حد ، بشؤون هنغاريا ، فلم يستطع أن يبذل أى مجهود فعال للمقاومة .

وبعد أن حتمت شارل السلام بينه وبين كليمنت ، عاد إلى سياسة المحافظين ، التي فطر عليها كل ملك ، وأمر المجلس النيابي في سبيير أن يعود إلى الانعقاد يوم أول فبراير عام ١٥٢٩ . وقام المجلس الجديد تحت تأثير الأرشيدوق ، الذي تولى رئاسته ، والإمبراطور الذي تغيب عن الحضور بلغاء « المرسوم » الذي وافق عليه عام ١٥٢٦ ، وأصدر مرسوماً يسمح بأداء الصلاة وفق مذهب لوثر ، ولكنه يقضى بالتسامح في أداء الصلوات الكاثوليكية ، في الولايات التي تعتنق مذهب لوثر . ويحرم تماماً الرعظ بمبادئ لوثر أو إقامة الشعائر حسب مذهبه في الولايات الكاثوليكية . وأيد تنفيذ مرسوم ورمس ، واعتبار الطوائف الزونجالية واللامعمدانية في كل مكان خارجة على الترانون . وفي يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٢٩ نشرت الأقلية اللوثرية « احتجاجاً Protest » أعلنوا فيه أن الضمير يحرم عليهم قبول هذا المرسوم ، والتمسوا من الإمبراطور عقبة مجلس عام . وفي الوقت

نفسه أعلنوا أنهم على استعداد للتمسك بمرسوم سبيير الأصلي بأى ثمن .
وأطلق الكاثوليك اسم بروتستانت على من وقعوا هذا الاحتجاج ، وبالتدريج
استخدم للدلالة على الألمان المتمردين على روما .

وأدرك شارل أنه لا يزال فى حاجة إلى اتحاد ألمانيا ضد الأتراك ، فدعا
إلى الانعقاد مجلساً نيابياً آخر ، فانعقد فى أوجسبورج (٢٠ يونيو عام ١٥٣٠)
برئاسته . وفى خلال دورة هذا المجلس أقام مع أنطون فوجر ، وكان
وقتذاك رئيساً للمؤسسة ، التى جعلت منه إمبراطوراً . وطبقاً لقصة قديمة
أدخل المصرفى السرور على قلب الحاكم بإشعال نار ألقى فيها بشهادة ، يقر
فيها الإمبراطور بمد يونيته^(١٤) ، ولما كان آل فوجر مرتبطين مالياً مع البابوات ،
فإن الحركة المذكورة ربما تكون قد دفعت شارل إلى أن يخطو خطوة يقرب
بها من البابوية . ولم يحضر لوثر لأنه كان لا يزال تحت الحظر الإمبراطورى ،
ومن الممكن أن يقبض عليه فى أى لحظة ، وأمكنه ذهب إلى كوبرج الواقعة
على حدود ساكسونيا ، واستمر فى الاتصال بالوفد البروتستانتي عن طريق
الرسل . وشبه المجلس بجمع من غربان الزرع ، التى تصفق أجنحتها ،
وتناور أمام نوافذ بيته ، وشكها من أن « كل أسقف جاء ومعه شياطين
كثيرة ، بقدر عدد البراغيث على جسد كلب فى يوم عيد القديس يوحنا »^(١٥) .
وكان من الواضح فى هذا العهد أنه ألف أعظم أناشيده « الحصن الحصين
هو ربنا » .

وفى يوم ٢٤ يونيو التمس الكاردينال كامبيجيو من المجلس النيابى تحريم
إنشاء الطوائف البروتستانتية تحريماً تاماً . وفى الخامس والعشرين قرأ كريستيان
باير الإمبراطور ولجانب من المجلس إقرار أوجسبورج الشهير ، الذى كان
ميلانكتون قد أعدده ، والذى قدر له أن يصبح بشىء من التعديلات العقيدة
الرسمية للكنائس اللوثرية . ولأن ميلانكتون قد خشى قيام القوات الإمبراطورية
والبابوية معاً بحرب ضد البروتستانت المنقسمين من ناحية ، ولأنه كان
يميل بفطرته إلى المهادنة والسلام من ناحية أخرى ، أضفى على الإقرار

(كما يقول باحث كاثوليكي) « لهجة مشرفة معتدلة مسالمة » (١٦) . وسعى إلى تقليل الخلافات بين آراء الكاثوليك وآراء اللوثرين ، وأفاض في المرطقات التي أداها الإنجلييون (كما كان اللوثريون يسمون أنفسهم بسبب اعتمادهم فحسب على الأناجيل أو على العهد الجديد) والكاثوليك الرومان على السواء ، وفرق بين الإصلاح اللوثرى والإصلاح الزونجلى ، وترك الأخير يتحامل لنفسه . وخفف من العقائد التي تقول بالخبرو « التجسيد » والتزكية بالإيمان ، وكتب باعتدال عن مظالم رجال الدين ، التي كانت البروتستانتية قد قللت منها ، ودافع مجاملا عن تناول القربان المقدس في كل من الشكليين ، وعن التحلل من عهود الرهبانية ، وعن زواج رجال الدين ، وطلب من الكاردينال كامبيجيو أن يتقبل هذا الإقرار بقبول حسن ، كما دججه به . وأسف لوثر لبعض ما قدمه من تنازل ، ولكنه أعرب عن رضاه ، الذي لم يكن منه مفر ، عن هذه الوثيقة ، وأرسل زونجلى تقريره إلى الإمبراطور وقد أعرب فيه بصراحة عن عدم إيمانه بوجود المسيح بجسده في القربان المقدس ، وقدمت ستراسبورج وكونستاتس ولينداو وممنجن إقراراً منفصلاً هو : *Tetra Politana* ، وفيه جاهد كاييتو وبوسر . لسد الثغرات ، التي بدت بين العقائد اللوثرية والزونجلية والكاثوليكية .

ورد الحزب المنتطف من الكاثوليك الذي يزعمه إليك رداً مدعماً بالبراهين ، فندوا فيه الاتهام بصورة لا تقبل التفاهم ، إلى حد أن المجلس رفض أن يقدمه إلى الإمبراطور ، حتى خففت لهجته مرتين . وعلى الرغم من مراجعته فإنه أصر على التجسيد والشعائر السبع والتوسل بالقديسين وفرض العزوبة على رجال الدين ومناولة القربان بالخبز والقداس باللغة اللاتينية ، ووافق شارل على هذا الرد المدعم بالبراهين ، وأعلن أن على البروتستانت أن يقبلوه وإلا واجهوا الحرب .

ولقد تفاوض حزب أكثر اعتدالا من الكاثوليك مع ميلانكتون ،

وعرضوا عليه السماح بتناول القربان بالخبز والتبيل . فوافق ميلانكتون بدوره على التسليم بالاعتراف السماعي والصيام والسلطة القضائية للأساقفة ، بل وسلطة البابوات ، مع بعض التحفظات ، غير أن الزعماء البروتستانت الآخرين رفضوا أن يذهبوا في الاتفاق إلى هذا الحد ، واحتج لوثر ، وقال : إن إعادة الولاية القضائية للأساقفة سيؤدي إلى إخضاع القسس الجدد للدرجات الكهنوتية في الكنيسة الكاثوليكية الرومانية ، وإلى تصفية الإصلاح الديني في أقرب وقت . ورأى عدد من الأمراء البروتستانت استحالة الاتفاق ، فعادوا أدراجهم إلى أوطانهم .

وفي التاسع عشر من نوفمبر أصدر المجلس النيابي ، الذي كان قد نقص عدد أعضائه ، مرسومه النهائي أو مرسومه الأخير ، وقد أدينت فيه كل وجوه البروتستانتية ، ونص على تنفيذ مرسوم ورمس ، وعلى مجلس العدالة الإمبراطوري أن يبدأ في اتخاذ الإجراءات التماثونية ضد جميع الذين انتزعوا أملاك الكنيسة ، وأعطى البروتستانت مهلة تنتهي في ١٥ أبريل عام ١٥٣١ لقبول الرد المدعم بالبراهين بطريقة سلمية . وأضفى توقيع شارل على « مرسوم أوجسبورج » صفة المرسوم الإمبراطوري ولا بد أن الإمبراطور قد خال أن منح المتمردين مهلة الشهور الستة ، لكي يروضوا أنفسهم على تنفيذ إرادة المجلس النيابي ، فدوة التعقل ، وفي خلال تلك الفترة عرض عليهم الإغفاء من تنفيذ مرسوم ورمس ، ولذلك فإنه قد يقدم . إذا سمحت واجبات أخرى ، التواعد المتناظرة في علم اللاهوت إلى محكمة الحرب العليا .

وبينما كان المجلس النيابي في ذروة انعماده أقامت عدة ولايات حلفاً كاثوليكياً فيما بينها ، للدفاع عن العقيدة التتلميدية واستعادتها . وفسر هذا بأنه نذير بالحرب ، فنظم الأمراء البروتستانت والمدن البروتستانتية الحلف الشهايكالدي ، الذي اتخذ اسمه من موطنه الأصلي بالقرب من أرفورت .

وعندما انتهت مهلة العفو ، اقترح فرديناند ، الذى أصبح وقتذاك ملكاً على الرومان ، أن يبدأ شارل بالحرب ، ولكن شارل لم يكن على استعداد ، وكان سليمان يخطط لهجوم آخر على فينا ، كما أن بارباروسا حليف سليمان كان يغير على السفن التجارية فى البحر الأبيض المتوسط ، يضاف إلى ذلك أن فرانسيس ملك فرنسا - وهو حليف سليمان أيضاً - كان يتأهب للانتفاض على ميلان فى اللحظة التى يتورط فيها شارل فى حرب أهلية بألمانيا . وفى أبريل عام ١٥٣١ أوقف شارل مرسوم أوجسبورج بدلا من وضعه موضع التنفيذ ، وطلب المعونة من البروتستانت لقتال الأتراك ، فاستجاب لوثر والأمراء معربين عن ولائهم ، ووقع اللوثريون والكاثوليك معاهدة سلام فى نورمبرج (٢٣ يولييه عام ١٥٣٢) ، وتعهدوا بتقديم العون إلى فرديناند ، والتسامح الدينى فيما بينهما إلى أن ينعقد مجلس دينى عام . واحتشد جيش كبير من الألمان البروتستانت والكاثوليك ، ومن الأسبان والإيطاليين والكاثوليك ، تحت لواء الإمبراطور فى فينا ، فوجد سليمان أن الظروف غير مواتية . فعاد أدراجه إلى القسطنطينية ، بينما انتشى الجيش المسيحى بنحمر النصر ، الذى خلا من إراقة الدماء ، وأعمل يد السلب والنهب فى المدن والبيوت ، وقال شاهد عيان هو توماس كرانمر الإنجليزى « وأوقع بالبلاد كارثة أعظم مما جلبه الأتراك أنفسهم » (١٧) .

ولقد أضفت وطنية البروتستانت على حركتهم رفعة جديدة ودفعة قوية ، وعند ما عرض إيماندر ، الذى عين رسولا بابوياً مرة أخرى ، على الزعماء اللوثرين سماع دعواهم أمام مجلس عام ، إذا وعدوا بالامتنال لقرارات المجلس النهائية ، رفضوا الاقتراح ، وبعد مرور عام (١٥٣٤) قبل فيليب الهسى العون الفرنسى ، لكنى يستعيد الدوق أولريخ البروتستانى السلطة فى فيرتمبورج ، مستخفاً بإدانة لوثر لانتهاج سياسة هجومية . وقضى هناك على حكم فرديناند ، ونهبت الكنائس وأغلقت الأديرة ، واستولت الحكومة على أملاكها (١٨) . وأصبحت الظروف مرة أخرى مواتية للبروتستانت .

فقد كان فرديناند مشغولاً في الشرق ، وشارل منهكاً في الغرب ، وكان من الواضح أن اللامعمرانيين يدعمون ثورة شيوعية في منستر . واستولى المتطرفون في يورجن فولنفيغر على لوبيك (١٥٣٥) ، وأصبح الأمراء الكاثوليك في ذلك الوقت في حاجة إلى عون لوثر ، لمواجهة الثورة الداخلية ، بقدر حاجتهم إليه في حربهم ضد العثمانيين ، وفضلاً عن هذا فإن اسكنديناوة وانجلترا تخلتا عن روما في هذا الوقت ، وأخذت فرنسا الكاثوليكية تنشده التحالف مع ألمانيا اللوثرية ضد شارل الخامس .

وطرب الحلف الشمالي الكالدي بهذه القوة النامية ، فطالب بحشد جيش قوامه ١٢,٠٠٠ رجل ، وعند ما سأل البابا الجديد بول الثالث عن الشروط ، التي يقبل بها الحلف مجلساً دينياً عاماً ، أجاب بأنه لن يعترف إلا بمجلس ينعقد مستقلاً عن البابا ، ويتألف من زعماء ألمانيا الزميين والدينيين على السواء ، وأنه يرحب بالبروتستانت ليشاركوا فيه على قدم المساواة (١٩) ، ولا يعتبرهم هراطقة . ورفض الحلف قبول مجلس العدالة الإمبراطوري ، وأبلغ نائب رئيس وزراء الإمبراطور أنه لن يسلم بحق الكاثوليك في الاحتفاظ بأمالك الكنيسة : أو بحقهم في التيام بالعبادة وفق شعائرهم في أراضي الأمراء البروتستانت (٢٠) . وجددت الولايات الكاثوليكية تكوين حائنها ، وطالبت شارل بدعم السلطات المخولة لمجلس العدالة الإمبراطوري ، فرد عليهم بكلمات رقيقة ، ولكن خوفاً من أن يطعنه فرانسيس الأول في ظهره بجعه في حرج .

واستمر المد البروتستانتي يتعاضم ، ويقول مؤرخ كاثوليكي : « في اليوم التاسع من سبتمبر عام ١٥٣٨ كتب ألياندر إلى البابا من مدينة لينز يقول إن الحالة الدينية في ألمانيا منبهة تقريباً ، وقد كادت تتوقف عبادة الله ، ومناولة القربان . وكان الأمراء الزمزيون جميعاً ، ما عدا فرديناند الأول ، إما من أتباع لوثر المخلصين ، أو ممن يمتنون نظام التساوسة متقياً بالغا ، ويطمعون في أملاك الكنيسة . أما البطارقة ، فكانوا يعشرون في بلدخ

كعهدهم من قبل . وتضاءلت الرتب الدينية إلى ما يعد على أصابع اليدين ، ولم يكن رجال الدين من غير الرهبان أكثر عدداً ، وكانوا على درجة من الانحلال والجهل . إلى حد أن بعض الكنائس أعرضوا عنهم « (٢١) .

وعند ما توفي اللوق الكاثوليكي جورج صاحب البرتين ساكسونيا ، خلفه شقيقه هنرى . وكان من أتباع لوثر ، وخلف موريس بلوره هنرى وكان المنفذ العسكري للبروتستانتية في ألمانيا . وفي عام ١٥٣٩ شيد يواقيم الثاني الأمير الخنزار في براندنبورج كنيسة بروتستانتية في عاصمته برلين معترفاً باستقلالها عن كل من روما وفيتنبرج . وفي عام ١٥٤٢ أضيفت إلى قائمة البروتستانت دوقية كليفيس وأسقفية نارمبورج بل وكبرى أسقفية ألبرخت في هال بطريقة جمعت بين السياسة والحرب كل في حينه . وفي عام ١٥٤٣ روع الكونت هرمان فون فيد ، كبير أساقفة كولون وأميرها الخنزار ، روما بتحويله إلى المذهب اللوثرى ، وكان الزعماء اللوثريون واثقين بأنفسهم إلى حد أن لوثر وميلانكتون وآخرين أصدروا في يناير عام ١٥٤٠ بياناً ينص على أن السلام لا يمكن أن يسود إلا بتخلي الإمبراطور ورجال الدين الكاثوليك عن « عبادتهم للأوثان وضلالهم » . ولن يتم ذلك إلا باعترافهم العقيدة الطاهرة ، التي وردت في إقرار أوجسبورج ، واستطردت الوثيقة تقول : « حتى إذا كان على البابا أن يسلم لنا بما نعتقد من عقائد ، وما نقوم به من شعائر ، فإننا مضطرون إلى معادلته باعتباره ظالماً متعسماً ، منبوذاً ، ما دام أنه لن يتبرأ من أخطائه في ممالك أخرى » . وقال لوثر : « لقد انتهى كل ما بيننا وبين البابا كما انتهى ما بيننا وبين ربه ، الشيطان » (٢٢) .

ووافق شارل ، أو كاد ، لأنه اتخذ زمام المبادرة من البابا في أبريل عام ١٥٤٠ ، ودعا زعماء الكاثوليك والبروتستانت في ألمانيا إلى الاجتماع في « ندوة مسيحية » ، ليجتثوا مرة أخرى عن تسوية سلمية لخلافاتهم ، وكتب قاصد رسولى « ما لم يتدخل البابا بطريقة حساسة ، فإن ألمانيا بأسرها سوف تسترط في براثن البروتستانت » . وفي مؤتمر تمهيدي بورمس دار

جدال طويل بين إيلك وميلانكتون ، انتهى إلى أن الكاثوليك ، الذين كانوا يرفضون من قبل البطاركة ، قبلوا على سبيل التجربة المبادئ ، التي تدل على رحابة الصدر ، والتي صيغت في إقرار أوجسبورج (٢٣) ، وتشجع شارل فاستدعي جماعتين إلى راتيسبون (رجنزبورج) ، وهناك عقدا اجتماعاً تحت رئاسته (٥ أبريل — ٢٢ مايو عام ١٥٤٢) . وتقاربت آراؤهما إلى أقصى حد ، للوصول إلى تسوية ، وكان بول الثالث على استعداد للسلام ، وكان كبير مندوبي الكاردينال جاسبارو كونتاريني رجلاً حسن النية وعلى خلق رقيق . أما الإمبراطور فقد أزعجته تهديدات فرنسا واستغاثة فرديناند به ، لمعاونته على صد الأتراك ، الذين عادوا للإغارة عليه ، ولهذا كان توافقاً جدياً إلى عقد الاتفاق المنشود ، إلى حد أن الكثيرين من زعماء الكاثوليك ارتابوا في أن له ميولاً بروتستانتية . وتلاققت آراء المشتركين في المؤتمر وانتهت إلى السماح بزواج رجال الدين ، وتناول القربان بالأسلوبين المعروفين ، ولكن ما كان لأى شعوزة أن تجرد في الحال صيغة تؤكد وتنفي في الوقت نفسه رئاسة البابوات الدينية والتجسيد في القربان المقدس ، ولم يجد كونتاريني تفكها في سؤال وجهه إليه بروتستانتى عما إذا كان الفأر الذى يقرض قطعة سقطت من القربان المقدس ، يأكل الخبز أم الرب (٢٤) ، وفشل المؤتمر ، لكن شارل قطع على نفسه عهداً موقوتاً للبروتستانت ، وهو يخف للحرب ، بعدم اتخاذ أى إجراء ضدهم لتسكينهم بالعقائد المنصوص عليها في إقرار أوجسبورج ، أو لاحتفاظهم « بأدلاك الكنيسة المصادرة » .

وفي خلال هذه السنوات التي اشتد فيها الجدل وازداد ، كانت العقيدة الجديدة قد أنشأت كنيسة جديدة ، وأطلقت على نفسها اسم الكنيسة الإنجيلية بناء على اقتراح من لوثر . وكان أصلاً قد ناضل في سبيل تحقيق ديمقراطية كهنوتية ، تنتخب فيها كل طائفة من المصلين قسيسها الخاص ، وتحدد ما تقوم به من شعائر ، وما تعتنقه من عقيدة ، ولكن اعتماده المتزايد على الأمراء اضطره إلى التسليم بهذه الامتيازات للبعثات التي عينتها الدولة ، وتعد مسئولة عنها .

وفي عام ١٥٢٥ أصدر جون الأمير المختار لساكسونيا أمراً بجمع الكنائس الراقعة في دائرة دوقيته بأداء الصلاة ونق المذهب الإنجيلي ، كما صاغه ميلان، كتون بالاتفاق مع لوثر ، وكل من يرفض الإمتثال لهذا الأمر من الفسائوسة يفقد مستحقته ، ويُنفي العلمانيون المتشبهون بأرأهم بعد فترة يمهلون فيها (٢٥) . وحلدا حذوه أمراء آخرون من أنصار لوثر واتخذوا إجراء مماثلاً . وكتب لوثر في خمس صفحات **Kleiner Katechismus** ، ويتألف من اوصايا العشر ، التي وردت في عقيدة الرسل ، وتفسيرات موجزة اكل وصية ، وكان من الممكن أن يعد نصاً محافظاً جداً ، يعود إلى القرون الأربعة الأولى للمسيحية .

كان التساوسة الجدد بوجه عام رجالا يتصفون بالأخلاق الحميدة متضلعين في الكتاب المقدس ، لا يعبأون بالتضلع في علوم الإنسانيات ، ويكرسون حياتهم لأداء واجباتهم في أبرشياتهم . وروعيت إقامة الصوات يوم الأحد ، كما كانت تقام يوم السبت عند اليهود ، وهنا رضى لوثر باتباع التقاليد ، أكثر مما راعى ما ورد في الكتاب المقدس ، واحتفظت «عبادة الرب» بكثير من شعائر الكاثوليك - المذبح والصابر والشموع والثياب الكهنوتية وأجزاء من القداس باللغة الألمانية ، واكن الموعظة حظيت باهتمام أكبر ، لتاعب دوراً أعظم ، ولم تكن هناك صوات تقام للعدراء والقديسين ، ونبذت الصور والتماثيل الدينية ، وتحوات عمارة الكنيسة ، بحيث تتيح للعابدن سماع الواعظ بسهولة ، وأصبحت الأروقة معلماً مألوفاً في الكنائس البروتستانتية . ومن أجل ما استحدثت المشاركة الفعلية لجماعة المصلين في عزف الموسيقى ، التي تصحب أداء الشعيرة . فحتى صاحب الصوت النشاز يتوق للاشتراك في التراتيل ، وفي وسع كل صاحب صوت الآن أن يسمع نفسه في شغف ، دون أن يخشى أن يتعرف عليه أحد في هذا الجمع الحاشد . وأصبح لوثر شاعراً بين حشبة وضحاها ، وكتب أناشيد تعليمية ، يتخللها الحوار ، وتشير الإفهام . وتسم

بالقوة والحزالة ، وتنبض بالرجولة ، التي تتميز بها شخصيته ، ولم يكتف العابدون بتربيل هذه الأناشيد وغيرها من أمثالها البروتستانتية ، وإنما دعوا إلى إجراء تجارب عليها في غضون الأسبوع ، ورتابها عائلات كثيرة في البيوت . وقال أحد رجال الدين من اليسوعيين الذين أزعجهم هذا الأمر « إن أناشيد لوثر قضت على الأرواح (أخرجتها من دينها) أكثر مما فعلت عظاته » (٢٦) ، وارتقت الموسيقى البروتستانتية لتنافس التصوير الكاثوليكي في عصر النهضة .

٣ - أسد فيتنبرج ١٥٣٦ - ٤٦

لم يشترك لوثر مباشرة في المؤتمرات السلمية في سنوات الأفول هذه ، وأصبح الأمراء لا المشتغلون باللاهوت زعماء البروتستانت وقتذاك ، لأن مواضيع النزاع كانت تدور حول الملاكية والسلطان ، أكثر مما تدور حول العميدة والشحيرة . ولم يخلق لوثر للمفاوضة ، وكان قد تقدم في السن ، فلم يعد قادراً على الكفاح بأسلحة أخرى غير العلم . ووصفه رسول بابوى عام ١٥٣٥ ، بأنه ما زال قوياً ، يميل إلى المزاح (كان أول سؤال وجهه إلى هو هل سمعت الخبر ، الذي يتردد في إيطاليا ، وهو أني سيكير ألماني) (٢٧) ، ولكن هيكله المديد كان مأوى لكثير من الأمراض - سوء هضم وأرق ودوار ومغص وحصوات في الكليتين ودمامل في الأذنين وقرحات وداء النقرس وروماتزم وعرق النساء وخفقان في القلب . واعتاد أن يرجع الخمر ليخدر إحساسه بالألم ، ويستعين بها على النوم ، وجرّب جرعات من عقاقير وصفها له الأطباء ، وعكف على الصلاة ضجراً ، واشتدت عليه الأسقام ، ونخيل إليه في عام ١٥٣٧ أنه سيموت متأثراً بداء الحصوة ، فأصدر إنذاراً نهائياً للرب قال فيه : « إذا استمر هذا الألم يعصرني أكثر من هذا فإنني سوف أجن وأعجز عن إدراك رحمتك » (٢٨) . وكان مزاجه المتدهور يعكس ، بعض الشيء ، ما يقاسيه من آلام . وانصرف

أصله قاروه عنه . يوماً بعد يوم ، لأنه كما وصفه أحد مريلديه في حزن : « كان من الصعب على أحدنا أن يفلت من غضبه واقتصاصه منه عاناً » ، وكان ميلانكتون المعروف بالصبر يتلوى ألياً ، لكثرة ما يلقي من إذلال على يد صنميه ، النأي صنعه دون أن يصتمله ، ومما يؤثر عن لور أنه قال أما أوكيو ولا مباديوس وكانين . . . والمراطمة الآخرون فهم قلوب فاسدة ، ذلك لأن الشيطان احتوهم من الباطن والظاهر ، ومن الرأس إلى القدم ، ولهم السنة لا ننطق إلا كذباً » (٢٩) .

واكم حاول جاهداً أن يتوخى الاعتدال في رسالته « عن المجالس والكنايس » (١٥٣٩) ، وشبه الوعود البابوية المتكررة وتأجيل عقد مجالس عام أكثر من مرة بإثارة حفيظة حيوان جائع ، وذلك بتقديم الطعام له ثم انتزاعه منه . واستعرض تاريخاً ارتكز على المصالحاة ، وذلك بصورة تم على علم غزير ، وسجل أن عمدة مجالس كهنوتية كانت قد دعيت إلى الانعقاد ، ورأسها أباطرة - وفي هذا تلميح لشارل ، وأعرب عن شكه في أن يتروم أن مجالس ، دعاه البابا إلى الانعقاد ، بإصلاح الحكمة الرومانية ، وقبل إقرار حضور البروتستانت في مجلس للكنيسة « يجب أولاً أن ندين أسقف روما ، باعتباره طاغية ، وأن نحرق كل منشوراته ومراسيمه » (٣٠) .

وتوحي أراؤه السياسية في السنوات الأخيرة من عمره بأن السكوت من ذهب حتماً بعد سن السنين . وقد كان طوال حياته من المحافظين في السياسة ، حتى عندما ما اتضح أنه يشجع على قيام ثورة اجتماعية . وكانت ثورته الدينية موجهة إلى ممارسة الشعيرة ، أكثر مما وجهت إلى المبادئ النظرية . فتمد اعترض على الثمن الفادح الذي يدفع مقابل الحصول على صكوك الغفران ، واعترض فيما بعد على استبدال البابوات . ولكنه قبل إلى آخر لحظة من حياته أشق العقائد في مسيحية المحافظين - الثالث وولادة العذراء والتكبير عن الخطايا وحضور المسيح بجسده في القربان المقدس

والحجيم - وجعل بعض هذه العقائد تبدو مستساغة في نظر الناس أكثر من ذى قبل . وكان يزدري العامة من الناس ، وما كان أحراه بعد ذلك أن يصحح خطأ لينكولن الشهير في عدم الاكتراث بالعامة ، إن السيد «الجمهور» في حاجة إلى حكومة قوية ، حتى لا يطلق الناس غرائزهم الهمجية من عقابها ، وتبدد السلام ، وتبور التجارة . . . لا حاجة لأن يعتمد أحد أن العالم يمكن أن يحكم دون إراقة الدماء . . . إن العالم لا يمكن أن يحكم بمسبحة» (٣١) ، ولكن عند ما تفقد حكومة المسيحات سلطانها ، فمن الواجب أن تحل مكانها حكومة تعتمد على حد السيف . وعلى هذا كان لازماً على لوثر أن ينقل إلى الدولة معظم ما كانت تنعم به الكنيسة من سيطرة ، ومن ثم فقد دافع عن الحق الإلهي للملوك ، وفي هذا يقول : « إن اليد التي تدير السيف الدنيوي ليست يداً بشرية وإنما هي يد الرب . والرب (٣٢) ، لا الإنسان ، هو الذي يشنق ، ويحطم الضلوع على دولاب التعذيب ، ويقطع الرعوس بالمقصلة ، ويجلد بالسياط . والرب أيضاً هو الذي يشهر الحرب » . وفي هذا التجديد للدولة ، كما هو الحال الآن ، نجد أن المنبع الوحيد للنظام يضع بذور فلسفات هوبز وهيغل الاستبدادية ، وهو نذير بقيام ألمانيا الإمبراطورية . ولقد وجد هنرى الرابع في لوثر ما يؤيد إحضار هيبدراند إلى مدينة كانوسا .

وعند ما تقدم لوثر في السن أصبح محافظاً أكثر من الأمراء أنفسهم . وأقر الإكراه البدني على العمل ، والضرائب الإقطاعية الباهظة المفروضة على الفلاحين . وعند ما أحس أحد البارونات بتأنيب ضميره طمأنه لوثر على أساس أن مثل هذه الأعباء الثقيلة . إذا لم تفرض على العامة . فإنهم سوف يشمخون بأنوفهم . إلى حد لا يطاق (٣٣) .

واستشهد بآيات من العهد القديم تبريراً للرق « الأغنام والماشية والعبيد والبحراري كانت كلها ممتلكات يجوز لأصحابها أن يبيعوها كما يشاءون . ومن

الخبر لو ظل هذا معمولاً به الآن ، لأنه بدون هذا لا يمكن لامرئ أن يكره طبقة الرقيق على العمل ، أو يروضها عليه» (٣٤) . وعلى كل إنسان أن يقوم بواجبه في جلد ، وأن يتخذ نهج الحياة الذى فرضه الله عليه ، « وفى وسع كل امرئ أن يعبد الله بأن يبقى فى وظيفته ومهنته ، مهما كانت وضعية وبسيطة » . وقد أصبح هذا المفهوم عن الوظيفة دعامة لمذهب المحافظين فى البلاد البروتستانتية .

وتسبب أمير كان نصيراً مخلصاً للقضية البروتستانتية ، فى خلق مشكلة معضلة للوثر عام ١٥٣٩ . فقد كان فيليب المهسى جندياً محارباً ومحباً عاشقاً ورجلاً حتى الضمير فى آن واحد . وكانت زوجته كريستين من (السافوية) ، امرأة تفقير إلى الوسامة ، ولكنها مخلصه ولود . وتردد فيليب فى أن يطاق زوجته كهذه تستحق التكريم ، وكان يشتهى مرجريت السالية of Saale ، التى لقبها ، وهو فى طور النقاهاة من مرض الزهري (٣٥) ، وبعد أن اقترف جريمة الزنى فترة من الوقت ، قرر أنه غارق فى الإثم إلى أذنيه ، ومن الواجب أن يمسك عن تناول العشاء الربانى . ولما كانت التجربة جده مزعجة ، فقد أبدى رأيه إلى لوثر بأن الدين الجديد ، الذى يعتمد على العهد القديم إلى حد كبير ، يجب أن يسمح مثله بالزواج مرة أخرى ، وهو أمر كانت عقوبته القانونية السائدة الإعدام . وفضلاً عن ذلك ألم يكن هذا أكثر لباقة مما أقدم عليه فرانسيس الأول ، من أن يرث العشيرات ، وأكثر شفقة من الأعمال الهوجاء التى جنح إليها هنرى الثامن فى زيجاته ؟ كان فيليب تواقاً للوصول إلى حل يعتمد على الإنجيل ، حتى إنه أعان أنه سوف يتخلى عن المعسكر الإمبراطورى ، بل والبابوى ، إذا لم يستطع علماء اللاهوت فى فينتسرج أن يتبينوا ضوء الكتاب المقدس . وكان لوثر على استهزاء . والحق أنه كان قد فضل فى رسالته « الأسر الباباوى » الزواج مرة أخرى على الطلاق ، وقد نصح بالزواج مرة أخرى ، باعتباره أفضل حل لمشكلة هنرى الثامن (٣٦) . وكان الكاثولون من علماء اللاهوت فى القرن السادس عشر منفتحى الأذهان بالنسبة لهذا الأمر (٣٧) ، أما ميلانكوتون

فكان ينفر منه ، إلا أنه اتفق أخيراً مع لوثر على أنه لا مفر من أن يعرّبا عن موافقتهما ، وإن كان يجب ألا يباح هذا للجمهور . ووافقت كريستين بدورها على شريطة أن يقوم فيليب بواجباته الزوجية نحوها أكثر من ذي قبل « (٣٨) . وفي يوم ٤ مارس عام ١٥٤٠ تزوج فيليب رسمياً ، وإن يكن ذلك سرّاً ، من مارجريت ، واعتبرها زوجة ثانية ، وذلك بحضور ميلانكتون وبوسر . وما كان من اللانديجراف المعترف بالحميل إلا أن أرسل إلى لوثر حمل عربية من النبيذ على سبيل الهدية (٣٩) . وعند ما تسرب نبأ الزواج أنكر لوثر أنه تم بموافقتة ، وكتب يقول : « إن لفظ نعم سرّاً يجب أن يظل لا علناً لصالح كنيسة المسيح » (٤٠) .

وخر ميلانكتون صريعاً بمرض خطير ، ويبدو أنه كان يعاني من ونز الضمير والإحساس بالعار ، وأمسك عن الطعام ، إلى أن هدده لوثر بالحرمان من الغفران (٤١) وكتب لوثر يقول : « إن ميلانكتون شعر بحزن عميق بسبب هذه الفضيحة ، أما أنا فإني ساكسوني صعب المراس ، وفلاح صلب العود ، وقد ازداد جلدي غاظة إلى درجة تجعلني أستطيع أن أتحمل مثل هذه الأمور » (٤٢) . ومهما يكن من أمر فلن معظم الإنجلييين افتضحوا . وطرب الكاثوليك وتفكهوا ، دون أن يعرفوا أن البابا كليمنت السابع نفسه ، كان قد فكر في السماح لهنرى الثامن بالزواج مرة أخرى (٤٣) . وأعلن فرديناند ملك النمسا أنه على الرغم من ميله القليل إلى العقيدة البلديدة ، فإنه أصبح الآن يمجتها أشد المقت . وانتزع شارل الخامس من فيايب تعهداً بتأييده في جميع الانقسامات السياسية في المستقبل ، وذلك مقابل عدم اضطهاده لفيليب .

وأصبح لوثر نارى الطبع كلما دنت منيته ، فقد هاجم في عام ١٥٤٥ « المؤمنين بأن القربان المقدس مجرد رمز » من أنصار زونجلي بعنف شديد ، دفع ميلانكتون إلى أن يعرب عن أساه بسبب اتساع الهوة بين البروتستانت

في الجنوب والبروتستانت في الشمال . وعند ما طلب الأمير المختار جون من لوثر أن يستأنف حملته ضد الاشرار في مجلس يديره البابا مباشرة ، دبح لوثر خطاباً مقنعاً بعنوان : « ضد البابوية في روما التي أسسها الشيطان » (١٥٤٥) بدت فيها بوضوح نزعته إلى الطعن التي تجاوزت الحد . وارتاع كل أصدقائه ، ما عدا المصور لوكاس كراناخ ، الذي زين الكتاب برسوم محفورة على الخشب ، تنطوي على هجاء مقنع ، فأحدها يصور البابا ممطياً ظهر خنزير ، يبارك كومة من الروث ، وأخرى تمثله هو وثلاثة من الكرادلة معلقين على مشانق ، أما صورة الغلاف فتصور الحبر الأعظم جالساً فوق عرشه ، تحيط به الشياطين ويتوج رأسه دلو « لجامع قمامة » وأهبت كلمة « شيطان » بص الخطاب . . . ووصف البابا بأنه « أعظم أب جهنمي » و « هذا الخنثى الروماني » و « البابا السدومي » ، أما الكرادلة فقال عنهم أنهم « أولاد الشيطان الضالون . . . الحميم الجهاة . . . لكم يود المرء أن يصب عليهم لعنته ، وأن تنقض عليهم صاعقة ، تبديهم ، وأن يحرقوا في نار جهنم ، وأن يصابوا بالطاعون والزهرى والصرع والاستقربوط والجدام والجمرة وسائر الأمراض^(٤٤) . ورفض مرة أخرى التسليم بالرأى القائل بأن الإمبراطورية الرومانية المقدسة منحة من البابوات ، ورأى على النقيض أن الوقت قد حان لكي تتبع الإمبراطورية الولايات البابوية :

فلتبدأوا الهجوم الآن أيها الإمبراطور والملك والأمراء والسادة ، ولتنظروا من يبدأ معكم ، إن الله لا يسعد الأيدي العاطاة . خذوا من بابا روما ، أولاً وقبل كل شيء ، رومانيا وأوريننو وبولونيا وكل ما يملك ، باعتباره بابا ، لأنه حصل على هذه البلاد بالأكاذيب والخداع ، واختلسها وسرقها من الإمبراطورية بالكفر وعبادة الأوثان ، في غير ما خججل ، وداسها بقدميه ، ومن ثم دفع بأرواح لا تخصى إلى جهنم ، لتلقى جزاءها خالدة فيها . . . ومن ثم يجب أن يؤخذ البابا وكرادته وكل طغمته من الدهماء ، من عبدة

الأوثان ، وأنصار قداسته البابوية ، واعتبارهم كفرة ، وانتزاع ألسنتهم من أفقيتهم ، وشده وثاقهم في صفوف على المشانق^(٤٥) .

ولعل الضمى قد بدأ يتسرب إلى ذهنه عند ما كتب هذه الدعوة الصارخة إلى استخدام العنف . ولعل التسمم التدريجي للأعضاء الداخلية ، يمرور الوقت وتناول الطعام والشراب ، قد وصل إلى ذهنه وعطله عن التفكير . وأصبح لوثر في سنى حياته الأخيرة بديناً إلى درجة مزعجة ، يخدين مهتلين وذقن ملن . . . وكان شعلة من النشاط ، عملاقاً لا يهدأ ، ويقول : « إذا استرحت فسوف يصيدني الرهن »^(٤٦) ، أما الآن فقد تطرق إليه التعب ووصف نفسه (١٧ . يناير عام ١٥٤٦) بأنه « شيخ هرم مترهل متعب ، لا يكثر لشيء ، ليس له عين سليمة »^(٤٧) . وكتب يقول : « لقد سئمت الحياة الدنيا وسئمت هي منى »^(٤٨) وعند ما تمت له الأميرة أرملة منتخب ساكسونيا أن يعيش أربعين عاماً أخرى رد عليها بقوله « سيدتى : إنى لأتنازل عن فرصتى فى دخول الجنة فهذا أحب إلى من أن أعيش أربعين عاماً أخرى »^(٤٩) . وقال « إنى لأضرع إلى الرب أن يبادر بالحضور ليحملنى من هنا . ألا فليقبل بصفة خاصة مع اليوم الآخر . وعندئذ سوف أمد عنى ويدوى الرعد وأرقد فى سلام »^(٥٠) . وظل حتى آخر نسمة من حياته تلوح له رؤى من الشيطان . و تراوده الشكوك بين آن وآخر فى رسالته . وفى هذا يقول : « إن الشيطان يتعدى على الاعتراض بأن لسانى أساء إلى الكثيرين ، وأطلق سيلاً من الألفاظ الآثمة . وبهذا كثيراً ما يتركنى فى حيرة شديدة »^(٥١) . وكان فى بعض الأحيان يتماكنه اليأس من مستقبل البروتستانتية : « إن الصالحين من العباد يقلون يوماً بعد يوم » والطوائف والأحزاب^(٥٢) تزداد عدداً ، وتتسع بينها هوة الخلاف و « بعد وفاة ميلانكتون سوف تمر فترة انحلال يؤسف لها »^(٥٣) على العقيدة الجديدة . و لكن عندئذ عاودته شجاعته ، وقال : « لقد أمسكت المسيح والبابوات من الآذان ، ولهذا لن أزعج نفسى أكثر من ذلك ، وعلى الرغم من أنى حصرت نهمسى

بين الباب والمفصلات ، وأن عودى يهصر هصرأ ، فإنى لا أبالى بهذا الأمر ،
ولسوف يكابد المسيح ما كابدت «(٥٤) .

وبلدا وصيته بحروف كبيرة ، بقوله : « إنى معروف تماماً فى السماء
وعلى الأرض وفى الجحيم » . وروت كيف أن « آتماً تعساً يستحق اللعنة ،
لقى من الرب العون لنشر إنجيل ابنه ، وكيف أنه ظفر بالاعتراف به ،
أستاذاً للحق ، يزدرى الحرمان المفروض عليه من البابا والإمبراطور والملوك
والأمراء والقساوسة ، والكراهية من كل الشياطين » وانتهت بهذه العبارة :
« ولهذا السبب ، ومن أجل تقرير هوان شأنى ، أرجو أن يكفى الشاهد بخطى ،
وأن يقال : « لقد كتب هذا الدكتور مارتن لوثر موثق الرب وشاهد
لإنجيله »(٥٥) ، ولم يراوده الشك قط فى أن الرب كان فى انتظاره للترحيب به .

وفى يناير عام ١٥٤٦ سافر فى شتاء قارس البرد إلى مستط رأسه
أيسليبين ، ليحكم فى نزاع ، وبعث خلال تغييره هناك برسائل شائقة إلى
زوجته - منها الرسالة المؤرخة أول فبراير : أتمنى أن تجدى فى المسيح
السلام والبركة ، وأبعث إليك بحبى الضعيف العتيق المسكين . عزيزتى كاتى
لقد كنت عليلاً وأنا فى الطريق إلى أيسليبين ، ولاكن هذا إنما يرجع إلى
خطئى . فقد هبت ريح صرصر عاتية من خانى ، واخترقت قلنسوتى فوق
رأسى ، فشعرت بأن منى قد تجمد واستحال إلى ثلج ، وكان هذا حريباً
بأن يعيننى على ما يصيبنى من دوار . أما الآن فأنا ، والله الحمد ، بصحة
جيدة ، إلى الحمد الذى يجعلنى أشعر بميل شديد إلى الجميلات من النساء ،
فأبالك وأنا كيس ظريف . وليبارك الله(٥٦) .

وتناول عشائه يوم ١٧ فبراير فى مرج ، وفى الصباح المبكر من اليوم
التالى سطر مريضاً يعانى من آلام حادة فى المعدة . ووهن جسمه بسرعة ،
وأدرك أصدقاؤه ، الذين تجمروا إلى جانب فراشه ، أنه يحضر وسأله
أحدهم « أيها الأب الجليل هل تقف راسخاً كالطود إلى جانب المسيح والعتيدة

التي بشرت بها ؟ » فرد عليه قائلاً « نعم » ، ثم أصيب بنوبة فالج ، أفقدته النطق ، ومات على أثرها (١٨ فبراير سنة ١٥٤٦) . ونقل الجثمان إلى فيتنبرج ، ودفن في كنيسة القصر ، التي كان قد علق على بابها مقالاته منذ تسعة وعشرين عاماً .

كانت هذه السنوات من أخطر السنوات في التاريخ . وكان لوثر صوتها المدوي الذي يأخذ بمجامع القلوب ، وكانت أخطاؤه عديدة ، فقد كان يفتقر إلى تقدير الدور التاريخي ، الذي لعبته الكنيسة في نشر المدنية بأوروبا ، وكان ينقصه فهم تعطش البشرية إلى أساطير رمزية ، تجد فيها العزاء والسلوى ، وكان يعوزه البر والإحسان ، ليعدل في معاملته مع خصومه من الكاثوليك والبروتستانت . ولقد حرر أتباعه من بابا مصعوم من الخطأ ، ولكن في الوقت نفسه أخضعهم لكتاب منزه عن الخطأ ، مع أن تغيير البابوات أيسر من تغيير ذلك الكتاب . وتشبث بأكثر العقائد تشدداً في ديانة القرون الوسطى . وهي عقائد لا يمكن أن تصدق ، بينما سمح بالقضاء على كل ما في تلك الديانة من جمال تقريباً في أساطيرها وفنها ، وأورث ألمانيا مسيحية ، ليست أصدق من القديمة ، وهي أقل منها بهجة وسلاواناً ، وإن كانت أكثر صدقاً وأشد إخلاصاً في القائمين بها . وكاد لوثر أن يصبح في تعصب محكمة التفتيش ، بيد أن أقواله كانت أغلظ من أفعاله ، وأدين بأنه كتب مقالات ، انطوت على أقذع الألفاظ في تاريخ الأدب ، وعلم ألمانيا كراهية لاهوتية صبغت أرضها بلون الحقد الأسود مائة عام عقب وفاته .

ومع ذلك فقد كانت أخطاؤه دعامة نجاحه ، فقد كان بنظرته محباً للحرب . لأن الوقت كان يتطلب النزال ، ولأن المشكلات التي هاجمها قد قاومت جميع الوسائل المؤدية إلى السلام قروناً طويلاً . وقضى طوال حياته في معركة ضد الإحساس بالذنب ، وضد الشيطان والبابا والإمبراطور وزونجلى ، بل وضد الأصدقاء ، الذين كان من الممكن أن يهدئوا من

ثورته ، ويحولوها إلى احتجاج مهنذب ، يسمعه الناس في سماحة ، ثم يضيع في غمرات النسيان ، وماذا كان في وسع رجل أرحب منه صدرأ أن يفعل ، إذا ووجه بمثل هذه الصعاب وتلك القوى ؟ ما من شك في أنه ليس في وسع رجل متضلع في الفلسفة ولا رجل له عقلية علمية ، لا تؤمن إلا بشيء يثبت بالدليل ، ولا رجل فطر على منح رواتب سخية لأعدائه ، أن يقذف بمثل هذا التحدى ، الذى هز العالم ، أو أن يسير قدماً . بمثل هذا التصميم إلى هدفه ، كما لو كانت هناك عصابة على عينيه . وإذا كان لاهوته ، الذى يقول بحتمية القدر ، منافياً للعقل والرافة الإنسانية ، كأى أسطورة أو معجزة في عقيدة أهل القرون الوسطى ، فإنه أثر في قلوب الناس بهذه اللاعقلانية العاطفية ، فالأمل والروع هما اللذان يدفعان الناس إلى الصلاة ، وليس الدليل على أشياء يرونها بأعينهم .

ويبقى أن نذكر أنه حطم بضربات قبضته الخشنة كعكة العادات وصدفة السلطة ، التى كانت قد سدت الطريق في وجه حركة الفكر الأوروبى . وإذا كنا نحكم على عظمة المرء بما له من نفوذ - وهذا أقل اختبار موضوعى في وسعنا أن نلجأ إليه - فإننا نستطيع أن نضع لوثر في مصاف كوبرنيقوس وفولتير وداروين ، باعتبارهم من أقوى الشخصيات ، التى ظهرت في العالم الحديث . ولقد كتب عنه أكثر مما كتب عن أى رجل آخر في العصر الحديث باستثناء شاكسبير و نابليون . وكان تأثيره على الفلسفة بطيئاً وغير مباشر ، ولقد أثر على يقينية **fideism** كانت وقومية فيخته ومذهب شوبنهاور في الإرادة واستسلام الروح الهيكلية للدولة ، أما تأثيره على الأدب الألماني واللغة الألمانية ، فكان حاسماً وشاملاً ، كتأثير الإنجيل ، الذى نشره الملك جيمس ، على اللغة والآداب في إنجلترا . ولم يستشهد الناس بأقوال ألماني آخر بمثل هذه الكثرة ، وهذا الولع . ولقد أثر هو وكارلشادت وآخرون في خلق الإنسان الغربى ، وعاداته التى درج عليها ، بالتوصل من العزوبة المفروضة على رجال الدين وبصبه في الحياة الدنيوية الطاقات التى كانت

قد صرفت إلى الزهد الرهباني ، أو إلى حياة الدعة والاسترخاء ، أو إلى الورع . وأخذ تأثيره يتقلص كلما انتشر . . . كان هائلا في اسكنديناوه ، وعابرا في فرنسا ، وانعدم بتأثير كالفن في سكوتلاندة وإنجلترا وأمريكا ، أما في ألمانيا فكان تأثيره فائقاً . ولم يقدر لمفكر أو كاتب آخر أن يكون له هذا التأثير العميق في العقلية الألمانية والشخصية الألمانية . كان أقوى شخصية في تاريخ ألمانيا ، ولا شك أن مواطنيه من أهل الريف يحبونه حبا جماً ، لأنه كان أشدهم جميعاً تعصباً لألمانيته .

٤ - انتصار البروتستانتية ١٥٤٢ - ٥٥

ومات قبل عام من وقوع الكارثة ، التي لاح للناس أنها قاضية لا محالة على البروتستانتية في ألمانيا .

وفي عام ١٥٤٥ أكره شارل الخامس ، الذي لقي العون من الجيوش اللوثرية ، فرانسيس الأول على توقيع صلح كريبي . وعقد سليمان ، وكان في حرب مع فارس ، هدنة لمدة خمس سنوات مع الغرب . ووعده البابا بول الثالث أن يقدم إلى الإمبراطور ١٥١٠٠٠٠٠٠ دوكات و ١٢٠٠٠٠ من جنود المشاة و ٥٠٠ جواد ، إذا تحول بكل قوته لمحاربة الهرطقة . . . وأحس شارل بأن في وسعه أن يحقق آخر الأمر أمله ، وأن ينفذ سياسته . أن يسحق البروتستانتية ، وأن يمنح مملكته عقيدة كاثوليكية موحدة ، تدعم في رأيه حكومته وتسهل مهمتها . وكيف يكون إمبراطوراً بحق في ألمانيا ، إذا استمر الأمراء البروتستانت في الاستهانة بسلطانه وعجز أن يعلى عليهم الشروط التي يقبلون بموجبها تنصيبه إمبراطوراً ؟ ولم يكن قد اتخذ البروتستانتية ديناً بصفة جدية ، ولم تكن المنازعات بين لوثر وعلماء اللاهوت من الكاثوليك تعنيه قليلاً أو كثيراً ، ولكن البروتستانتية باعتبارها لاهوت الأمراء المصلحين والمتخالفين ضده ، وباعتبارها قوة سياسية ، قادرة على تحديد مصير انتخاب الإمبراطور القادم ، وبصفتها عقيدة كتاب الرسائل ،

الذين وجهوا إليه هجاء مقدعاً ، وعقيدة للفنانين الذين رسموا له صوراً ساخرة ، وعقيدة للوعاظ الذين لقبوه باسم ابن الشيطان(٥٧) - كان في وسعه أن يتحمل هذا في صمت كثيب - أما الآن فإنه حر في أن يناضل من جديد خلال موسم سرعان ما ينقضى ، وأن يصوغ مملكته ، التي مزقتها الفوضى ، في دولة واحدة ، تؤمن بعقيدة واحدة ، ولها قوة واحدة ، واستقر رأيه على الحرب .

وحشد في مايو عام ١٥٤٦ جيوشه الإسبانية والإيطالية والألمانية ، والهولندية ، واستدعى دوق ألفا أقدر قواده للوقوف بجانبه ، وعند ما أوفد إليه الأمراء البروتستانت نواباً عنهم إلى راتسبون للاستفسار عن معنى حركاته . رد عليهم قائلاً بأنه قد اعتزم أن يعيد ألمانيا إلى حظيرة الإمبراطورية . وفي أثناء انعقاد ذلك المؤتمر كسب إلى صفه أقدر قائد عسكري في ألمانيا ، وهو الشاب الطموح الدوق موريس صاحب ساكسونيا الألبرتينية ، ووعد آل فوجر بتقديم العون المالى له ، وأصدر البابا منشوراً يحرم فيه من الغفران كل من يقاوم شارل ، ويعرض منح صكوك غفران ، بلا مقابل ، لكل من يساعده في هذه الحرب المقدسة .

وأصدر شارل قراراً إمبراطورياً أعلن فيه حرمان الدوق جون صاحب ساكسونيا الأرنستية ولاندجراف فيليب الهسي ، وأحل رعاياهما من الولاء لهما ، وأقسم أن يستصفي أراضيهما وأموالهما . وانكى يفرق بين المعارضة أعلن أنه لن يتدخل في شئون البروتستانتية في أية منطقة ، تكون قد استقرت فيها بصفة نهائية ، وقدم أخوه فرديناند تعهداً مماثلاً لبوهيميا . وكان موريس مرتبطاً بالقضية بوعد صدر له بأن يحل محل جون كأمر مختار لساكسونيا . وتنازع الأمراء المختارون ، في كولونيا وبراندنبرج ، وكونت بالاتين ، الخوف والأمل ، أما أمير نورمبرج البروتستانتى فظل محايداً . وأدرك جون أمير ساكسونيا وفيليب الهسي وأمراء أنهالت وحكام مدن أوجسبورج وستراسبورج وأولم أن الخطر لا يتهدد لاهوتهم فحسب ،

ولكنه يتهدد أموالهم أيضاً ، فعبأوا كل قواتهم ، وحشدوا في ميدان القتال ٥٧:١٠٠٠ رجل .

ولكن عندما زحف جون وفيليب جنوباً يتحديان شارل ، سار فرديناند شمالاً وغرباً للاستيلاء على دوقية جون . وانضم إليه موريس في غزو ساكسونيا الأرنستية ، لكي يساعد بشيء ما . وقدر جون عاقبة هذا الأمر ، فهرع إلى الشمال للدفاع عن دوقيته . وقام بهذه المهمة خير قيام ، ولكن في غضون ذلك بدأ جنود فيليب في الفرار من فرقهم . بسبب الامتناع عن دفع رواتبهم ، وسارعت المدن البروتستانتية لتشهد السلام مع شارل ، بعد أن أغرتها الوعود بالعدل في المعاملة . ولكنه أطلق حريتها بعد أن فرض عليها غرامات باهظة . حطمت العمود القمري لماليتها ، مقابل الحصول على حريتها . وكان شارل وقتذاك متفوقاً في السلاح . وفي الدبلوماسية على السواء . وكانت القوة الوحيدة التي وقفت في صف البروتستانت هي قوة البابا ، إذ كان بول الثالث قد بدأ يخشى ما أحرزه الإمبراطور من نجاح عظيم . فإذا لم يبق من أمراء البروتستانت من يكبح جماح السلطة الإمبراطورية ، فإن الأمور سوف تدين لها في شمال وجنوب إيطاليا على السواء ، وسوف تحلق بالولايات البابوية وتبتلعها . وينتهي بها الأمر إلى أن تسيطر على البابوية سيطرة لا تقاوم . وفجأة (يناير سنة ١٥٤٧) أصدر بول الثالث أوامره للجيش البابوية ، التي كانت تعارب مع شارل . بالتخلي عنه والعودة إلى إيطاليا ، فأطاعت الأمر في اغتباط . ووجه البابا نفسه يطرب كأي هرطيق لانتصارات الأمير المختار جون في ساكسونيا . ولكن شارل كان مصمماً على أن يصل بالحملة إلى نهايتها الحاسمة . فزحف نحو الشمال . والتقى بقوات الأمير المختار المهزكة في ميلبرج . على مدينة مايسين . وقضى عليها قضاء مبرماً (٢٤ أبريل ١٥٤٧) وأسر جون . وطالب فرديناند بإعدام الأمير الباسل ، غير أن شارل الدكسى وافق على أن يخفف الحكم

إلى السجن مدى الحياة ، إذا فتحت فيتنبرج أبوابها له ، فخضعت المدينة لأمره ، وهكذا ستمطت عاصمة البروتستانتية الألمانية في أيدي الكاثوليك ، بينما كان لوثر يرقد في هدوء تحت صمناخ بارزة في كنيسة القصر .

وأقنع موريس أمير ساكسونيا وجواكيم أمير براندنبرج ، فيليب الهسي بالتسليم ووعده أن يطلق سراحه فوراً . ولم يكن شارل قد قطع على نفسه مثل هذا العهد ، وكان أقصى ما وصلت إليه رحابة صدره أن يعد فيليب بإطلاق سراحه بعد خمسة عشر عاماً . ويبدو أنه لم يبق هناك أحد يتحدى الإمبراطور المظنر ، إذ كان هنرى الثامن قد مات في يوم ٢٨ يناير ، ومات فرانسيس الأول يوم ٣١ مارس . ومنذ عهد شارلمان لم تكن قوة الإمبراطورية عظيمة إلى هذا الحد .

ولكن تأتي الرياح بما لا تشتهي السفن . فقد اجتمع الأمراء الألمان في مجلس نيابى آخر في أوجسبورج (سبتمبر سنة ١٥٤٧) ، وقاموا بجهود شارل لدعم انتصاره العسكري ، وتحويله إلى حكم مطلق شرعى . واتهمه بول الثالث بالتغاضي عن مقتل بيرلويجي فارنيزى . الابن غير الشرعى للبابا ، وانقلبت بافاريا ضد الإمبراطور ، وكانت دائماً موالية للكنيسة ، وتكونت من جديد أغلبية بروتستانتية بين الأمراء . وانتزعوا من شارل موافقة مؤقتة على زواج رجال الكهنوت ، ومناولة القربان بالطريقتين المعروفتين ، واحتفاظ البروتستانت بأملك الكنيسة (١٥٤٨) . وتميز البابا غضباً من دعوى الإمبراطور أن له السلطة في أن يصدر أحكاماً ، في مثل هذه الأمور . وتهامس الكاثوليك بأن شارل كان يهتم بملدقة إمبراطوته ، وتعزيز سلطان آل هابسبورج ، أكثر من اهتمامه باستعادة العقيدة الخالصة الوحيدة . ووجد موريس وقتذاك الأمير المختار لساكسونيا نفسه في فيتنبرج بعد بروتستانتياً ومنصراً ، ومكروهاً إلى حد خطير وسط قوم من البروتستانت المخلوبين على أمرهم ، وكانت خيائته قد سمحت ما فاز به من سلطان . وتجاهل شارل ما وجهه إليه من نداءات لإطلاق سراح اللاندجراف . وبدأ

يتساءل هل اختار الفريق الأحسن ، وانضمّ سرّاً إلى الأمراء البروتستانت ، ووقع معهم معاهدة شامبور (يناير ١٥٥٢) ، وفيها وعد هنرى الثانى ملك فرنسا بتقديم العون لطررد شارل من ألمانيا . وفى الوقت الذى غزا فيه هنرى اللورين ، واستولى على ميتر وتول وفردون ، زحفت موريس وحلفاؤه من البروتستانت جنوباً على رأس جيش قوامه ٣٠,٠٠٠ رجل . وسرح شارل جنوده ، دون أن يقدر العواقب ، مستنداً إلى أكاليل الغار التى توجت رأسه فى أنزبروك ، ولم يكن أمامه وقتذاك ما يدافع به إلا الدبلوماسية . ولقد أثبت موريس تفوقه فى هذه اللعبة التى تحتاج إلى الدهاء ، واقترح فرديناند عقد هدنة ، وأطال موريس المفاوضات مستخدماً كل ما أوتى من لباقة ، وفى غضون ذلك أخذ يتقدم نحو أنزبروك . وفى يوم ٩ مايو انتقل شارل بصعوبة فوق محفة ، يصحبه بضع نفر من أتباعه ، تحت المطر والجليد ، متسربلاً بظلام الليل . وعبر ممر برينر إلى فيلاخ فى كاوشيا . وهكذا حولت ضربة واحدة من ضربات الحظ سيد أوروبا إلى شريد ، يعانى من آلام النقرس ، ويرتجف فى جبال الألب .

والتقى موريس والبروتستانت الظافرون يوم ٢٦ مايو بفرديناند وبعض زعماء الكاثوليك فى باساو . ووافق شارل ، بعد فترة شعر فيها بضآلة شأنه ، على أن يوقع فرديناند معاهدة (٢٠ أغسطس ١٥٥٢) يطلق بموجبها سراح فيليب ، وتنص على تسريح الجيوش البروتستانتية ، وأن يتمتع البروتستانت والكاثوليك على السواء بحرية العبادة إلى أن يجتمع مجالس نيابى جديد ، وإذا فشل هذا المجلس فى الوصول إلى تسوية مقبولة ، فإن حرية العبادة هذه تستمر إلى الأبد . وهى عبارة محببة فى المعاهدات . وهكذا بدأ موريس بالخيانة ، وارتفع إلى مصاف رجال السياسة المظفرين ، وقدر له أن يموت وشيكاً (١٥٥٣) من أجل بلده بالغاً من العمر ثلاثين عاماً ، فى معركة وقعت بينه وبين ألبرخت ألسيباديس ، الذى كان قد حول نصف ألمانيا إلى منطقة تسودها فوضى خطيرة بالنسبة للجميع .

وعند ما يئس شارل من الوصول إلى حل لمشكلاته في ألمانيا ، تحول نحو الغرب ايمجدد صراعه مع فرنسا . ورأس فرديناند ، متذرعاً بالصبر ، المجلس النيابي التاريخي في أوجسبورج (٥ فبراير - ٢٥ سبتمبر ١٥٥٥) ، وهو المجلس الذي منح ألمانيا أخيراً سلاماً دام نصف قرن . ورأى أن المبدأ الإقليمي ، الذي ينص على حرية الدوقات ، كان قوياً إلى الحد الذي لا يسمح فيه بمثل هذه السيادة المركزية المطلقة ، التي فاز بها الملوك في فرنسا . وكان النواب الكاثوليك يمثلون أغلبية في المجلس النيابي ، غير أن البروتستانت كانوا يفوقونهم في القوة العسكرية ، فتشبثوا بكل مادة وردت في إقرار أوجسبورج عام ١٥٣٠ ، وتمسك الأمير المختار أوغسطس ، الذي خلف موريس في ساكسونيا ، بوجهة نظر البروتستانت ، وأدرك الكاثوليك أن عليهم أن يخضعوا ، أو تتجدد الحرب ، وحث شارل ، وهو في خرف دبلوماسيته ، الأمراء المختارين على تعيين ابنه فيليب خلفاً له في حمل اللقب الإمبراطوري . وخشى الكاثوليكة مطمع هذا الإسباني القاسي في حكمهم ، ولما كان فرديناند يطمع في ارتقاء العرش نفسه فإن الأمل لم يراوده في أن يفوز به ، دون أن يعاضده البروتستانت في المؤتمر الانتخابي .

وساعدت الأسلحة والظروف على رجحان كفة البروتستانت ، فطالبوا بكل شيء : يجب أن يكونوا أحراراً في ممارسة عقيدتهم في كل أرجاء ألمانيا ، وأن تحرم عبادة الكاثوليك في الأرض التي تسود فيها العقيدة اللوثرية ، وأن تبقى صحيحة ولا تتعرض للإلغاء لإجراءات تصفية أملاك الكنيسة في الحاضر والمستقبل على السواء (٥٨) . وتوصل فرديناند وأوغسطس إلى اتفاق أرضى الطرفين يتلخص في هذه الكلمات الأربع المشهورة : **Cuius regio eius religio** ، وهي تجسم الضعف الروحي الذي انتاب الأمة والعصر . ولتحقيق السلام بين الولايات وفي داخلها ، يجب على كل أمير أن يختار بين الكاثوليكية الرومانية ، وبين اللوثرية ، وعلى كل رعاياه أن يقبلوا اعتناق دينه السائد في دولته ، وكل من لا يجب أن

أن يعتنق هذا الدين عليه أن يهاجر من الإقليم . ولم يظهر أى بجانب ميلا إلى التساهل والواقع أن المبدأ . الذى أيدته الإصلاح الدينى فى فتوة ثورته - الحق فى الحكم الخاص - رفضه رفضاً باتاً زعماء البروتستانت والكاثوليك على السواء . فقد أدى ذلك المبدأ إلى تعدد الطوائف واصطدامها ، إلى درجة أن الأمراء شعروا بأن لديهم ما يبرر استعادة السيادة العتميدية ، حتى لو انقسمت إلى أجزاء بقدر عدد الولايات . واتفق البروتستانت وقتذاك فى الرأى مع شارل والبابوات بأن وحدة العتميدة الدينية لا غنى عنها للنظام الاجتماعى والسلام ، وليس فى وسعنا أن نحكم عليهم حكماً عادلاً ، ما لم يتكشف لأنظارنا الحقد والشقاق اللذين كانا يمزقان ألمانيا . وكانت النتائج سيئة وحسنة فى آن واحد . فالتسامح وقتذاك كان ، بعد الإصلاح الدينى ، أقل قطعاً منه قبله (٥٩) ، ومع ذلك فإن الأمراء أقصوا المنشتمين بدلا من أن يجرقوهم أحياء وهذه شعيرة كانت مقصودة على الساحرات . وأضعف مراكزهم جميعاً تضاعف ما نتج عن ذلك من دعاوى العصمة .

ولم يكن الانتصار الحتمى فى حرية العبادة ، ولكن فى الحرية التى أصبح ينعم بها الأمراء ، فقد غدا كل منهم ، مثل هنرى الثامن ملك إنجلترا ، الرئيس الأعلى للكنيسة فى إقليمه ، وله الحق المطلق فى أن يعين رجال الدين ، الذين يخدمون للناس العتميدة التى يتعين عليهم أن يعتنقوها . وكان المبدأ الأراستى - وينص على أن الدولة يجب أن تحكم الكنيسة - قد استقر قطعاً . ولما كان الأمراء وليس علماء اللاهوت ، هم الذين عملوا على انتصار البروتستانتية ، فمن الطبيعى أن يجزوا ثمار هذا النصر - سيادتهم الإقليمية على الإمبراطور ، وسيادتهم الكهنوتية على الكنيسة . كانت البروتستانتية هى القومية ممتدة إلى الدين ، ولكن القومية لم تكن تعنى قومية ألمانيا ، بل كانت وطنية كل إمارة ، ولم تتقدم ألمانيا خطوة نحو الوحدة ، بل إن

(*) أطلق على المبدأ هذا الاسم نسبة إلى توماس أراستوس عالم اللاهوت السويسرى

(١٥٢٤ - ١٨٣) وإن كان لا يمكن العثور عليه صراحة فى أعماله

الثورة السيذنية عاقت هذه الوحدة . وإن لم يكن من المؤكد أنها كانت نعمة وبركة . وعندما اختير فرديناند إمبراطوراً (١٥٥٨) كانت سلطاته الإمبراطورية أقل من السلطات التي كان يتمتع بها حتى شارل المتعب المقيد . وترتب على هذا أن الإمبراطورية الرومانية المقدسة لم تمت في عام ١٨٠٦ . وإنما ماتت في عام ١٥٥٥ .

وضاعت المدن الألمانية . مثل الإمبراطورية . في غمار انتصار الأمراء . كانت المقاطعات الإمبراطورية تحت رعاية الإمبراطور . يحميها من سيطرة الحكام الإقليمية . أما الآن - بعد أن أصبح الإمبراطور عاجزاً . فقد صار الأمراء أحراراً في أن يتدخلوا في الشؤون البلدية . وتضاعل استقلال المقاطعات . وفي غضون ذلك ابتلعت قوة هولندا النامية معظم التجارة . التي كانت ذئب المنتجات الألمانية في بحر الشمال . عن طريق مصبات نهر الراين . وصعب شأن المدن الجنوبية . بانحطاط تجارة البندقية والبحر الأبيض المتوسط نسبياً . وليس من شك في أن الإضعاف من شأن التجارة والسياسة يترتب عليه اضمحلال الثقافة ولم يتيسر للمدن الألمانية . في مدى مائتي عام بعد ذلك . أن تستع مرة أخرى بحيوية التجارة والفكر التي سبقت عهد الإصلاح الديني ودعخته . . .

وعاش ميلانكونتون خمس سنوات بعد صلح أوجسبورج . ولم يكن واثقاً من أنه كان يريد الإمهال . كان قد عمر أكثر من زعيمه . لا في المفاوضات مع الكاثوليكية فحسب . وإنما في تحديد اللاهوت البروتستانتي . كان قد حرر نفسه من لوثر من جهة رفضه التسليم بحتمية القدر كلية . وحضور المسيح بجسده في التريان المقدس^(٦٠) . وجاهد في الحفاظ على أهمية الأعمال الصالحات . وإن كان قد أصر مع لوثر على أنها لا يمكن أن تحقق لصاحبها الخلاص . وثار جدلٌ مرير بين « الثعلبيين » - ميلانكونتون وأتباعه - وبين اللوثرين المخافضين الذين انفجروا أساساً من ينا . وأطلق هؤلاء على ميلانكونتون لقب « المملوك المارق » و« خادم الشيطان » . ووصفهم هو بأنهم

أغبياء سوفسطائيون من عبدة الأوثان^(٦١) . وكان الأساتذة يعينون أوفصلون ، ويسجنون أو يطلق سراحهم ، حسب مد وجزر الحمم اللاهوتية . واتفق الطرفان على أن يعلننا حق الدولة في قمع المهرطقة بالقوة . وحذا ميلانكتون حذو لوثر في إقرار العبودية والتمسك بالحق الإلهي للملوك^(٦٢) ، ولكنه تمنى لو وضعت الحركة اللوثرية نصب عينها حماية أرستقراطيات أوساط الناس ، كما في زيورخ وشتراسبورج ونورمبرج وجنيف بدلا من أن تأتلف مع الأمراء . وفي أكثر لحظاته دلالة تحدث مثل الأرازمي الذي كان يتطلع إلى أن يكونه : « فلنتحدث فقط عن الإنجيل وعن الضعف الإنساني وعن رحمة الله وعن تنظيم الكنيسة وعن العبادة الحقة . أليس جوهر المسيحية أن تحقق الطمأنينة والهدوء للأرواح ، وأن تهب لها قاعدة للعمل المستقيم ، أما الباقي فإنه جدل وفلسفة كلامية ومنازعات طائفية »^(٦٣) . وعندما دنت منيته رحب بالموت ، باعتباره تحريراً لطيفاً من « غضب علماء اللاهوت » ، ومن همجية « العصر السوفسطائي »^(٦٤) . والحق أن التاريخ قد أخطأ في اختياره للقيادة روحاً تنزع بفطرتها إلى البحث والصدائة والسلام ، وأجبرها على الدخول في حرب ثورية لم تخلق لها .

الفصل الحادى والعشرون

جون كالفن

(١٥٠٩ - ١٥٦٤)

١ - شبابه

ولد فى نويون بفرنسا يوم ١٠ يوليو عام ١٥٠٩ ، وكانت مدينة لها طابع كنسى . يسيطر عليها أسقفها وكاتدرائيتها ، وهناك فى البداية وجد مثالا من حكومة يسيطر عليها رجال الدين - حكم رجال الدين لمجتمع باسم الرب .

وكان أبوه جيرار شوفان سكرتيراً للأسقف ، ووكيل أعمال فى إدارة الكاتدرائية . ووكيلا للمقاطعة يشرف على الأعمال المالية . وقد مات أم جان وهو لا يزال حدثاً ، فتزوج أبوه للمرة الثانية ، ولعل كالفن يدين بجانب من روحه القاتمة إلى ما عاناه من تربية صارمة على يد زوجة أبيه . ونذر جيرار ثلاثة من أبنائه للكهنوت ، وهو على ثقة من أن فى وسعه أن يجد لهم مناصب . وجصل لاثنين منهما على صدقات بيد أن واحداً منهم انقلب إلى هرطيق . ومات وهو يرفض تناول القربان المقدس . وحرّم جيرار نفسه من الغفران بعد خلاف مالى مع إدارة الكاتدرائية ، ولقى بعض المتاعب قبل أن يوسد جثمانه فى الأرض المقدسة .

وأرسل ججان إلى كلية دى مارش فى جامعة باريس . وقيد نفسه باسم جوهانس كالفينوس ، وحذق كتابة اللاتينية ببراعة فائقة ، ونقل فيما بعد إلى كلية دى مونتيجر ، ولا بد أنه سمع هناك أصدااء تتردد عن تلميذها المشهور أرازاموس . وظل هناك حتى عام ١٥٢٨ ، وهو العام الذى التحق

بها صنوه الكاثوليكي أجناتيوس لويولا . ويقول أحد الثقات من الكاثوليك « أن القمص التي رويت في وقت ما عن شباب كالغن الطائش ، لا تستند إلى أساس »^(١) والأمر على نقيض ذلك تماماً ، فكل الدلائل تشير إلى أنه كان طالباً مثابراً نجحولا معتصماً بالصمت تقياً و « رقيباً صارماً في نقد أخلاقيات زملائه »^(٢) ، ومع ذلك فإنه كان محبوباً من أصدقائه . الآن وفيما بعد . حباً خالصاً لا يتزعزع . وفي نهار السعي الحثيث للحصول على معرفة ما وراء الظاهر ، أو نظرية تفنن العقول ، قرأ كثيراً في الليل . ولقد طور ، حتى في تلك السنوات التي قضاها في طلب العلم ، بعض الأوصاف الكبيرة التي انتابت حياته الناضجة ، وساعدت على تكوين مزاجه .

وفي أواخر عام ١٥٢٨ جاءه على غير انتظار توجيه من أبيه بأن يذهب إلى أورليانز ، ويدرس القانون ، ويظن كما قال الابن « لأنه رأى أن علم القوانين قد أدر على الذين حصلوه الثراء العريض »^(٣) . وعكف كالغن في غبطة على الدراسة الجديدة ، إذ خيل إليه أن القانون . وليس الفلسفة أو الأدب ، هو أبرز نتاج فكري حققته البشرية ، وأنه يصوغ نوازع الإنسان الفوضوية ويحولها إلى نظام وسلام .

ونقل إلى اللاهوت وعلم الأخلاق ، منطق قوانين جستنيان ودقتها وصرامتها ، وأطلق على خير مؤلفاته اسماً مائلاً . وأصبح ، فوق أي شيء آخر ، مشرعاً ، وصارنوما وليكورجوس مدينة جنيف .

وبعد أن حصل على درجته في ليسانس أو بكالوريوس في القوانين ، (١٥٣١) . عاد إلى باريس وعكف في نهم على دراسة الأدب الكلاسيكي ، وأحس بالرغبة العارمة الشائعة ليرى لنفسه مؤلفاً مطبوعاً . فنشر (١٥٣٢) مقالا باللاتينية عن *De clementia* لسينيكا . وبدأ أشد المشرعين الدينيين صرامة حياته العملية العامة بتحيةة للرحمة . وأرسل نسخة إلى أرازهوس ،

حياه فيها باعتباره « المعلم الثانى فى عالم المجد » (بعد شيشرون) و « أول
إشراقة للآداب » . ونخيل للناس أنه وقف حياته على الإنسانية عند ما
وصلته بعض عظام لوثر وأثارته بما انطوت عليه من جرأة . وكانت
الدوائر الناشطة فى باريس تناقش الحركة الجديدة ، وليس من شك فى أنه
دار حديث طويل حول الراهب المتهور . الذى أحرق منشور البابا .
وتحدى قرار إمبراطور بتحريم التعامل معه ، والحق أنه قد سقط فى سبيل
البروتستانتية شهيداً فى فرنسا . وكان بعض الرجال الذين يحثون على إصلاح
الكنيسة من بين أصدقاء كالفن ، وكان أحدهم وهو جيرار روسل أثيراً
لدى شقيقة الملك مرجريت دى نافار . واختير صديق آخر . وهو نيكولاس
كوب . ليشغل منصب مدير الجامعة ، ولعل كالفن كان له ضاع فى
إعداد الخطاب الافتتاحى المشؤم ، الذى ألقاه كوب « أول نوفمبر سنة
١٥٣٣) . وقد بدأ الخطاب برجاء أرازمى لمسيحية مطهرة ، واستطرد
ليشرح نظرية لوثر فى الخلاص عن طريق الإيمان والعفو ، وانتهى بالتماس
الإصغاء فى تسامح للأفكار الدينية الجديدة . وأثار الخطاب حنقاً بالغا ،
وانفجرت جامعة السوربون غضباً ، وبدأ البرلمان فى اتخاذ إجراءات ضد
كوب بتهمة الهرطقة . ففر هارباً ، وعرضت مكافأة قدرها ثلاثمائة كراون
لمن يقبض عليه حياً أو ميتاً ، ولكنه استطاع أن يصل إلى بازيل . وكانت
وقتذاك تعتنق البروتستانتية .

وحذر الأصدقاء كالفن وأخبروه أن اسمه أدرج مع اسم روسل فى
قائمة المطاوعين للقبض عليهم ، ويبدو أن مرجريت قد تشفقت له ، فغادر
باريس (يناير سنة ١٥٣٤) ووجد ملاذاً له فى أنجويم ، ولعاه بدأ هناك ،
بمكتبة لوى دى تيبه الغنية بما تضم من كتب قيمة . فى كتابة مؤلفه
Institutes . وفى مايو جازف بالعودة إلى ثيون . وتنازل عن رواتبه .
التي كانت تدر عليه دخلاً يعول به نفسه . وهناك قبض عليه وأطاق
سراحه ، ثم أعيد القبض عليه ، ثم أطلق سراحه مرة أخرى . وعاد سرّاً

إلى باريس ، وتحدث مع زعماء البروتستانت ، والتقى بسير فيتوس . الذى قدر عليه أن بحرقه . وعند ما وضع بعض المتطرفين من البروتستانت إعلانات ملصوقة مهيئة في أماكن متفرقة من باريس ، انتقم فرانسس الأول منهم بأن أمعن في اضطهادهم ، وفر كالفن في الوقت المناسب (ديسمبر ١٥٣٤) ، وانضم إلى كوب في بازيل وهناك أمم ، وهو شاب في السادسة والعشرين من عمره ، عملا يعد من أبلغ الأعمال في أدب الثورة الدينية ، وأشدها حماسة ، وأوضحها معنى ، وأكثرها تمثيلاً مع المنطق ، وأعظمها تأثيراً ، وأشدها جميعاً إرهاباً .

٢ - عالم اللاهوت

ونشر الكتاب باللغة اللاتينية (١٥٣٦) باسم « مبادئ الدين المسيحى » ، وفى خلال عام واحد نفذ الكتاب ، واستدعى الأمر إصدار طبعة جديدة ، فاستجاب كالفن ، وأعد نسخة مطولة (١٥٣٩) باللاتينية أيضاً ، وترجمها إلى الفرنسية عام ١٥٤١ . ويعد هذا الشكل من التأليف من أعظم ما أنتجته القرائح تأثيراً في النثر الفرنسى . وحرّم برلمان باريس تداول الكتاب باللغتين كليهما ، وأحرقت نسخ منه علناً في العاصمة ، واستمر كالفن طوال حياته يعمل على إضافة فصول إلى هذا الكتاب وإعادة نشره ، وبلغت عدد صفحاته ١١١٨ في شكله النهائى .

واستهلت الطبعة الأولى من الكتاب بـ « مقدمة إلى أعظم ملك مسيحى لفرنسا » وهى مقدمة تفيض بالمشاعر ، ولكن بأسلوب رصين . ووقع حادثان أتاحا فرصة الحوار مع فرانسس أولهما : الأمر المالكى الصادر فى يناير عام ١٥٣٥ ضد الفرنسيين البروتستانت ، وثانيهما : الدعوة التى وجهها فرانسس فى الوقت نفسه تقريباً لميلانكتون وبوسر ، كى يحضرا إلى فرنسا ، ويرتبا تحالفاً بين المالكية الفرنسية وبين الأمراء اللوثيريين ضد شارل الخامس . وكان كالفن يأمل فى أن يوطد المأرب السياسى على دعامة

من الجدل اللاهوتي ، وأن يعاون في استمالة الملك ، مثل أخته ، إلى القضية البروتستانتية ، وكان توافقاً إلى أن يفرق بين هذه القضية وحركة اللامعمدانيين ، التي اقترنت وقتذاك من الشيوعية في منستر . ووصف المصلحين الدينيين الفرنسيين بأنهم وطنيون مخلصون للملك كارهون لكل اضطراب اقتصادي أو سياسي . وتكشف بداية ونهاية هذه المقدمة روعة أفكار كالفرن وجزالة أسلوبه :

« عند ما بدأت هذا العمل يا مولاي لم يكن هناك شيء أبعد من التفكير في تدبير كتاب ، يقدم فيما بعد إلى جلالتهكم ، وكنت لا أقصد إلا أن أطرح أمامكم بعض مبادئ أولية يستطيع بها المتسائلون عن أمور الدين أن يفقهوا طبيعة التقوى الصحيحة . . . ولكنني عند ما أدركت أن غضب بعض الأشرار في مملكتكم قد اشتد ، إلى حد يجعلهم لا يسمحون بوجود عقيدة صحيحة في البلاد ، رأيت من الواجب أن استفاد مني ولو في العمل نفسه . . . لقد عرضت اعترافي عليك ، لكي تعلم طبيعة تلك العقيدة ، التي يستهافتها هذا الغضب ، الذي لا يعرف حدوداً ، والذي يعتمل في صدور هؤلاء الخجائين ، الذين يزعمون البلاد بالسيف والنار ، ومن أجل ذلك فأنا لا أخشى التسليم بأن هذه الرسالة تحتوي على ما يخص لتلك العقيدة ذاتها . والتي يستحق من يعتنقها ، طبعاً لما أثاروه حولها من دعاوى ، أن يعاقب بالسجن والنفي وإهدار الدم والتحريق وبإبادته من على ظهر الأرض . وإنني لأعلم جيداً اللدساتس الأثيمة ، التي ملأوا بها أذنيك . لكي تبدو قضيتنا بغيضة جداً في نظرك . ولكن حلامك كنفيل بأن يهديك إلى التفكير في أنه إذا كان الاتهام يكفي دليلاً على الذنب ، فهو القضاء على كل براءة في الأقوال والأفعال . . . وأنت نفسك يا مولاي تستطيع أن تبين الوشائيات الزائفة ، التي كانت تطرق أذنيك عنها (قضيتنا) ، وهي تفتضح كل يوم : إن ما تصبو إليه فحسب إنما هو انتزاع صولحانات الملوك من أيديهم . هدم جميع المحاكم . . . وتقويض دعائم النظام بأسره ، وقلب

(١٤ - ج ٣ - بحمد ٦)

الحكومة ، وتعكبر صفو السلام والأمن بين الناس ، وإلغاء جميع القوانين ،
وتبديد جميع الأموال والممتلكات ، وباختصار جعل كل شيء في حالة
اضطراب شامل .

ولذا أتوسل إليك يا هولايى - وهو باننا أكيد طلب معقول ... أن تأخذ
على عاتقك الفهم الكامل لهذه القضية . التي أثرت حتى الآن بصورة
مبلاة . وبلا اكتراث . وبلا سند من القانون . وبدافع من العاطفة الموجهة
أكثر من أى دعامة قانونية . ولا يذهب بك الظن إلى أنى أفكر الآن فى
إعداد دفاعى عن نفسى . لكى أضمن لنفسى عودة آمنة إلى وطنى الحبيب ،
فأنا ، على الرغم مما أكنه له من حب ينبش على كل انسان أن يخس به
نحوه . لن أندم أبداً . فى الظروف الحالية . على انتقالى منه . ولكى أداغ
عن القضية أمام كل المتدينين . وبالتالى أمام المسيح نفسه . هل يختل أن
نذكر فى تقويض دعائم الممالك . نحن الذين لم يسمعنا أحد نفوه بكلمة
واحدة تثير الفتنة . . . نحن الذين عرفنا طوال حياتنا أننا نعيش حياة هادئة
مستقيمة عند ما كنا نعيش تحت حكمك . نحن الذين لم نكف . حتى
فى منفانا الآن . عن الصلاة لك بالنجاح ولما كتكتك بالرخاء . . . ثم إننا
لم ننتفع إلا قليلا بالإنجيل بفضل الله . وإن كنا حياتنا يمكن أن تكون مثالا
يحتذى لمن نددوا بعفتنا وكرمنا ورأفتنا وعزوفنا عن المنكر وصبرنا وتواضعنا
وكل فضيلة أخرى هنا . . .

وعلى الرغم من بغضك لنا ونفورك منا ، بل وغضبك علينا . فإننا
لا نياس أبداً من استعادة عطفك . لو قرأت مهادوء واطمئنان إقرارنا هذا ،
الذى نعزم تقديمه إلى جلالتك . كدفاع لنا . . . وإن كنا إذا كانت
أذنك مشغولتين على التقيض بسماع همسات الحاقدين . التي لا تدع فرصة
للمتهمين للدفاع عن أنفسهم . وإذا استمرت تلك العقبات الموجهة فى
اضطهادنا بالسجن والشكيل والتعليب ومصادرة الأموال والحرق .

وتغاضيك عن ذلك ، فإننا سوف نغلب على أمرنا حقاً إلى أقصى حد .
ونكون مثل قطيع من الأغنام ، يساق إلى الذبح . ومع ذلك هل لنا أن
نحتفظ في صبر بأرواحنا ، وننتظر أن تمتد إلينا يد الرب القوية . . . لإنقاذ
الفتراء من نعمهم ، ولعاقبة المستخفين بهم . الذين يتهيجون الآن في أمن
واطمئنان تام . ولأنى لأدعو الرب ملك الملوك أن يوطد عرشك بالعدل
والتقوى ، وأن ينتشر في مملكته القسط والإنصاف » (٤) .

وليس من اليسير علينا ، في عصر أسلم فيه اللاهوت مكانه للسياسة .
باعتبارها مركزاً لاهتمام بنى الإنسان والصراع بينهم ، أن نتذكر المزاج
الذى ألف به كالفن كتابه القوانين . لقد كان رجلاً هائماً في حب الله -
أكثر من سبينوزا . وكان يغلبه شعور بضآلة الإنسان وعظمة الله .

وكم يكون الأمر منافياً للعقل أن نفترض أن العقل الواهى لهذا السوس ،
الذى لا يكاد يرى بالعين المجردة . وهو الإنسان ، يستطيع أن يدرك العقل
المفكر الذى يحكم هذه النجوم الطيبة التى لا تحصى ؟ وأن الله . رافة
بعقل الإنسان . قد أظهر لنا نفسه فى الكتاب المقدس ، وثبت أن هذا الكتاب
المقدس هو كلمة الله ، (كما يقول كالفن) بما له من سلطان لا نظير له
على روح الإنسان .

« اقرأ لديموستين أو شيشرون ، وقرأ لأفلاطون أو أرسطو أو لغيرهم
من هم فى مستواهم ، وأنا كفيل بأن ما تقرأه من مؤلفاتهم سوف يجتذبك ،
ويشرح صدرك . ويحرك شغاف قلبك . ويخلب ليلك بطريقة مدهشة ،
ولكن إذا تحولت بعد قراءتها إلى تلاوة الكتاب المقدس . سواء كنت راغباً
أو غير راغب . فإنه سوف يستولى عليك بقوة عظيمة ، وينفذ إلى قلبك ،
ويطبع كلماته بقوة فى ذهنك . إلى الحد الذى لو قارناه بما لتلك المصنفات
من أثر قوى ، فإن الجمال الذى يتسم به كلام البلغاء والفلاسفة يتبدد كله
أو يكاد . ومن اليسير أن ندرك أن شيئاً لطيفاً فى الكتب المقدسة . يفوق
بكثير أعظم ما أحرزه الإنسان فى عالم الصناعة والزخرف » (٥) .

وعلى ذلك فإن هذه الكلمة التي نزلت علينا يجب أن تكون مرجعنا الأخير ، لا في الدين والأخلاقيات فحسب ، ولكن في التاريخ والسياسة وكل شيء أيضاً . يجب أن نتقبل قصة آدم وحواء لأننا نفسر ، بعصيانهما أمر الله ، الشر الذي فطر الإنسان عليه ، وفقدانه لإرادته الحرة .

« إن عقل الإنسان لينفر كل النفور من عادل الله ، حتى إنه ليدرك ، ويرغب في ، ويباشر كل شيء ، يتسم بالزندقة والانحراف والخسة والندس والفجور ، وطمس على قلبه بسم الخطيئة فلم يعد يصدر عنه إلا ما هو فاسد خبيث ، وإذا قام الناس في وقت من الأوقات بعمل يبدو طيباً في الظاهر ، فإن العقل يظل دائماً متورطاً في النفاق والخداع ، والقاب يظل عبداً لانحرافه الباطني » (٦) .

وأنتي مخلوق فاسد إن هذا الجسد أن يستحق النعيم الأبدي في الفردوس ؟ ليس في استطاعة واحد منا أن يحصل عليه مهما قدم من أعمال صالحات . حتماً أنه لا بأس بالأعمال الصالحات ، ولكن موت ابن الرب الذي ضحى بنفسه في سبيل البشرية هو الذي يستطيع وحده أن نعتق للبشر الخلاص ، وليس للناس أجمعين ، لأن عدالة الرب تقتضي عذاب معظم البشر في نار جهنم . ولكن رحمته تعالى قد اختارت بعضنا للظنر بالنجاة . وقد وهب تعالى لهؤلاء إيماناً راحداً بتكفير المسيح عن ذنوبهم . لأن التلاميذ بولس قال : « لقد اختارنا الرب في نفسه قبل خالق العالم بأن علينا أن نكون أمامه أطهاراً . لا تشوبنا شائبة في الحب ، وقادر علينا أن نتخذ لنا أبناء . كما اتخذ المسيح عيسى ابنا له بمشيئته » (٧) . وفسر كالفن هذا ، كما فسر له لوثر . فإن معناه أن الرب قد قرر بمشيئة حرة ، لا تتوقف أبداً على ما نستطيع به من فضائل ، أو نتصف به من رذائل . وقبل خلقنا بوقت طويل . من منا يكتب له النجاة ، ومن يعذب في نار جهنم (٨) . ويجب كالفن على السوائ الذي يتردد ، وهو : « لماذا شاء الله النجاة لبعض الناس . والعذاب لآخرين ، دون اعتبار لما قدموه من أعمال ، بكلمات بولس : « لأنه قال

لموسى لاني أتغمد برحمتي من أشاء وأعفو عن أشاء» (٩) . ويختم كالفن حديثه بقوله :

« وطبقاً لهذا نوكد أن الرب قدر بمشيئة أزلية لا تبدل ، من يكتب له الخلاص ، ومن يحكم عليه بالعذاب والهلاك ، ونوكد أن هذه المشيئة ، فيما يختص بالاختيار ، تقوم على رحمته ، التي يتغمد بها من يشاء ، دون اعتبار لما يستحقه الإنسان ، ولكن الذين حكم عليهم بالعذاب في النار أغلقت دونهم باب الحياة ، بمقتضى حكم عادل لا سبيل إلى نقضه ، ويدق على الفهم» (١٠) .

بل إن خروج آدم وحواء من الجنة ، وما ترتب عليه من نتائج بالنسبة للجنس البشرى في رأى بولس « فرضته مشيئة الرب العجيبة» (١١) .

ويسلم كالفن بأن حتمية القدر تتنافى مع العقل ، ولكنه يرد بقوله : « ليس من المعقول أن يتقصى الإنسان هذه الأمور ، التي قرر الرب أن يخفيها عنا في نفسه ويقلت من العقاب» (١٢) . ومع ذلك فإنه يعترف بأنه يعرف لماذا يقرر الرب بصورة تحكيمية مصير ملايين الأرواح منذ الأزل : ذلك « لكي يزيد من إعجابنا بمجده » بعرض قوته (١٣) . ويوافق على أن هذا « حكم مروع » ولكن لا يستطيع أحد أن ينكر أن الله عرف مصير الإنسان النهائي في المستقبل ، قبل أن يخلقه ، وأنه عرفه سافماً ، لأنه كان قد قضى به في حكمه» (١٤) . وقد يجادل آخرون من أمثال لوثر بأن المستقبل قد تحدد ، لأن الرب تنبأ به سلفاً ، وأن علمه بالغيب لا يمكن نفيه . أما كالفن فإنه يرى عكس ما تقدم ، إذ أنه يعتقد أن الرب يتنبأ بالمستقبل ، لأنه شاء هذا وقرره . والحكم بالعذاب الأبدي حكم مطلق ، وليس هناك مطهر في لاهوت كالفن ، وليس هناك منزل في منتصف الطريق ، يستطيع الإنسان بعد أن يقضى فيه بضع ملايين من السنين ، وهو يتعذب بالنار ، أن يحو بها سيئاته ، وعلى هذا فلا محل للصلوات من أجل الموتى .

وقد يذهب بنا الظن إلى أنه لا معنى لأداء أى نوع من الصلاة ، وذلك بناء على افتراضات كالفن فما دام كل شيء قد تحدد بحكم الله ، فليس فى وسع فيض من الابتهالات أن يمحو ذرة واحدة من قدر الإنسان المحتوم . ومهما يكن من شيء ، فإن كالفن أكثر إنسانية من لاهوته ، فهو يقول لنا : فلنصل بتواضع وإيمان ، وسوف يتقبل الله صلواتنا ، فالصلاة وتقبلها قد سبقا فى حكمه أيضاً . ولنعبد الله بأداء صلوات دينية متواضعة ، ولكن يجب علينا ألا ننبذ القديس ، ونعتبره ادعاء من القساوسة ، ينتهكون به الحرمات بتحويل مواد دنيوية إلى جسد المسيح ودمه ، والحق أن المسيح موجود فى القربان المقدس بروحه لا بجسده ، وعبادة رقاقة الخبز المقدسة ، بدعوى أن المسيح يحل فيها بجسده ، هى وثنية محضة . واستخدام الصور المنقوشة للرب انتهاك صارخ للوصية الثانية ، وتشجيع على عبادة الأوثان ، ويجب إزالة كل الصور والتماثيل الدينية ، بل والصليب من الكنائس .

والكنيسة الحقة هى جمهور المصلين غير المنظور من الصفوة ، الأموات أو الأحياء أو الذين سيولدون . وتتكون الكنيسة المنظورة ، من كل الذين « يعتبرون معنا بنفس الرب والمسيح » (١٥) ، باعتراف عقيدة ، وبجياة مثالية ، وبالاشتراك فى مراسم التعميد والعشاء الربانى (يرفض كالفن التسليم بالمراسم الأخرى) .

وليس هناك خلاص (١٦) خارج نطاق هذه الكنيسة . والدولة والكنيسة مقدستان ، وقد خلقهما الله ، لكى يعملوا فى انسجام كالروح والجسد ، لمجتمع مسيحى واحد : وعلى الكنيسة أن تضع القواعد ، التى تنتظم كل التفاصيل الخاصة بالعقيدة والعبادة والأخلاق ، وعلى الدولة أن تدعم هذه القواعد (١٧) ، باعتبارها ذراع الكنيسة الطبيعى ، ويجب على السلطات الزمنية أن تكون على بصر من أن « عبادة الأوثان » (وهى ترادف إلى حد كبير الكاثوليكية فى العزف البروتستانتى) و « فضائح أخرى تمس الدين يجب

ألا تعرض وتنتشر علناً بين الناس » ، وأن كلمة الله الطاهرة هي الوحيدة ،
التي يجب أن يتعلمها ويتلقاها الناس (١٨) . والحكومة المثالية هي حكومة رجال
الدين ، ويجب أن نعترف بالكنيسة التي تؤمن بالإصلاح الديني ، باعتبارها
صوت الله .

وجدد كالفن جميع ادعاءات البابا بسيادة الكنيسة على الدولة ، وطالب
بها لكنيستته .

ومما يلفت النظر مدى ما بقي من تقاليد الرومان الكاثوليك وآرائهم
في لاهوت كالفن ، فهو مدين بعض الشيء لفلسفة الرواقين ، وبخاصة
سينيكا ، وبشيء لدراساته في القانون ، ولكنه اعتمد بصفة خاصة على
القديس أوغسطين ، الذي استخلص القول بالجبر من القديس بولس ،
الذي لم يعرف المسيح . وتجاهل كالفن بشدة ، مفهوم المسيح عن الرب
بأنه أب محب رحيم ، ومر في هدوء على عدد كبير من آيات الكتاب
المقدس ، التي افترضت حرية الإنسان في صياغة مصيره (٢ إصحاح بطرس
٣ : ٩ ، ١ إصحاح تيموثاوس ٢ : ٤ ، ١ إصحاح يوحنا ٢ : ٢ ،
٤ : ١٤ إلخ) .

ولم تكن عبقرية كالفن تكمن في أنه يأتي بأفكار جديدة ، ولكن في
تطوير آراء من سبقوه إلى نتائج منطقية هدامة ، والتعبير عن هذه النتائج
ببلاغة ، تضارع بلاغة أوغسطين ، وبصياغة تصميماتها العملية بمنهج ،
يقوم على التشريع الكهنوتي . وأخذ عن لوثر عقيدة التبرير أو الاختيار
بالإيمان ، ومن زونجلي التفسير الروحي للقربان المقدس ، ومن بوسر الآراء
المتناقضة عن مشيئة الله ، باعتبارها سبباً لكل ما يحدث ، والحاجة إلى ورع
عملي قوى ، باعتبارها امتحاناً وشاهداً على الاختيار . ووصلت معظم تلك
العقائد في صيغة أخف إلى التراث الكاثوليكي ، وأضنى عليها كالفن أهمية
شديدة ، ولم يعبأ بالعناصر المعوضة المخففة في عقيدة القرون الوسطى .

كان أقرب إلى القرون الوسطى من أى مفكر بين أوغسطين ودانتى .
ورفض رفضاً باتاً قبول إنشغال علماء الإنسانيات بأفضلية الدنيا ، وحول
أفكار الناس من جديد إلى العالم الآخر ، بصورة كثيفة أكثر من قبل ،
وأنكر الإصلاح الدينى فى مذهب كالفن من جديد « النهضة » .

وليس من شك فى أن لاهوتاً غير جذاب مثل هذا ، يحرز رضا
مئات الملايين من الناس ، فى سويسرة وفرنسا وسكوتلنده وانجلترا وأمريكا
الشمالية ، يبدو لأول نظرة سراً غامضاً ، ثم يبدو نوعاً من التجلى . ترى
لماذا حارب الكالفينيون والموجنوت والمتطهرون (البيوريتان) بمثل هذه
الجرأة دفاعاً عن عجزهم ؟ ولماذا أسهمت هذه النظرية الخاصة بعمجز البشر
فى تكريين بعض الشخصيات ، التى تعد من أقوى الشخصيات فى التاريخ ؟
فهل حدث هذا لأن هؤلاء المؤمنين اكتسبوا ، من الاعتقاد بأنهم الصفوة
القليلة ، قوة تفوق ما فقدوه منها ، بالتسليم بأن سلوكهم ليس له نصيب
فى تحديد مصيرهم ؟ وكان كالفن نفسه خجولاً وقوى العزم فى الوقت
نفسه ، وكان واثقاً من أنه ينتمى إلى الصفوة ، ووجد فى هذا عزاء وسأوى ،
إلى الحد الذى دفعه إلى أن يجحد « الحكم المروع » للجبر « أمراً يودى إلى
أبهج فائدة » (١٩) : وهل أسعد بعض من اصطفوا أنفسهم أن يتدبروا فى أن
فئة قليلة كتب لها الخلاص ، وأن الكثرة الغالبة قدر عليها العذاب ؟ وليس
من شك فى أن الاعتقاد بأن الله قد اصطفاهم منح كثيراً من الأرواح
الشجاعة لمواجهة تقلبات الحياة ، والضرب فيها على غير هدى ، إلى
غير ما هدف ظاهر ، مثل ما مكنت عقيدة مماثلة الشعب اليهودى من صيانة
نفسه ، وسط محن كانت كفيلة بأن تهدم إرادة الحياة . حقاً أن فكرة كالفن
عن اختيار الله لبعض الناس قد يكون مدينياً بها للصيغة اليهودية فى العقيدة ،
كما تدين البروتستانتية بالكثير للعهد القديم بصفة عامة . ولا بد أن الثقة فى
الاختيار الإلهى كانت درعاً يثبت الشجاعة فى قلوب الموجنوت ، لتحمل

آلام الحرب والمذابح ، وفي قلوب الحجاج وهم يجازفون بأنفسهم ، بحثاً عن أوطان جديدة على شواطئ معادية .

وإذا استطاع خاطئٌ مَقْتَوَمٌ أن يتشبث بهذه الثقة ، واستطاع أن يؤمن بأن تقويمه قد هياه له الله ، فإن في وسعه أن يقف راسخاً كالطود إلى النهاية ، وقد رفع كالفن من قدر هذا الإحساس بالاعتزاز بالاختيار ، بأن جعل الصفوة ، سواء كانت معلومة أم لا ، أرسقراطية وراثية : فأبناء الصفوة يصبحون بمشيئة الله (٢٠) من الصفوة ، بطريقة آلية . وهكذا استطاع المرء بعمل بسيط من أعمال الإيمان بالنفس ، ولو كان هذا بالتصور ، أن ينال الفردوس وأن ينفذ إليها . ولمثل هذه النعم الخالدة كان أى اعتراف بالعجز صفقة رابحة .

وكان أتباع كالفن في حاجة إلى مثل هذا العزاء ، لأنه علمهم وجهة النظر السائدة في القرون الوسطى ، والتي تذهب إلى أن الحياة الدنيا ليست إلا وادياً للبوئس والدموع ، ورحب في اغتباط بـ « تصحيح رأيهم الذى اعتبر أن أعظم نعمة ألا يولد المرء ، وأن أعظم نعمة بعدها أن يموت فوراً ، كما أنه لم يكن هناك شىء يتنافى مع العقل في سلوك هؤلاء الذين كانوا ينوحون ويبيكون عند ولادة أقربائهم ، ويبتهجون في وقار عند تشييع جنازاتهم » ، ولم يأسف إلا لأن هؤلاء المتشائمين العقلاء ، وهم في الغالب الأعمى وثنيون جهلة بالمسيح ، قد حكم عليهم بالخلود في نار جهنم (٢١) ، وكان ثمة شىء واحد يجعل الحياة محتملة - الأمل في سعادة مطردة بعد الموت ، وقال : « إذا كانت السماء بلدنا فما الأرض سوى منى ؟ وأليست الدنيا لخدأ ، إذا كان الرحيل عن هذا العالم معبراً إلى الحياة ؟ » (٢٢) وعلى التقيض من صورة كالفن الشعرية نجد أنه يقدم أبلغ ما سطر من صفحات ، لا في وصف تخيلات الجحيم ، ولكن في الحديث عن جمال السماء .

ولسوف تعاني الصفوة التقية ، دون أن تجأ بالشكوى ، كل ما في

الحياة من آلام وأشجان ، « لأنهم سوف يضعون نصب أعينهم . ذلك اليوم الذى يستقبل فيه الرب عباده المخلصين فى مذكنته الواعدة ، ويجفف كل دمة تساقط من عيونهم ، ويكسوهم بثياب الفرح ، ويزينهم بتيجان المجد ، ويؤانسهم بمباهج ، لا يمكن التعبير عنها ، ويرفعهم إلى درجة الزمالة لجلالاته ، ويدعوهم إلى . . . المشاركة فى سعادته » (٢٣) . ولعل هذا كان اعتقاداً لا غنى عنه للفقراء أو التعساء الذين ينتشرون فى بقاع الأرض . . .

٣ - جينيف وستراسبورج : ١٥٣٦ - ٤١

بينما كان كتاب « القوانين » فى المطبعة (مارس ١٥٣٦) ، قام كالفن برحلة سريعة عبر جبال الألب إلى فرارا ، وذلك متابعة لتقليد مرعى بصفة عامة ، وإن لم ينعقد الإجماع على الخصوع له (٢٤) . ولعله ذهب إلى هناك ليطلب من اللوثة البروتستانتية رينيه ، زوجة اللوث أركول الثانى ، وابنة المرحوم لويس الثانى عشر ، أن تمد يد العون إلى البروتستانت المضطهدين فى فرنسا . وعينته مرشداً روحياً لها ، مدفوعة بقوة معتقداته الدينية ، وذلك عن طريق رسائل تفيض بالاحترام المتبادل ، ظلت موصولة حتى وفاته . وعاد كالفن إلى بازيل فى مايو ، وجازف بالذهاب إلى نويون ليبيع شيئاً من أملاكه ، ثم انطلق مع أخيه وأخته إلى ستراسبورج . وتوقفوا لبعض الوقت فى جنيف ، لأن الطريق كانت مغلقة بسبب الحرب (يوليو ١٥٣٦) .

وكانت عاصمة سويسرة الفرنسية أقدم من التاريخ نفسه . . . كانت فى عصور ما قبل التاريخ مجموعة من مأوى البحيرات ، شيدت فوق أكوام ، لا يزال بعضها يرى حتى اليوم . وكانت فى عهد يوليوس قيصر ملتقى لطرق التجارة عند الجسر ، الذى يخرج عنده نهر الرون مندفعاً من بحيرة ليمان ، ليضرب فى فرنسا بحثاً عن البحر الأبيض المتوسط . وخضعت جنيف فى العصور الوسطى لحكم أسقفها الروحى والديوى على السواء . وكان الأسقف

تختاره عادة إدارة الكاتدرائية ، التي أصبحت لذلك السبب قوة لها وزنها في المدينة ، وتلك كانت بالضرورة الحكومة التي أعادها كالفرن فيما بعد ، في الشكل الذي يسير المذهب البروتستانتي . وتحرر دوقات سافوي ، التي كانت تقع خلف جبال الألب مباشرة ، من سيطرة إدارة الكاتدرائية في القرن الخامس عشر ، ورفقوا إلى منصب الأسقفية الرجال الذين أفادت منهم دوقية سافوي ، وأسلموا أنفسهم إلى ملذات الحياة الدنيا خوفاً من ألا يكون هناك عالم آخر . وفسدت الحكومة الأسقفية ، التي قدر لها أن تكون يوماً من أحسن الحكومات ، كما انحدرت أخلاق رجال الدين ، الذين يعملون تحت إمرتها . ووافق أحد القساوسة على تنفيذ أمر صدر له بطرد محظيته ، بشرط أن يتجرد زملاؤه من رجال الدين مثله من نخوتهم ، ورجحت كفة النخوة (٢٥) .

وفي لطاق هذا الحكم الكهنوتي الدوقى ، كونت العائلات الكبرى يجينيف مجلساً من ستين عضواً ، لإصدار القوانين البلدية ، واختار المجلس أربعة من المأمورين لتنفيذ هذه القوانين ، وكان المجلس يجتمع عادة في مقر الأسقف لكاتدرائية القديس بطرس ، ولم يكن هناك خط فاصل بين الاختصاص الدينى والاختصاص المدنى ، فبينما كان الأسقف يسك النقود ويقود الجيش ، كان المجلس يضع الضوابط التي تحكم الأخلاق ، ويصدر قرارات الحرمان ، ويرخص للبغايا بالعمل . وكما جرى العرف في ترير وماينز وكولونيا ، كان الأسقف أيضاً أميراً من أمراء الإمبراطورية الرومانية المقدسة ، ومن الطبيعي أنه أخذ على عاتقه القيام بوظائف ، يجدد الأسقف نفسه في حل منها الآن . وسعى بعض الزعماء المدنيين ، برئاسة فرانسوا دى بونيفار ، إلى تحرير المدينة من نير السطة الأسقفية والسلطة الدوقية معاً . وعقد هؤلاء الوطنيون حلفاً بين فرايبورج الكاثوليكية وبرن البروتستانتية لدعم هذه الحركة . وأطلق على المنضمين لهذا الحلف الاصطلاح الألماني Eidgenossen أى رفقاء القسم وهو لفظ معناه المتحالفون ، وحرفه

الفرنسيون إلى « هوجنوت . ولا أن حل عام ١٥٢٠ حتى أصبح زعماء مدينة جينيف من رجال الأعمال في الغالب الأعم ، لأنها كانت على النقيض من فيتنبرج مدينة تجارية ، تتوسط في التجارة بين سويسرة في الشمال وإيطاليا في الجنوب وفرنسا في الغرب . وألف الأوساط من أهالي مدينة جينيف مجلساً أكبر ، يتكون من مائتي عضو ، واختار هؤلاء مجلساً أصغر يتكون من خمسة وعشرين عضواً ، وهو المجلس الذي أصبح الحاكم الحقيقي للبلدية ، وكان يزدرى سلطة الأسقف وسلطة الدوق على السواء . وأعلن الأسقف أن المدينة في حالة تمرد ، واستدعى الفرق الدوقية لمساعدته ، فما كان من هذه الفرق إلا أن استولت على بونيفار ، وسجنته في قصر شياون ، وخف جيش مدينة برن إلى نجدة مدينة جينيف المحاصرة ، وهزمت قوات الدوق ، وتشنت شملها ، وفر الأسقف إلى أنيسى ، وتحرر بطل الشاعر بيرون من غياهب سجنه . وغضب المجلس الأكبر من مساعدة رجال الدين لدوقية سافوى ، فأعلن عقيدة الإصلاح الديني ، وتولى اختصاص رجال الدين وولاية السلطة المدنية في المدينة (١٥٣٦) ، قبل وصول كالفن بشهرين .

وكان البطل العقيدى لهذه الثورة هو ويليام فاريل . وكان مثل لوثر ، ورعاً جداً في شبابه . وأقبل إلى باريس متأثراً بجاك ليفيفر ديتابل ، الذي أزعجت ترجمته للكتاب المقدس وتفسيره له تزمّت فاريل ، لأنه لم يجد أي أثر في نصوص الكتاب المقدس للبابوات والأساقفة وصبكوك الغفران والمطهر والشعائر السبع والقداس والعزوبة المفروضة على رجال الكهنوت وعبادة مريم أو القديسين . وأنف من رسالة رجال الكهنوت ، فانطلق بجول من مدينة إلى مدينة في فرنسا وسويسرة ، بصفته واعظاً مستقلاً ، وكان ضئيل القامة ضعيف البنية جهورى الصوت قوى الروح ، له عينان متقدتان تبرقان في وجهه الشاحب ، ولحية حمراء كاللهب ، وندد بالبابا ووصفه بأنه خصم للمسيحية ، كما ندد بالقداس ، واعتبره انتهاكاً للحرمة المقدسة ، وبأيقونات الكنيسة باعتبارها من الأوثان ، التي يجب أن تحطم ، وبدأ عام

١٥٣٢ الوعظ في جنيف ، وقبض عليه عملاء الأسقف ، الذي رأى أن يلتقى « الكاب اللوثرى » في نهر الرون ، فتوسط المأمورون وهرب فاريل ، بعد أن أصيب ببضع سمجات في رأسه ، وتلوث سترته بشيء من البصاق . وكسب إلى صفه مجلس الخمسة والعشرين ، وأثار بمساعدة بيتر فيريه وأنطوان فرومان الناس ، ونال الكثير من التأييد الشعبي ، مما دفع كل رجال الدين الكاثوليكية تقريباً إلى الرحيل . وأصدر المجلس الصغير يوم ٢١ مايو عام ١٥٣٦ مرسوماً بإلغاء القداص ، وإزالة كل التماثيل ومخاضات القديسين من الكنائس ، وحولت ممتلكات الكنيسة للوفاء باحتياجات البروتستانت الدينية ، وإلى وجوه البر والتعليم ، وجعل التعليم إجبارياً وبالمجان ، وسيطر نظام أخلاقي صارم سيطرة القانون .

ودعى المواطنون لأن يقسموا على الولاء للإنجيل ، أما الذين رفضوا حضور الصلوات طبقاً لمبادئ الإصلاح الديني فقد نفوا من البلاد^(٣٦) . تلك هي جينيف التي أقبل إليها كالفن .

وكان فاريل وقتذاك في السابعة والأربعين من عمره ، وعلى الرغم من أنه قدر عليه أن يعيش عاماً بعد كالفن ، فإنه رأى في الشاب الصارم الفصيح . الذي يصغره بعشرين عاماً ، الرجل الذي تشتد الحاجة إليه لدعم الإصلاح الديني ودفع عجلته إلى الأمام . وكان كالفن متردداً ، إذ كان قد رسم لنفسه حياة . يقضيها في البحث العلمي والكتابة ، وكان يحس بالطمأنينة مع الله أكثر مما يحس بها مع الناس ، ولكن فاريل ، بطلعته التي تشبه طلعة نبي راعد من أنبياء الإنجيل ، هدد بأن يصب عليه لعنة الله ، إذا آثر دراساته الخاصة على التبشير الصعب والخطير بالكلمة التي لم يتطرق إليها الوهن .

وأذعن كالفن . ووافق المجلس ومشيخة الكنيسة ، وبدأ خدمته للمدينة : دون التقييد بأى رسامة أخرى - بأن ألقى في كنيسة القديس بطرس

أولى خطبه العديدة عن رسائل القديس بولس . وكان تأثير بولس في كل مكان ، يدين بالبروتستانتية ، اللهم إلا بين الطوائف المتطرفة من الناحية الاجتماعية ، يحجب تأثير بطرس المؤسس الذائع الصيت لكرسى البابوية الروماني .

وفي أكتوبر سافر كالفن برفقة فاريل وفيريه إلى لوزان ، واضطلع بدور صغير في الجدل الشهير الذي كسب المدينة إلى صف المعسكر البروتستانتى ، ولدى العودة إلى جينيف شرع كهان أبرشية القديس بطرس ، الكبار والصغار ، في هداية أهالى جينيف لله . وتقبلوا بإخلاص الإنجيل ، باعتباره تنزيلا من لدن الله ، وشعروا بأن عليهم التزاماً لا فكاك منه لدعم شريعته . وراعهم أن وجدوا أن كثيراً من الناس قد أسلموا أنفسهم للغناء والرقص وما أشبه من مظاهر الطرب ، وفضلا عن هذا فان بعضهم كان يقامر أو يشرب إلى درجة السكر البين ، أو يقارف الزنا .

وكان قسم بأكمله من المدينة تحتله بغايا ، تحكمهن ملكة الماخور ، وكان قبول هذا الموقف بالبشر من فاريل السريع الغضب ، وكالفن الحى الضمير ، بمثابة خيانة للرب .

وأصدر فاريل « إقراراً بالعقيدة والنظام » ، كما أصدر كالفن « عظة » سهلة الفهم ، أقرها المجلس الكبير (نوفمبر سنة ١٥٣٦) ، لكى يستعيدا الأساس الدينى لأخلاقيات مثمرة . وكان المواطنون الذين يصرون على مخالفة القانون الأخلاقى ، يحرمون من الغفران ، وينفون إلى خارج البلاد ، وأصدر المجلس فى يوليه عام ١٥٣٧ أمراً لجميع المواطنين ، بأن يذهبوا إلى كنيسة القديس بطرس ، وأن يقسموا على الولاء لإقرار فاريل .

وكان أى مظهر ينم على الكاثوليكية — مثل عمل مسبحة ، أو الاعتزاز بإحدى الخلفات المقدسة ، أو اعتبار عيد قديس يوماً مقدساً ، يعرض من يدر منه للعقاب . وسجنت النساء لارتدائهن قبعات غير لائقة . وكان بونيفار

جد سعيد ، بما ينعم به من إباحية ، ولكنه حذر بأن يمتنع عن ممارسة أساليبه الداعرة . وصفه المقامرون بالأغلال ، وسبق مقترفو الزنا في الشوارع إلى المنفى .

ولما كان أهالي جينيف قد تعودوا على الخضوع لحكم كنسى ، كان يقوم على نظام أخلاقي ، يتسم بالرفق ، فرضته كاثوليكية خفت بن شدتها الأقاليم الجنوبية ، فإنهم قاوموا التحلل الجديد من الواجبات ، ونظم الوطنيون ، الذين حرروا المدينة من الأسقف والدوق ، أنفسهم من جديد ، لتحريرها من قساوسها المتزمتين . وانضمت طائفة أخرى تطالب بحرية الضمير والعبادة ، ومن ثم أطلقت على نفسها اسم المتحررين أو الأحرار إلى الوطنيين والكاثوليك ان الذين يمارسون شعيرتهم في الخفاء ، وحصل هذا الائتلاف في انتخابات ٣ فبراير عام ١٥٣٨ على أغلبية في المجلس الكبير . وأبلغ المجلس الجديد التساوسة أن عليهم أن يتبعوا عن السياسة ، فندد كالفن وفاريل بالمجنس ، ورفضوا أن يناولا العشاء الرباني حتى تتواءم المدينة الثائرة مع النظام المرتكز على القسم ، فما كان من المجلس إلا أن خلع كاهني الأبرشية (٢٣ أبريل) ، وأمرها بمغادرة المدينة في خلال ثلاثة أيام . واحتفل الناس بطردهما وسط مظاهر التهايل والابتهاج (٢٧) . ولبي فاريل دعوة إلى نويشاتل ، وهناك ظل يقدم عظاته إلى آخر يوم في حياته (١٥٦٥) ، وأقيم هناك نصب تذكاري تخليداً لذكراه .

وذهب كالفن إلى شتراسبورج ، وكانت وقتذاك مدينة حرة لا تخضع إلا للإمبراطور ، وتدير شؤونها الدينية كنيسة الغرباء ، وجماعة المصلين فيها بروتستانت ، جاءوا من فرنسا بصفة خاصة . واكنى يدبر أموره بمبلغ الالنين وخمسين جيلدر (١٣٠٠ دولار) ، الذي كانت تدفعه له الكنيسة كل عام ، باع مكتبته ، وقبل عنده نزلاء من الطلبة . ووجد أن العزوبة لا تلائم في موقفه هذا ، فطلب من فاريل وبوسر أن يبحثوا له عن زوجة ،

وقدم لهما بياناً بالصفات التي ينشدها ، وقال : « لست من هؤلاء العشاق المحبولين ، الذين يفتنهم وجه جميل لامرأة ، فيتجاوزون أيضاً عن أخطائها ، وهاهو الجمال الذي يغريني - أن تكون عفيفة كريمة غير متأنقة ، اقتصادية صبوراً حريصة على صحتي » (٢٨) .

وبعد أن قام بمحاولتين فاشلتين تزوج (١٥٤٠) من إيديليت دي بور ، وهي أرملة فقيرة لها سبعة أطفال ، فأنجبت منه ابناً واحداً مات في سن الطفولة . وعندما قضت نحبها (١٥٤٩) كتب يرثها برقة خاصة كانت تغلفها قسوته الظاهرة . وعاش وحيداً في بيته الخمسة عشر عاماً المتبقية من حياته .

وبينا كان يشقى في شتراسبورج ، تحركت الأحداث في جنيف . وتشجع الأسقف المنفي عند ما علم بطرد فاريل وكالفن . ووضع خطة لعودة مظفرة إلى كاتدرائته ، وقام بخطوة مبدئية . فأقنع اياكوبو سادوليتو بأن يكتب « رسالة إلى أهالي جنيف » . « يحثهم فيها على أن يستأنفوا عباداتهم ، طبقاً للعميدة الكاثوليكية » (١٥٣٩) . وكان سادوليتو رجلاً مهندياً يتمتع بخلق قويم ، لم يعهده الناس في كاردينال أو عالم بالإنسانيات ، وكان قد أشار من قبل على البابوية أن تعالج انشقاق البروتستانت برفق ، واستقبل في مدينة كاربشراس فيما بعد هراطقة والدانيين فارين من المذبحة ، وأسبغ عليهم حمايته (١٥٤٥) ، وكتب رسالة بلاتينية رفيعة ، تعلمها من بمبو المعصوم ، وجهها إلى إخوته الأعراء المحبوبين . حكاهم جنيف وشيوخها والمواطنين فيها ، وتألّف الرسالة من عشرين صفحة ، تحفل بالمجاملات الدبلوماسية والترغيب اللاهوتي ، ولاحظ انقسام البروتستانت إلى طوائف متحاربة يترعمها ، كما يدعى ، رجال ماكرون ، يتشوفون إلى السلطة ، وقارن هذا بوحدة الكنيسة الرومانية ، التي دامت قروناً طويلة ، وتساءل هل من المحتمل أن يكون الحق مع تلك الأحزاب المتعارضة أكثر منه مع عميدة كاثوليكية أمّرتها نخيرة عصور واحتشاد ذكاء المجالس

الكنسية . وختم رسالته بأن عرض على مدينة جينيف ، أنه على استعداد للقيام بأية خدمة في مقدوره .

وشكره المجلس على تحيته له ، ووعدته بالمزيد من الاستجابة لمطالبه ، بيد أنه لم يكن في جينيف أحد ، يأخذ على عاتقه ، أن يرفع السيف في وجه عالم الإنسانيات المهذب ، أو يجاربه في لاتيניתه . وفي غضون ذلك طلب عدد من المواطنين أن يتحللوا من قسمهم ، على أن يؤيدوا لإقرار العقيدة والنظام ، وخبيل للناس فترة ما أن المدينة سوف تعود إلى اعتناق الكاثوليكية . وكان كالفن مدر كماً للموقف ، فعُذف للرد على الكاردينال ، وحشد كل ما يملك من طاقة ذهنية ، وشرع قلنمه للدفاع عن الإصلاح الديني . وواجه الدمائه باللطاف ، والبلاغة بالبلاغة ، ولكنه لم يتنازل قيد أملة عن أى مبدأ من مبادئ لاهوته ، واحتج ضد إقحامه في النزاع ، بدعوى أنه إنما ثار مدفوعاً بطموح شخصي ، فقد كان في وسعه أن ينعم بالمزيد من الطائنية ، لو ظل محافظاً على العقيدة . وسلم بأن الكنيسة الكاثوليكية تستند إلى أساس إلهي . ولكنه هاجمها ، وقال إن مثالب بابوات عصر النهضة قد أثبتت استيلاء المناهض للمسيحية على عرش البابوية . واعترض على حكمة المجالس الكنسية بحكمة الكتاب المقدس ، التي كان سادوليتو قد تجاهلها أو كاد ، وأسف لأن فساد الكنيسة أدى إلى الانشقاق والانقسام ، ولكن القضاء على الشرور لا يتم إلا على هذا النحو . وإذا ما تعاون الكاثوليكية والبروتستانت الآن ، لتطهير العقيدة والشعيرة والعاملين بكل الكنائس المسيحية ، فإن جزاءهم وحدة أبدية في السماء مع المسيح . وكان خطاباً قوياً رلعله أغتئل الفضائل المعارضة لبابوات عصر النهضة : إلا أن عباراته صيغت بأسلوب رصين ، لا يخلو من الحجامة ، وهو أمر نادر في مناظرات هذا العهد .

وعند ما اطلع عليه لوثر في فيتنبرج ، رحب به على أساس أنه سيقضى تماماً على الكاردينال ، وهتف قائلاً : « لشد ما يطربني أن يهني الله أناساً . . . يهون الحرب ، التي بلدتها ضد المناهض للمسيحية » (٢٩) . وتأثر

مجلس جنيف إلى حد أنه أمر بطبع الخطابين على نفقة المدينة (١٥٤٠) ، وبدأ يتساءل ما إذا كان ، بنفيه كالفرن ، قد فقد أقدار رجل في الإصلاح الديني السويسري .

وغدت الشك عوامل أخرى . فقد برهن كاهنا الأبرشية ، اللذان حلا محل فاريل وكالفن ، على أنهما لا يصلحان لوعظ ، وينتقران إلى النظام . وفقد الجمهور احترامه لهما ، وعاد إلى الأخلاق المنحاة ، التي كانت سائدة في الأيام السابقة للإصلاح الديني . وتفشيت المقامرة والسكر ، واشتدت الحلبة في الشوارع . وانتشر الزنا ، وكان الناس يرفعون عقائرهم علناً بالأغاني الداعرة . وانطلق أشخاص في الشوارع ، عراة كما ولدتهم أمهاتهم (٣٠) . ولقد حكم بالإعدام على واحد من المأمورين الأربعة . الذين تزعموا حركة طرد فاريل وكالفن . وذلك لارتكابه جريمة قتل ، وعلى آخر لارتكابه جريمة تزوير . وعلى ثالث بتهمة الخيانة لوطن . أما الرابع فقد مات . وهو يحاول الفرار من الاعتقال . ولا بد أن رجال الأعمال . الذين كانوا يسيطرون على المجلس . قد ساءهم هذا الإخلال بالنظام . باعتباره معوقاً للتجارة . ولم يكن المجلس نفسه ميالا إلى أن يخل محله أسقف ، يستعبد سيطانه . وربما يصدر قراراً بجرمانهم من غفران الكنيسة . وهكذا خطرت فكرة دعوة كالفن الغالبية الأعضاء شيئاً فشيئاً . وفي يوم أول مايو ألغى المجلس قرار النفي ، وأعلن أن فاريل وكالفن رجلا ن جديران بالاحترام . وأرسل مندوب إثر مندوب إلى شتراسبورج . لإقناع كالفن باستئناف عمله في الأبرشية بجنيف . وغفر فاريل للمدينة لأنها لم ترسل له دعوة مماثلة . وفي كرم نبيل انضم إلى المندوبين لحث كالفن على العودة . ولكن كالفن كان قد عرف كثيراً من الأصدقاء في شتراسبورج . وشعر بأن عليه التزامات هناك ، ورأى أنه لن يجد أمامه في جنيف إلا الخصام ، وقال : « ليس في العالم . مكان أخشاه أكثر منها » . ووافق على القيام بزيارة للمدينة فحسب . وعند ما وصل إليها (١٣ سبتمبر سنة ١٥٤١) قوبل

بكثير من مظاهر التكريم ، وقدمت له عشرات الاعتذارات ، وبذات له الكثير من الوعود ، بالتعاون معه في توطيد النظام ، والعمل بالإنجيل فلم يطاوعه قلبه على الرفض ، وكتب في ١٦ سبتمبر إلى فاريل يقول : « لقد تحققت أمنيته . أنا هنا راسخ كالطود . وأسأل الله أن يمنحنا بركته » (٣١) .

٤ - مدينة الله

كان سلوكه كالفن في السنوات الأولى من دعوته ، يتسم بالاعتدال والتواضع فحسب إلى صفه الجميع ، إلا أقلية ضئيلة ، وعين ثمانية من مساعدي القسس للعمل تحت رئاسته لتقوم الخدمة الدينية في كنيسة القديس بطرس وغيرها من كنائس المدينة ، وكان يعمل مدة تتراوح بين اثني عشرة ساعة وثمانى عشرة ساعة كل يوم ، واعظاً ومديراً وأستاذاً للاهوت ، ومشرفاً على الكنائس والمدارس . ومستشاراً للمجالس البلدية : وضابطاً للأخلاق العامة ، ومنظماً للطقوس الدينية في الكنيسة . وعكف في غضون ذلك على إضافة فصول لكتابه « القوانين » ، وكتب تعليقات على الكتاب المقدس ، وحافظ على كتابة رسائل تأتي من حيث القيمة بعد رسائل أرازموس ، وإن كانت تفوقها تأثيراً . . . ولم يكن ينام إلا قليلاً ، وبأكل قليلاً ، ويصوم كثيراً . وعجب خلفه وكتب سيرته ، تيودور دى ميز ، كيف استطاع ذلك الرجل الضئيل الجسم ، أن يحمل مثل هذا العبء الثقيل المتنوع .

وكان أول عمل قام به هو إعادة تنظيم الكنيسة ، التي تناولها الإصلاح ، وعين المجلس الصغير ، بناء على طلبه ، وعقب عودته لفترة قصيرة : لجنة من خمسة من رجال الدين ، وستة من أعضاء المجلس ، يرأسهم كالفن . لصياغة قانون كنسى جديد . وفي اليوم الثانى من يناير عام ١٥٤٢ أجاز المجلس القوانين الكنسية ، التي لا تزال الكنائس التي تناولها الإصلاح والمشيخية في أوروبا وأمريكا تقبل معالمها الجوهرية . وقسمت الخدمة الدينية على كهان أبرشيات ومعلمين ، شيرخ كنيسة من العلمانيين وشمامسة ٥

وألف كهان الأبرشيات في جينيف « الجماعة المبجلة » ، التي حكمت الكنيسة ، ودربت المرشحين للخدمة الدينية . ولم يسمح كذلك لأحد بالوعظ في جينيف ، دون أن يخول ذلك من الجماعة ، وكان الأمر يتطلب أيضاً موافقة مجلس المدينة وجماعة المصلين ، إلا أن الرسامات الأسقفية — وتنصيب الأساقفة — كانت محظورة .

وأصبح التساوسة الجدد ، تحت رئاسة كالفن ، أقوى منهم في أي نظام للتساوسة عرف منذ عهد إسرائيل القديمة ، وذلك في الوقت الذي لم يدعوا فيه قط أنهم وهبوا القوى الخارقة للتساوسة الكاثوليك ، وعلى الرغم من أنهم أصـدروا على أنفسهم حكماً بأنهم لا يصلحون للوظيفة المدنية . وقال كالفن إن القانون الحقيقي للدولة مسيحية يجب أن يكون هو الكتاب المقدس ، وأن التساوسة هم المفسرون الحقيقيون لذلك القانون ، وأن الحكومات المدنية يجب أن تخضع لهذا القانون ، وأن تدعّمه كما يفسره رجال الدين . ولعل الرجال المتمرسين في المجالس قد راودتهم بعض الشكوك ، في هذه النقاط ، ولكن يبدو أنهم شعروا بأن النظام الاجتماعي أجدى للاقتصاد ، ومن هنا فإن بعض الدعاوى الكنسية يحسن أن تترك مؤقتاً دون اعتراض ، والظاهر أن حكومة رجال الدين ظلت تسيطر على حكومة أقلية من التجار ورجال الأعمال خلال ربع قرن عجيب .

ومارس رجال الدين سلطتهم على حياة أهالي جينيف من خلال مجمع للكرادلة أو مشيخية مكونة من خمسة من كهنة الأبرشية واثني عشر شيخاً للكنيسة من العلمانيين ، والجميع يختارهم المجلس .

وبينا كان كهنة الأبرشية يتمسكون بحقهم في المنصب ، من خلال خدمتهم الدينية ، وشيوخ الكنيسة يظنون في مناصبهم عاماً واحداً فقط ، فإن مجمع الكرادلة كان يحكمه أعضاؤه من رجال الدين في أمور لا تمس الأعمال بصورة جوهرية . وأدعى لنفسه الحق في تنظيم العبادة الدينية وفرض السلوك الأخلاقي على كل ساكن ، وأرسل قسيساً وشيخاً للكنيسة ، لكي

يزوروا سنوياً كل بيت وكل أسرة . وكان له الحق في استدعاء أى شخص للمثول أمامه ، لاختباره ، وكان في وسعه زجر الآثمين ، أو حرمانهم من الغفران علناً ، وكان يستطيع أن يعتمد على المجلس في أن يبنى عن المدينة من أصدر عليهم مجمع الكرادلة قراراً بالحرمان من غفران الكنيسة . وكان كالفن يقبض على زمام السلطة ، باعتباره رئيساً لهذا المجمع . وكان صوته أقوى الأصوات تأثيراً في جنيف ، من عام ١٥٤١ حتى وفاته في عام ١٥٦٤ . ولم يكن حكمه المطلق يستند إلى القانون أو سوة ، ولكنه كان يعتمد على الإرادة والخلق . ولقد أضفت عليه قوة إيمانه برسائله ، وكمال إخلاصه لواجباته ، قوة لم يستطيع أحد أن ينجح في مقاومتها ولو أن هيلدبراند بعث من قبره لطرب أيما طرب لهذا الانتصار الواضح للكنيسة على الدولة .

هكذا حول رجال الدين سلطات ، أتاحت لهم أن ينظموا أولاً العبادات . « على جميع أفراد الأسرة أن محضروا العظات يوم الأحد ، ما عدا من يتركون في البيت ، لرعاية الأطفال أو الماشية . وإذا كان ثمة وعظ في أيام الأسبوع ، فعلى كل من يستطيع الحضور أن يجيء » « كان كالفن يلقى عظاته ثلاث أو أربع مرات كل أسبوع » « وإذا جاء أحد بعد ابتداء العظة فيلنذر . وإذا لم يقوم نفسه ، فليدفع غرامة قدرها ثلاثة فلسات » (٣٢) . وليس لأحد أن يعنى من أداء الصلوات البروتستانتية ، بحجة أنه يعتقد عقيدة دينية مخالفة ، أو خاصة ، وكان كالفن مدققاً ، مثل أى أبابا ، في رفضه الفردية في العقيدة . ولقد رفض أعظم مشرع للبروتستانتية ذلك المبدأ الخاص بالحكم الفردى ، الذى كان الدين الجديد قد بدأه . كان قد رأى انقسام الإصلاح الدينى إلى مائة طائفة ، وعرف مسبقاً أكثر من هذا ، وقرر ألا يسمح بوجود طائفة منها في جنيف . إن هناك هيئة من رجال الدين العلماء ، تصوغ عقيدة رسمية ، وعلى الذين لا يقبلون اعتناقها من أهالى جنيف ، أن يبحثوا لهم من مواطن أخرى . وكان التغيب في إصرار عن حضور الصلوات البروتستانتية ، أو الاستمرار في رفض تناول القربان المقدس ، من الجرائم

التي يعاقب عليها القانون . وأصبحت المرطقة من جديد إهانة للرب ،
وخيانة للدولة ، وكل من تثبت عليه يعاقب بالإعدام . كما أصبحت
الكاثوليكية التي بشرت بهذا الحكم على المرطقة بدورها مرطقة .

وبين عامي ١٥٤٢ و ١٥٦٤ نفذ حكم الإعدام في ثمانية وخمسين شخصاً .
ونفي ستة وسبعون . بسبب مخالفتهم للقانون الجديد . وكان السحر هنا
كما في أي مكان آخر جريمة يعاقب من يزاوله بالإعدام ، ولقد أرسل إلى
سارية الإحراق في عام واحد ، وبناء على ما أشار به مجمع الكرادلة ،
أربع عشرة سيدة ، قيل أنهن من الساحرات ، بتهمة إغرائهن للشيطان ،
بأن يصيب جينيف بوباء الطاعون (٣٣) .

ولم يميز مجمع الكرادلة إلا قليلاً بين الدين والأخلاق . . . كان السلوك
الأخلاقي ، ومثله في ذلك مثل العقيدة الدينية ، يجب أن يلتزم بعناية ، ذلك
لأن حسن السلوك هو الهدف من العقيدة الصحيحة . وكان كالفن ، وهو
رجل حازم قوى المراسم ، يحلم بمجتمع يدين بنظام صارم ، إلى حد تبرهن
فضائله على لاهوته ، وتجلب بالعار الكاثوليكية ، التي أثمرت حياة النرف
والانحلال في روما ، أو تساحت فيهما . ولا بد أن يكون النظام العمود
الفقري للشخصية ، وأن يمكنها من أن ترقى بنفسها . من وحدة الفطرة
البشرية ، إلى استقامة الإنسان الذي قهر شهوات نفسه . يجب أن يكون
رجال الدين قدوة لغيرهم ، بسلوكهم وبإدراكهم الحسى . ولهم أن يتزوجوا
وأن ينجبوا ، وعليهم أن يمتنعوا عن الصيد والمقامرة واللهو والتجارة
رضروب التسلية الزمنية ، وأن يقبلوا أن يقوم رؤسائهم من رجال الكنيسة
بجولة تفتيشية سنوية ، وأن يتقصوا عن أخلاقهم .

ولتنظيم سلوك الجماهير أقيم نظام ، يعتمد على الزيارات المنزلية ،
يتلخص في أن أحد شيوخ الكنيسة أو غيره ، كان يزور سنوياً كل بيت عين
له في الحى ، ويسأل السكان عن مراحل حياتهم كلها . وانضم مجمع الكرادلة

والمجلس إلى إقرار تحريم المقامرة ولعب الورق والتجديف والسكر والتردد على الحانات والرقص (الذي كان وقتذاك يعنف بالقبلات والأحضان) ، والأغاني الماجنة أو الخارجة على الدين ، والإفراط في اللهو ، والبذخ في العيش ، والتبذل في اللبس . وحدد القانون اللون المسموح به في الملابس ومقدارها ، وعدد الأطباق المسموح بها في الوجبة الواحدة . وكانت الحلوى والمخزومات تقابل بالتجهم . وسجنت امرأة ، لأنها صفت شعرها إلى ارتفاع يتنافى مع الأدب^(٣٤) . واقتصرت الحفلات المسرحية على التمثيليات الدينية ثم منعت هذه أيضاً . وكان الأطفال لا يسمون بأسماء القديسين - الواردة في التقويم الكاثوليكي ، ولكن فضل أن يطلق عليهم أسماء شخصيات ، ذكرت في العهد القديم ، واشتغل والد عنيد أربعة أيام في السجن ، لأنه أصر على تسمية ابنه كلود بدلا من أبراهام^(٣٥) . وفرضت الرقابة على المطبوعات ، طبقاً لسوابق كاثوليكية وعلمانية ، وتوسع فيها (١٥٦٠) : فقد حُظر تداول كتب تتناول عقيدة دينية خاطئة ، أو لها نزعة تتنافى مع الخلق القويم ، وقدر لمقالات مونتاني وكتاب « أميل » لروسو أن تقع تحت طائلة هذا الحظر . وكان الحديث عن كالفن أو رجال الدين بازدراء يعد جريمة^(٣٦) ، وأول مخالفة لهذه القوانين كانت تعاقب بالزجر ، أما المخالفة التالية فكانت تعاقب بالغرامات ، والإصرار على المخالفة بالسجن أو النفي . أما الفسق فكان مرتكبه يعاقب بالنفي أو بالموت غرقاً ، ومن يرتكب جريمة الزنا أو الكفر أو عبادة الأوثان يعاقب بالإعدام . وفي مثل خارج على القياس قطعت رأس طفل ، لأنه ضرب والديه^(٣٧) . وفي عامي ١٥٥٨ - ٥٩ رفعت ٤١٤ دعوى بسبب جرائم أخلاقية ، وبين عامي ١٥٤٢ و ١٥٥٦ أقصى عن البلاد ستة وسبعون شخصاً ، ونفذ حكم الإعدام في ثمانية وخمسين ، وكان التعداد الكلي لسكان مدينة جينيف وقتذاك حوالي ٢٠,٠٠٠ نسمة^(٣٨) . وكثيراً ما استخدم التعذيب وسيلة للحصول على اعترافات أو دليل ، كما كان يحدث في كل مكان في القرن السادس عشر .

وامتد التنظيم إلى التعليم والمجتمع وإلى الحياة الاقتصادية ، وأسس كالفنن مدارس وأكاديمية ، وبحث في أرجاء أوربا عن مدرسين للغات اللاتينية واليونانية والعبرية وللاهوت ، ودرب قساوسة من الشبان حملوا إنجيله إلى فرنسا وهولندا وسكوتلاندا وإنجلترا ، بكل ما اتصف به المبشرون اليسوعيون من حمية وإخلاص في آسيا ، وأرسلت مدينة جينيف في خلال أحد عشر عاماً (١٥٥٥ - ٦٦) مبعوثاً من أمثال هولاء إلى فرنسا ، أنشد الكثير منهم المزامير الهوجنوتية ، وهم يتعرضون للاستشهاد ، ورأى كالفن أن التقسيم الطبقي أمر طبيعي .، وأسغ تشريعه الحماية على الرتبة والمنصب ، بفرض نوع من اللباس ، ووضع حدود لنشاط كل طبقة (٣٩) . كان على كل شخص أن يتقبل وضعه في المجتمع ، وأن يؤدي واجباته ، دون حسد لن هم خير منه ، أو شكوى من سوء حظه . وحُظر التسول ، واستبدل ، بالإحسان دون أى تمييز ، إدارة جماعية ، تتسم بالعناية للمساعدات التي تقدم للتفريج عن الفقراء .

والترم مذهب كالفن بالعمل الشاق والرصانة والاجتهاد والاعتدال في النفقة ، وأصبح الاقتصاد قانوناً دينياً ، يحلل بالغار رأس المعتصم به ، ولعل ذلك هو الذي أسهم في تطوير ما فطر عليه رجل الأعمال البروتستانتى الحديث ، من المثابرة على العمل ، ولقد بولغ في تأكيد أهمية (٤٠) هذه العلاقة ، إذ كانت الرأسمالية قد نمت في فلورنسا والفلاندرز الكاثوليكيين قبل الإصلاح الدينى إلى درجة أكبر مما حدث في جينيف مدينة كالفن . ورفض كالفن المذهب الفردى في الاقتصاديات كما رفضه في الدين والأخلاق .

وكانت وحدة المجتمع ، في رأيه ليست الفرد الحر (الذى بدأ به لوثر ثورته) ، ولكن مجتمع دولة المدينة ، التي ارتبط أعضاؤها بها بقانون حازم ونظام صارم . وكتب يقول ، ليس لأحد من أعضاء الجماعة المسيحية أن يحتفظ بمواهبه لنفسه ، وأن يقصرها على استعماله الخاص ، بل

يجب أن يشرك فيها زملاءه من الأعضاء ، وليس له أن يجني فائدة إلا من تلك الأشياء ، التي تنشأ من النفع العام للهيئة ، باعتبارها كلاً لا يتجزأ» (٤١) « ولم يكن يظهر أى عطف نحو المضاربة لجمع المال أو تكديسه بصورة جائزة (٤٢) ، وسمح بتقاضى فائدة على القروض مثل بعض أصحاب النظريات الكاثوليكية فى أواخر القرون الوسطى ، ولكنه حدد الفائدة نظرياً بخمسة فى المائة ، وحث على منح قروض ، دون تقاضى أية فائدة ، إلى الأفراد المعوزين أو الدولة (٤٣) . وعاقب مجمع الكرادلة ، بموافقتهم ، المحتمكين والمستغلين والمقرضين الذين يتقاضون فوائد باهظة ، وحدد المجمع أسعار الطعام والملابس وأجور العمليات الجراحية ، وضم التجار الذين غشوا عملاءهم أو فرض عليهم غرامات ، والبائعين المطففين الذين إذا كالوا للناس أو وزنوا لهم ينقصون ، وبائعى الأقمشة الذين يختلسون من الأثواب (٤٤) . وكان النظام أحياناً يسير نحو اشتراكية الدولة . فقد أسست الجماعة الموقرة مصرفاً وأدارت بعض الصناعات (٤٥) .

وإذا وضعنا فى أذهاننا هذه العوامل المقيدة ، فإننا قد نسلم بوجود اتفاق ودى صامت ومتزايد بين مذهب كالفن والعميل والتجارة ، وما كان فى وسع كالفن أن يحتفظ طويلاً بزعامته ، لو أنه عاق النمو التجارى فى مدينة تعتمد فى حياتها على التجارة . وهياً نفسه للموقف ، وسمح بتقاضى فائدة قدرها عشرة فى المائة ، وأوصى بمنح قروض للدولة ، لتمويل صناعة خاصة ، تدخل لأول مرة ، أو للتوسع فيها ، كما حدث فى صناعة النسيج أو فى إنتاج الحرير . ومالت المراكز التجارية ، مثل أنتورب وأمستردام ولندن توالاً للدين الجديد ، الذى تقبل الاقتصاد الحديث . وطوى مذهب كالفن فى أحضانه الطبقات الوسطى ونما بنموهم .

وماذا أسفر عنه حكم كالفن ؟ لا بد أن الصعوبات التى واجهت التنفيذ كانت هائلة ، لأنه لم يحدث قط فى التاريخ أن طولبت مدينة بمراعاة مثل هذه الفضيلة الصارمة ، وعارض فريق كبير نظام الحكم إلى درجة إعلان

الثورة الصريحية ، ولكن لا بد أن عدداً لا يستهان به من المواطنين ذوى النفوذ قد أيدوه . ولو على أساس النظرية العامة للأخلاق ، لأن آخرين كانوا فى حاجة إليها . وليس من شك فى أن تدفق الموجهات الفرنسية وغيرهم من البروتستانت قد أطلق يد كالفن ، ثم أن قصر التجربة على مدينة جينيف وما وراءها قد رفع من فرص النجاح . ولا شك أن الخوف المتواتر من غزو الدول المعادية لها (سافوى وإيطاليا وفرنسا والإمبراطورية) وامتصاصها قد فرض الاستقرار السياسى والخضوع المدنى ، ورفع الخطر الخارجى من شأن النظام الداخلى ، وعلى أى حال فإن لدينا وصفاً حماسياً للنتائج التى أسفر عنها هذا الحكم ، بقلم شاهد عيان هو برناردينو أوكينو ، وهو إيطالى بروتستانتى ، وجد ملجأ فى مدينة جينيف .

« إن السب والتجديف وعدم التمسك بالعفة وتدنيس المقدسات والزنا والحياة غير الطاهرة ، كما يشيع ويغلب ذلك فى كثير من الأماكن التى عشت فيها ، غير معروفة هنا . ليس هناك قوادون ومومسات . إن الناس لا يعرفون ما هو الأحمر ، وكلهم يرتدون زياً لائقاً ، والألعاب التى تعتمد على الحظ ليست مألوفة . والخير جد وفير إلى جد أن الفقراء ليسوا فى حاجة إلى التسول . والناس يأمر بعضهم بعضاً بالمعروف بطريقة أخوية كما فرض المسيح .

والدعوى اختفت من المدينة ولم يعد فيها أى اتجار بالمقدسات أو قتل أو روح حزبية ، وعمها السلام وحب الخير ، ومن جهة أخرى ليس هناك آلات أرغن ولا أجراس تدق ولا أغاني استعراضية ولا شموع تشعل أو مصابيح تضاء (فى الكنيسة) وليس هناك مخلفات مقدسة أو صور أو تماثيل أو مظلات أو أثواب فاخرة أو هزليات أو احتفالات باردة . إن الكنائس خالية تماماً من عبادة الأوثان » (٤٦) .

ولا تتفق سجلات المجلس المستفيضة عن هذا العهد ، مع هذا التقرير ،

فهى تكشف عن نسبة مثوية عالية من الأطفال غير الشرعيين والأطفال المهجورين والزيجات التي تمت بالإكراه والأحكام الصادرة بالإعدام^(٤٧). ومن بين من أدينوا بالزنى صهر^(٤٨) كالفن وابنة زوجته . واكتنا نجد مرة أخرى حوالى عام ١٦١٠ فالينتين أندريا وهو قسيس لوثرى من فيتنبرج يثنى على مدينة جنيف ثناء لا يخلو من الحسد ويقول : « عند ما كنت فى جنيف لاحظت شيئاً عظيماً سوف أذكره وأتشف إليه ما حيت . ففى تلك المدينة ليس هناك نظام كامل للجمهورية كاملة فحسب . ولكن هناك نظام أخلاقى يقوم باستمصات أسبوعية عن سلوك المواطنين بل وعن أقل عمل يتجاوزن به الحدود . وذلك كحلية خاصة . . . وكل السباب والتجديف والتمار والترف والشتاق والكراهية والغش محظورة ، وفى الوقت نفسه لا يسمع أحد عن الكبر . فأية صفة مجيدة يتحلى بها الدين المسيحن أعظم من مثل هذه الطهارة فى الأخلاق . إننا يجب أن نبكى وننوح على أننا (الألمان) نفتقد هذه الصفات وأنها أهملت عندنا كلية .

ولولما بيننا من خلاف فى الدين لربطت نفسى بمدينة جنيف إلى الأبد^(٤٩).

٥ - معارك كالفن

انسقت شخصية كالفن مع لاهوته . وتصوره اللوحة الزيتية المحفوظة فى مكتبة الجامعة بجنيف رجلاً صوفياً صارماً حزيناً ذا بشرة قائمة هربت منها الدماء ، ولحية سوداء قليلة الشعر ، وجهه عريضة وعينين قاسيتين نفاذتين . وكان قصير القامة نحيل الحسد ضعيف البنية لا يكاد يصلح لأن يحمل مدينة بين يديه . ولكن خنف الهيكل الضعيف يتوقد ذهن حاد فذ مخالص مدقق وإرادة حازمة لا تتهر ولعلها إرادة نقوة . وكان فكره قلعة للنظام جعل منه تقريباً أكوينى اللاهوت البروتستانتى . وكانت ذاكرته تزخر بآلاف الموضوعات إلا أنها دقيقة وكان يسبق عصره فى الشك فى علم التنجيم ويواكبه فى رفض الاعتراف بكوبرنيكوس ويتخلف عنه قليلاً (مثل لور) فى نسبة كثير من الحوادث الدنيوية إلى الشيطان . وكان

وجله يخفى شجاعته وخجله يحجب كبرياءه في باطنه وذلته أمام الله أصبحت في بعض الأحيان عجرفة آمرة أمام الناس . وكان شديد الحساسية للنقد ولم يكن في وسعه أن يتحمل المعارضة بجلد امرئ يستطيع أن يدرك احتمال أنه قد يكون مخطئاً . وهذه المرض وانحنى ظهره من كثرة العمل ولهذا كان كثيراً ما كان يتمن غيظاً وينفجر في نوبات من المفصاحة الغاضبة ، واعترف لبوسر بأنه وجد أن من الصعب عليه أن يروض « الوحش الكامن في غضبه » (٥٠) ولم يكن من فضائله المرح الذي كان حرياً بأن يخفف من يقينيته ولا الإحساس بالجمال الذي كان كفيلاً بأن يستبق الفن الكنسى . ومع ذلك فإنه لم يكن مشاعياً لا تلين قناته ، وأمر أتباعه بأن يكونوا منشرحين وأن يلعبوا ألعاباً لا ضرر منها مثل لعب الكرة ولعبة صيد الخنزير بحلقات الحبال وأن يستمتعوا بشرب النبيذ في اعتدال . وكان في وسعه أن يكون صديقاً حنوناً رقيق القلب وعدواً لا يتسامح ، وكان قادراً على إصدار أحكام قاسية وعلى الانتقام بشدة . وكان الذين يخدمونه يخشونه (٥١) ، أما الذين كانوا يحبونه فهم الذين عرفوه حق المعرفة . وكانت حياته الجنسية خالية من الزلات ، وكان يعيش في بساطة ويأكل قليلاً ، ويصوم دون أن يقصد التباهى ، ولا ينام إلا ست ساعات في اليوم ، ولم يحصل قط على إجازة ، واستنفد قواه دون تحديد فيما ظن أنه عبادة الله . ورفض أن يمنح زيادة في مرتبه ولكنه سعى لكى يرفع الأموال المخصصة للبر بالفقراء . وقال البابا بيوس الرابع : « إن قوة ذلك الهراطيق تكمن في هذا : إن المال لم يكن له أقل سحر عليه . وإذا كان لدى أتباع مثله فإن مملكتى سوف تمتد من البحر إلى البحر » (٥٢) .

ورجل له مثل هذا الطبع لا بد أن يثير حقد كثير من الأعداء ، وحرابهم بشدة وبلغة العصر الحولية . . . ووصف خصومه بأنهم من الأوغاد وأنهم أغبياء وكلاب وحمير وخنزير وبهاثم منقنة (٥٣) - وهى نعوت أقل لياقة بالنسبة للاتينيه الرشيقة من أسلوب لوثر الذى يشبه أسلوب المجالدين ، ولكنه واجه استفزازات . فقد حدث يوم أن قاطع جيروم بولسيك ،

وهو راهب سابق من فرنسا ، كالفن وهو يقدم عظته في كنيسة القديس بطرس وندد بالعقيدة التي تقول بالخبر باعتبارها إهانة للرب ، فرد عليه كالفن بأن تلا آيات من الكتاب المقدس ، واعتقلت الشرطة بولسيك وأتممه مجمع الكرادلة بالهرطقة . وكان المجلس ميالا إلى الحكم عليه بالإعدام ، ولكن عند ما استأنس بآراء علماء اللاهوت في زيورخ وبازيل وبرن دلت على أنها مبلبة : فقد أوصت برن بالحرص في علاج المشكلات التي تدق على إدراك الإنسان - وهي نعمة جديدة في أدب العصر ، وحذر بولينجر ، كالفن ، أن «الكثيرين مستاءون مما تقول في كتابك القواين حول الخبر ، ويستخلصون نفس النتائج مثل بولسيك» (٥٤) وتراضى المجلس على النفي (١٥٥١) وعاد بولسيك إلى فرنسا وإلى الكاثوليكية .

وأهم من هذا في النتيجة مناظرة كالفن مع جوليم ويستفال ، إذ ندد هذا القسيس اللوثرى برأى زونجلي وكالفن القائل بأن المسيح لا يحضر في القربان المقدس إلا بروحه وعلم هذا «تجديداً من وحى الشيطان» ورأى أن المصلحين الدينيين السويسريين يجب ألا يرد عليهم بأقلام علماء اللاهوت ، ولكن بعضا الحكام (١٥٥٢) ورد عليه كالفن بألفاظ بلغت من القسوة حداً دفع زملاءه من المصلحين الدينيين في زيورخ وبازيل وبرن إلى رفض التوقيع على احتجاجه . ومع ذلك فإنه أصدره ، وعاد ويستفال وآخرون من أنصار لوثر إلى الهجوم ، فندمهم كالفن بأنهم «قردة لوثر» وأبدى من الحجج القوية ما دفع عدة مناطق كانت وقتذاك تناصر لوثر مثل - براندنبرج والبلاتينات وأجزاء من هس وبريمن وأنهالت وبادن إلى الموافقة على وجهة نظر سويسرة والكنيسة التي خضعت للإصلاح الديني ، ولم ينقد باقي ألمانيا الشمالية من التحول عن العقيدة اللوثرية إلا صمت ميلانكتون (الذي كان يتفق في الرأي سرّاً مع كالفن) وصدى صواعق لوثر بعد الموت .

وتحول كالفن من هذه الهجمات على اليمين وواجه إلى اليسار جماعة من المتطرفين وصلوا حديثاً إلى سويسرة من إيطاليا المعارضة لها في الإصلاح

الديني . وكان كايليوس سيكونندوس كوريو يلقي تعاليمه في لوزان وبازيل . وقد صدم كالفن عند ما أعلن أن الناجين - وفيهم كثير من الوثنيين - سوف يفوقون عدداً المعذبين في نار جهنم بكثير . أما لاييوس سوكينوس ، وهو ابن أحد كبار فقهاء القانون الإيطاليين ، واستقر في زيورخ فقد درس اليونانية والعربية والعبرية لكي يفهم الكتاب المقدس على أحسن وجه ، وتعلم كثيراً جداً ، وفقد إيمانه بالثالوث الأقدس والجبر والخطيئة الأصلية والتكفير . وأعرب عن شكه لكالفن الذي رد عليه بقدر الإمكان . ووافق سوكينوس على أن يتجنب التعبير علناً عن شكوكه ولكنه تكلم فيما بعد معارضاً تنفيذ حكم الإعدام في سرفيتوس ، وكان من بين القائلين الذين وقفوا يدافعون عن التسامح الديني في ذلك العصر المحموم .

وفي دولة يمتزج فيها الدين والحكومة في مزيج مسكر ، كان من الطبيعي أن تكون أشد الممارك التي خاضها كالفن هي معاركه مع الوطنيين والمتحررين والذين أقصوه مرة عن البلاد والذين أسفروا الآن لعودته . فقد استاءه الوطنيون من أصله الفرنسي ومن أنصاره وكرهوا لاهوته ولقبوه بقابيل ، وأطلقوا على كلابهم اسم كالفن . وسبوه في الطرقات . ولعلمهم هم الذين أطلقوا في إحدى الليالي خمسين طلقة نارية خارج بيته . وبشر المتحررون بعقيدة تقول بوحدة الوجود ، وتخلوا عن ذكر الشياطين أو الملائكة أو بجنة عدن أو التكفير أو الكتاب المقدس أو البابا . واستقبلتهم مارجریت ملكة نافار وأبدتهم في بلاطها بنيرك ، ولامت كالفن على قسوته معهم .

وفي يوم ٢٧ يونيو عام ١٥٤٧ وجد كالفن إعلاناً كبيراً ملصوقاً على منبره وجاء فيه : منافق كبير إنك ان تجنى أنت ورفقاؤك بالملك إلا النذر اليسير وإذا لم تنجوا بحياتكم بالهرب فلن يحول أحد دون القضاء عليكم . واسوف تلحن الساعة التي تركت فيها ديرك . . . إن الناس ينتقمون لأنفسهم بعد أن عانوا طويلاً . . . احذر فلن تعامل مثل السيد فيرل (الذي كان قد قتل) . . . لم يكون لنا سادة كثير ون إلى هذا الحد (**) . . .

وقبض على جاك جريه ، وهو أحد كبار المتحررين ، إذا شتبه في أنه كتب الإعلان ولم يقدم أى دليل . وادعى بعضهم أنه قبل ذلك بيضعة أيام تفوه بتهديدات ضد كالفن ، ووجد في حجرته أوراق قيل أنها بخط يده ، يصف فيها كالفن بأنه منافق متعجرف وطموح ويسخر فيها من أن الكتب المقدسة وحى من عند الله ومن خلود الروح . وعذب مرتين كل يوم لمدة ثلاثين يوماً إلى أن اعترف - ولا ندرى مدى ما في اعترافه عن صدق - بأنه كان قد ثبت الإعلان الكبير وتآمر مع العملاء الفرنسيين ضد كالفن ومدينة جينيف . وفي يوم ٢٦ يوليو ربط إلى خازوق ، وهو نصف ميت ، وسمرت قدماه فيه وقطع رأسه (٥٦) .

وازدادت حدة التوتر إلى أن جاء الوطنيون والمتحررون يوم ١٦ ديسمبر عام ١٥٤٧ وهم مسلحون وحضروا اجتماعاً للمجلس الكبير وطالبوا بوضع حد لسلطة مجمع الكرادلة على المواطنين ، وفي ذورة هرج عنيف دخل كالفن إلى الحجرة وواجه الزعماء المعادين له وقال وهو يندق على صدره : « إذا كنتم تريدون سفك دمي فما زالت هنا بضع قطرات فهبيا اضربوا » وسحبت السيوف ولكن أحداً لم يجسر على أن يكون القاتل الأول . وخطب كالفن الجمع بحلم نادر وأخيراً اقنع كل الأطراف بعقد هدنة . ومع ذلك فقد اهتزت ثقته في نفسه .

وكتب يوم ١٧ ديسمبر إلى فرييه يقول : « إن أملى ضعيف في أن تستطيع الكنيسة أن تجده لها عضداً أكثر من هذا ، على الأقل من رجالى الذين يقومون بالخدمة الدينية . صدقنى إن سلطاني يتحطم ، اللهم إلا إذا مد الله إلى يده » . ولكن المعارضة انقسمت شيعاً وأحزاباً وهدأت إلى أن أتاحت لها محاكمة سرفيتوس فرصة أخرى .

٦ - ميكائيل سرفيتوس ١٥١١ - ٥٣

ولد ميغيل سرفيتوس في فيلانوفا (وتقع على بعد حوالي ستين ميلا من ساراقوسه) وهو ابن موثق عقود من أسرة كريمة . ونشأ في عهد كانت فيه كتابات أرازموس تتمتع بتسامح عابر في إسبانيا . وكانت متأثرا إلى حد ما بأدب اليهود والمسلمين ، إذ قرأ القرآن وشق طريقته في التأويلات التامودية وتأثر بنقد الساميين للمسيحية (بصلواتها للثالوث وليريم وللقديسين) باعتبارها شركاً . وأطلق عليه لوثر لقب « المراكشي » .

وفي تولوز حيث درس القانون ، رأى لأول مرة كتاباً مقدساً كاملاً وأقسم ليقرائه « ألف مرة » ، وتأثر تأثراً عميقاً بالرؤى في سفر الرؤيا . وفاز برعاية جوان دي كوينتانا كاهن الاعتراف الخاص لشارل الخامس ، وأخذته جوان إلى بولونيا وأوجسبورج (١٥٣٠) ، واكتشف ميكائيل البروتستانتية وأحبها ، وزار أويكولامباديوس في بازيل ، كما زار كابينو وبوسر في شتراسبورج ، وسرعان ما غدا هرطيقاً في رأيهم ، ودعى لكي يرعى في حقول أخرى .

ونشر في عامي ١٥٣١ و ١٥٣٢ أول وثاني طبعة من مؤلفه *De Trini- tatis erroribus* ، وكان فيه خلط كثير ، وكتب بلغة لاتينية غير مصقولة لا بد أنها كانت تدفع كالفن إلى الابتسام لو اطلع عليها ولكنها كانت عملاً مذهلاً بالنسبة لفتى في العشرين من عمره بسبب ثراتها في سعة العلم بالكتاب المقدس . وكان يسوع في نظر سرفيتوس رجلاً نفخ فيه الرب ، الأب كلمة الله ، الحكمة الإلهية ، وبهذا المعنى أصبح يسوع ابن الرب ولكنه لم يكن كفوا للأب أو سمردياً مثله ، يستطيع أن يوصل روح الحكمة نفسها إلى الآخرين من الناس « إن الابن أرسل من الأب بطريقة لا تختلف عن تلك التي أرسل بها واحد من الأنبياء » (٥٧) ، وهذا قريب جداً من مفهوم

محمد عن المسيح . واستطرد سرفيتوس ليستشهد برأى الساميين في القول بالثالوث الأقدس : « وكل من يؤمن بثالوث أقدس بروح الله يقول بوجود ثلاثة أرباب » . وأضاف قائلاً لأنهم ملحدون حقاً باعتبارهم منكرين لوجود إله واحد (٥٨) . وكان هذا تطرفاً شديداً من شاب ، ولكن سرفيتوس حاول أن يخفف من هرطقته بتأليف مقطوعات مهلهلة النسيج عن المسيح باعتباره نور العالم ، ومهما يكن من أمر فإن معظم قرائه شعروا بأنه قد أطفأ النور . وكأنما كان يريد ألا يترك حجراً دون أن يقذف به أحداً فتساقى مع الالمعمدانين في أن التعميد يجب ألا تجرى مراسيمه إلا للبالغين . فأنكر عليه ذلك أويكو لامباديوس وبوسر ، فقلب سرفيتوس دليل سفر كالفن وفر من سويسرة إلى فرنسا (١٥٣٢) .

وفي يوم ١٧ يوليو أصدرت محكمة التفتيش في تولوز أمراً بالقبض عليه . وفكر في السفر إلى أمريكا ولكنه وجد أن باريس أحسن منها . وهناك تذكر في شخصية ميشيل دي فيلينف (اسم العائلة) ودرس الرياضيات والجغرافيا وعلم الفلك والطب وغازل التنجيم . وكان فيزيالوس العظيم زميله في دراسة التشريح وأثنى أساتنتهما عليهما سوياً . وتشاجر مع عميد كلية الطب ، ويبدو بوجه عام أنه أساء التصرف بتهوره وانفعاله واعتزازه بنفسه . وتحدى كالفن للدخول معه في مناظرة ولكنه لم يظهر في المكان والزمان المعينين (١٥٣٤) . وغادر سرفيتوس باريس مثل كالفن في الفترة التي اشتد فيها الغضب على خطاب كروب والإعلانات الكبيرة الهرطيقية .

وفي ليون أشرف على نشر طبعة جديدة بعالم من جغرافية بطليموس ، وانتقل عام ١٥٤٠ إلى فيين (على بعد ستة عشر ميلاً جنوبي ليون) ، وهناك عاش حتى آخر سنة من حياته وهو يمارس الطب ويشغل بالبحث . واختير من بين الكثيرين من الباحثين الذين أتيح للناشرين في ليون التعامل معهم لكي يشرف على نشر ترجمة لاتينية للكتاب المقدس قام بها سانتيس باجنيني .

وقضى في هذا العمل ثلاث سنوات وآل إلى ست مجلدات . وفي آية عن أشعيا ٧ : ١٤ الذى كان جيروم قد جعلها « عذراء سوف تحمل » ، شرح سرفيتوس أن الكلمة العبرية لا تعنى عذراء بل امرأة شابة ، ورأى أنها لا تشير إشارة تنبئية إلى مريم بل إلى زوجة حزقيال ، وأوضح بنفس الروح أن بعض الفقرات الأخرى في العهد القديم التى تبدو تنبئية تشير فقط إلى شخصيات أو حوادث معاصرة . وقد ثبت أن هذا محير للبروتستانت والكاثوليك على السواء .

ولا ندرى متى اكتشف سرفيتوس الدورة الدموية الرئوية - مرور الدم من الغرفة اليمنى للقلب على طول الشريان الرئوى إلى الرئتين وتدفقه خلالها وتنقيته هناك بالتحريض للهواء ، وعودته فى الوريد الرئوى إلى الغرفة اليسرى من القلب ، وبقدر ما هو معروف الآن فإنه لم ينشر اكتشافه حتى عام ١٥٥٣ عند ما أدرجه فى مؤلفه الأخير « إعادة المسيحية » .

وقد جاء بالنظرية فى رسالة لاهوتية لأنه اعتقد أن الدم بمثابة الروح الجوهرية فى الإنسان ، ومن ثم يعد - ربما أكثر من القلب أو المخ - المقر الحقيقى للروح . وإذا أرجأنا فترة النظر فى مشكاة أسبقية سرفيتوس فى هذا الاكتشاف فمحسبنا أن نلاحظ أنه من الواضح أنه أكل رسالته « إعادة المسيحية » فى سنة ١٥٤٦ لأنه أرسل فى ذلك العام المخطوطة إلى كالفن .

وكان العنوان نفسه تحدياً للرجل الذى كتب شريعة الدين المسيحى ، بيد أن الكتاب إلى جانب ذلك رفض الفكرة القائلة بأن الله قادر على أرواح أن تعذب فى نار جهنم بغض النظر عن حسناتها أو سيئاتها ، باعتبار أن هذه الفكرة كفر وتجديف . وقال سرفيتوس إن الله لا يحكم على أحد لا يدين نفسه . ولا بأس بالإيمان ولكن المحبة خير وأبقى ، لأن الله نفسه محبة : وطن كالفن أنه يكفيه لى يدحض هذا كله أن يرسل إلى سرفيتوس نسخة

من كتاب «القوانين» ، فأعاده سرفيتوس اليه مع تعليقات مهينة (٥٩) ، وأعقب ذلك بارسال سلسلة من الخطابات تحفل عباراتها بالازدراء الشديد إلى حد أن كالفن كتب إلى فاريل (١٣ فبراير سنة ١٥٤٦) : « لقد أرسل لي سرفيتوس مجلداً مطولاً بأقواله الحارفة . وإذا وافقت فلن يتردد في الحضور هنا ، ولكنني لن أعطيه كلمة مني لأنه إذا جاء فإني لن أطيق أن أتركه يخرج حياً إذا كان هذا في سلطتي» (٦٠) ، وغضب سرفيتوس لرفض كالفن استمرار المراسلة بينهما فكتب إلى آيبل بويان ، وهو أحد قساوسة جينيف يقول :

« إن إنجيلكم بدون رب وبدون إيمان حق وبدون أعمال صالحات . فبدلاً من الرب عبدتم (*) سربيروس ذا الرؤوس الثلاثة (الثالث المقدس) وبدل الإيمان اتخذتم حليماً حتمياً . . . والإنسان عندكم بدن هامد والرب خيال الإرادة المستعبدة . . . إنكم تغلقون أبواب مملكة السماء في وجوه الناس . . . الويل ! الويل ! الويل ! هذا هو ثالث خطاب أكتبه لكم لأحذركم عليكم تعرفون أحسن من هذا . ولن أحذركم مرة أخرى ففي معركة ميكائيل هذه أعلم أنني سوف أموت لا محالة . . . بيد أنني لن أتردد . . . أن المسيح آت ولا ريب . ولن يتمهل» (٦١) .

ومن الواضح أن سرفيتوس كان أشد خبلاً من المتوسط في عصره . فقد أعلن أن نهاية العالم قد أوشكت وأن ميكائيل رئيس الملائكة سوف يشن حرباً مقدسة ضد المناهضين للمسيحية من البابويين وأهالي جنيف على السواء ، وأنه وقد سمي باسم رئيس الملائكة سوف يقاتل ويموت في تلك الحرب (٦٢) . وكان كتاب «الإعادة Restitutio» دعوة إلى تلك الحرب . فلا عجب إذا كان قد وجد صعوبة في العثور على ناشر يقبله إذ أجفل منه الناشر في بازيل ، وأخيراً (٣ يناير عام ١٥٥٣) طبعه بالتنازل

(*) كائن خرافي .

أرتويبه وجيوم بجيروه فى الخفاء بمدينة فين . ولم تذكر أسماءهم ولا مكان النشر ووقع المؤلف باسم م . س . ف . ودفع كل النفقات وصحح بنفسه التجارب ثم أتلّف المخطوط . ووصل المجلد إلى ٧٣٤ صفحة لأنه تضمن شكلاً منقحاً من كتاب « De Trinitatis erroribus » ورسائل سرفيتوس الثلاثين إلى كالفن ، وأرسل إلى بائع كتب فى جنيف بجانب من الألف نسخة المطبوعة . وهناك وقعت نشرة فى يدى جيوم ترى وهو صديق لكالفن . وقد أوضحت الخطابات الثلاثون بجلاء لكالفن أن م . س . ف . هى الحروف الأولى من اسم ميكائيل سرفيتوس الفيلانوفى . وكتب ترى فى يوم ٢٦ فبراير عام ١٥٥٣ إلى ابن عم كاثوليكى فى ليون يدعى أنطوان أرنى أعرب له فيها عن دهشته من أن الكاردينال فرانسوا دى تورنون قد سمح بنشر كتاب مثل هذا فى دائرة أسقفية . كيف عرف ترى مكان النشر ؟ لقد عرف كالفن أن سرفيتوس كان يعيش فى ليون أو فين . وعرض أرنى الأمر على ماتياس أورى عضو محكمة التفتيش فى ليون فأبلغ أورى بذلك الكاردينال ، فأصدر أمراً إلى موجرون نائب محافظ فين للبحث والاستقصاء . وفى يوم ١٦ مارس استدعى سرفيتوس إلى بيت موجرون . وقبل أن يخضع للأمر أتلّف كل الأوراق التى تثبت ذنبه . وأبكر أنه أُلّف الكتاب ، فأرسل أرنى إلى ترى يطلب منه تقديم دليل آخر على أن سرفيتوس هو مؤلف الكتاب . وحصل ترى من كالفن على بعض الخطابات التى أرسلها له سرفيتوس . وبعث بها إلى ليون . وتبين أنها تطابق عدداً من الخطابات المنشورة فى الكتاب . وقبض على سرفيتوس فى اليوم الرابع من أبريل ، وفر بعد ثلاثة أيام بالقنمز فوق سور حديقة . وفى يوم ١٧ يونيه أذنت المحكمة المدنية فى فين . وحكمت عليه بأن يحرق حياً على نار بطيئة إذا عثر عليه .

وأخذ سرفيتوس يضرب على غير هدى فى أنحاء فرنسا لمدة ثلاثة شهور ، وقرر أن يلجأ إلى نابولى وأن يذهب عن طريق جييف ، وظل فى جييف

شهرراً لأسباب غير معروفة متخذ اسماً مستعاراً ، وفي غضون ذلك أعد ترتيباته للانتقال إلى زيورخ ، وفي اليوم الثالث عشر من أغسطس حضر الصلاة بالكنيسة ، ولعله فعل هذا لكي يتجنب استقصاء السلطات عنه . وهناك عرف وأبلغ ذلك إلى كالفن فأمر بالقبض عليه . وشرح كالفن هذا العمل في خطاب (٩ سبتمبر عام ١٥٥٣) ، قال : « إذا كان البابويون قساة غلاظ الأكياد ويظهرون منتهى العنف دفاعاً عن خزعبلاتهم إلى حد أنهم يثورون غضباً وتقسو قلوبهم فيسفكون الدم البريء ألا ينجل الحكام المسيحيون من أنفسهم عند ما يبدون أمام الناس أقل غيرة في المدفاع عن الحق الذي لا ريب فيه ؟ » وتأثر المجلس الصغير بزعامة كالفن وفاقه في القسوة والنظاظة ، ولما كان سرفيتوس مجرد عابر سبيل ولم يكن مواطناً يخضع لقوانين مدينة جينيف فإن المجلس من الناحية القانونية كان لا يستطيع أن يفعل شيئاً أكثر من نفيه خارج المدينة .

واعتقل في قصر سابق لأحد الأساقفة تحول الآن إلى سجن . ولم يعذب إلا بالقمع الذي أغار على زنزانته . وسمح له بورق وخبز وبأى كتب يعن له شراؤها ، وأعاره كالفن بضعة مجلدات بتلم الآباء الأوائل . وأدبرت المحاكمة بعناية واستمرت ما ينوف على شهرين . ودبج كالفن قرار الاتهام في ثمان وثلاثين مادة دعمها بفقرات اشتهد بها من كتابات سرفيتوس . ومن بين التهم أنه قبل وصف سترابو لليهودية بأنها بلد مجذب بينما وصفها الكتاب المقدس بأنها أرض يتدفق فيها اللبن والعسل^(٦٣) . وكانت الاتهامات الرئيسية الموجهة إلى سرفيتوس هي أنه رفض التسليم بالثالوث وتعميد الأطفال ، كما اتهم أيضاً بأنه « طعن في شخص السيد كالفن العقائد التي فرضها إنجيل كنيسة جينيف »^(٦٤) ، وفي يومي ١٧ و ٢١ من أغسطس ظهر كالفن بشخصه في قاعة المحكمة ليوجه له الاتهام . ودافع سرفيتوس عن آرائه بشجاعة ، ومنها القول بمذهب وحدة الوجود . وقام تعاون غير مألوف بين العقائد المعادية فطلب المجلس البروتستانتى في جينيف من القضاة الكاثوليك في فيين إبداء

آرائهم في فقرات خاصة من الاتهامات التي وجهت هناك ضد سرفيتوس .
ومن بين التهم الجديدة الفجور الجنسي ، فرد سرفيتوس بأن الممتق قد حوله
منذ زمن بعيد إلى عين ومنعه من الزواج (٦٥) . واتهم علاوة على هذا بأنه كان
قد حضر القداس في فيين ، فدافع عن نفسه وبرر أنه إنما أقدم على هذا
خوفاً على حياته . وتحدى أن تكون لمحكمة مدنية ولاية في الفصل في قضايا
الهرطقة ، وأكد للمحكمة أنه لم يقم بإثارة شغب ولم يخالف قوانين مدينة جينيف
وطالب بتعيين محام له يلم بهذه القوانين خيراً منه ، وذلك ليعاونه في الدفاع عن
نفسه ، ورفضت كل هذه الحجج وأرسلت محكمة التفتيش الفرنسية وكيلها
عنها إلى مدينة جينيف للمطالبة بإعادة سرفيتوس إلى فرنسا لتنفيذ الحكم الذي
صدر ضده . فتوسل سرفيتوس للمجلس والدموع تسيل من مآقيه أن يرفض
هذا الطلب ، فاستجاب له المجلس ، ولكن لعل الطلب قد حفز المجلس على
ألا يكون أقل قسوة من محكمة التفتيش .

وفي اليوم الأول من سبتمبر سمح لعدوين من أعداء كالفن - هما
آمي بيران وفيلبرت برتلييه - بأن ينضموا إلى القضاة الذين يتولون المحاكمة ،
فشغلا كالفن بمجادلات ، لا طائل تحتهما ، ولكنهما أقنعا المجلس باستشارة
الكنائس الأخرى في سويسرة البروتستانتية عن كيفية معاملة سرفيتوس ،
وفي اليوم الثاني من سبتمبر واجهت زعامة كالفن في المدينة تحدياً في المجلس
على يد الوطنيين والمتحررين ، فواجهه العاصفة حتى مرت بسلام ، ولعل رغبة
المعارضة الواضحة في إنقاذ سرفيتوس قد شددت من عزيمة كالفن على أن
يلاحق الهرطيق حتى ينفذ فيه حكم الإعدام . ومهما يكن من أمر فإنه
يجدر بنا أن نتوه بأن المدعى الرئيسي في المحاكمة كان كلود ريجوه Rigot
وهو من المتحررين (٦٦) .

وفي اليوم الثالث من سبتمبر قدم سرفيتوس للمجلس رداً مكتوباً على
الاتهامات الثمانية والثلاثين التي وجهها له كالفن . ودحض كل اتهام بحجة

ذكية وبفتمترات استشهد بها من الكتاب المقدس أو أقوال ردها آباء الكنيسة . وتساءل عن حق كالفن في التدخل في المحاكمة ووصفه بأنه من مريدى سيمون ماجوس وهو مجرم وسفك للدماء (٦٧) . فرد عليه كالفن في ثلاث وعشرين صفحة ، عرضت على سرفيتوس ، الذى أعادها بدوره إلى المجلس بتعليقات هامشية مثل « كذاب » و « دجال » و « منافق » و « تعس شتى » ، ولعل ما عاناه سرفيتوس من نصب في السجن خلال شهر وما لاقاه من تعذيب عقلي قد حطم ضبط النفس . وتقارير كالفن ذاتها عن المحاكمة ديجت بأسلوب العصر ، فزراه يكتب عن سرفيتوس فيقول : « مسح الكلب التلذذ أنفه » و « السافل الغادر » (٦٨) يلوث كل صفحة و « تخريفات منافية للتقوى » (٦٩) . واتمس سرفيتوس من المجلس أن يتهم كالفن بأنه « يقمع حقيقة يسوع المسيح » وأن « يمحوه من الوجود » ويصادر أمواله ، وذلك لتعويض سرفيتوس بهذه الإجراءات عن الأضرار التى لحقت به من جراء أعمال كالفن . ولم يقابل الاقتراح بالترحيب ،

وفى اليوم الثامن عشر من أكتوبر وردت الردود من الكنائس السويسرية التى طلب منها لإبداء المشورة ، فرأت كلها إداقة سرفيتوس ، ولم يطلب واحد منها لإعدامه . وبذل بيران آخر مجهود لإنقاذه فى اليوم الخامس والعشرين من أكتوبر بالمطالبة بإعادة المحاكمة أمام مجلس المائتين ولكنه غلب على أمره . وفى اليوم السادس والعشرين أصدر المجلس الصغير حكماً بالإعدام بإجماع الآراء، واستند فى الحكم على دليلين يثبتان الهرطقة - مذهب التوحيد ورفض التسليم بتعميد الأطفال . ويقول كالفن « إن سرفيتوس عند ما سمع النطق بالحكم » أن « تأوه كرجل فقد رشده و . . . ودق صدره وزجر قائلاً بالإسبانية **Misericordia ! Misericordia !** ، وطلب أن يسمح له بالحديث مع كالفن وتوسل إليه طالباً الرحمة ، بيد أن كالفن لم يعرض عليه أكثر من إجراءات المواساة الأخيرة للدين الحقى إذا سحب هرطقاته ، ولم يرض سرفيتوس ، وطلب أن تقطع رأسه ولا يحرق ، وكان كالفن يميل إلى دعم هذا

الطلب ولكن فاريل الطاعن في السن ، الذى يتترب من حافة انقبر زجره
لما بدا منه من تسامح ، وصوت المجلس على أن يحرق سرفيتوس حياً (٧٠) .
ونفذ الحكم في صباح اليوم التالى يوم ٢٧ أكتوبر عام ١٥٥٣ على تل
تشميل الذى يقع مباشرة بجنوبي مدينة :بيذيف . وفي الطريق ألح فاريل
على سرفيتوس أن ينال رحمة الله بالاعتراف بجريمة الهرطقة ، فأجابته الرجل
المحكوم عليه ، طبقاً لما رواه فاريل : « أنا لست مذنباً ولم أكن أستحق
الموت ، وابتهل إلى الله أن يغفر لمن آثموه » (٧١) . وأوثق إلى سارية بسلاسل
حديدية وربط إلى جانبه كتابه الأخير . وعند ما بلغت ألسنة اللهب وجهه
صرخ من الألم . ومات بعد حرقه بنصف ساعة .

٧ - دعوة للتسامح

اتحد الكاثوليك والبروتستانت في الموافقة على الحكم . ولما أفلتت من
محكمة تفتيش فين فريستها فإنها قامت بإحراق تمثال لسرفيتوس (*) . وأعرب
ميلانكتورن في خطاب له إلى كالفن وبولينجر عن «حمده لابن الرب» له «معاقة
الرجل الكافر» ووصفه عملية الإحراق بأنها «مثال يدل على الورع لا ينسى
لكل الأجيال القادمة» (٧٢) . وأعلن بوسر من فوق منبره في شتراسبورج أن
سرفيتوس قد استحق أن تنزع أعضاؤه ويمزق إرباً (٧٤) . ووافق بولينجر ، وهو
بوجه عام خير رفيق العاطفة ، على أن الحكام المدنيين يجب أن يعاقبوا
بالموت من يثبت عليه الكفر (٧٥) .

ومع ذلك فقد ارتفعت بعض الأصوات تدافع عن سرفيتوس حتى
في أيام كالفن ، فقد نظم صقلي قصيدة طويلة بعنوان : *De iniusto Serveti incendio* ، ونشر دافيسد جوريس البازيلي ، وهو لامعملدانى ،
احتجاجاً ضد تنفيذ حكم الإعدام ، ويد أنه وقع عليه باسم مستعار ولما اكتشف

(*) في سنة ١٩٠٣ أقيم نصب تذكاري لسرفيتوس في تشاميل وكان في أول قائمة الذين
شاركوا في نفقاته المجمع الديني لكنيسة جينيف التي أخذت بمبادئ الإصلاح الديني (٧٢) .

بعد وفاته أنه كاتب هذا الاحتجاج أخرجت بجثته بعد المدفن وأحرقت علناً (١٥٦٦) . وبالطبع أدان خصوم كالفن السياسيون معاملته لسرفيتوس واستهجن بعض أصدقائه قسوة الحكم باعتباره مشجعاً للكاثوليك في فرنسا على تطبيق عقوبة الإعدام على الهوجنوت . ولا بد أن هذا المنتقد قد انتشر انتشاراً واسعاً لأن كالفن أصدر في فبراير عام ١٥٥٤ **a Defensio orthodoxae fidei de sacra Trinitate contra Prodigosos errores Michaelis Servetir** دفاع محافظ على الشريعة عن القول بالثالوث المقدس ضد أخطاء ميكائيل سرفيتوس الفظيعة . وقال : إذا آمننا بأن الكتاب المقدس وحى من الله فإننا نعرف الحقيقة وكل من يعارضونه أعداء الله كافرون به . ولما كان ذنبهم أعظم بكثير من أى جريمة أخرى فإن على السلطة المدنية أن تعاقب الهراطقة باعتبارهم أسوأ من أى سفاحين ، ذلك لأن القتل العمد يؤدي إلى هلاك الجسد فحسب بينما الهراطقة المقبولة تعرض الروح للعذاب الأبدي في نار جهنم (وكان هذا بالضبط موقف الكاثوليك) وفضلاً عن هذا فإن الرب نفسه قد علمنا بصورة قاطعة أن نقتل الهراطقة وأن نضرب بالسيف أى مدينة تتخلى عن عبادة الرب وفق العقيدة الخالصة التي كشفها لنا بنفسه . واستشهد كالفن بسفر سفر اثنية القاسية ١٣ : ٥ - ١٥ و ١٧ : ٢ - ٥ وسفر الخروج ٢٢ : ٢٠ وسفر اللاويين ٢٤ : ١٦ وناقش بها بلاغة ملتهبة حقاً : « كل من يتمسك بأن الهراطقة والكفار لحقهم ضرر بمعاقيهم يورط نفسه بأن يكون شريكاً لهم في جريمتهم . . . ولا محل هنا للحديث عن سلطة الإنسان فالرب هو الذى يتكلم ، ومن الواضح أى شريعة احتفظ بها في الكنيسة إلى يوم القيامه . فلماذا يطلب منا مثل هذه التسوية الشديدة إذا لم يكن هذا ليرينا أننا لا نوفيه حقه من التبجيل ما دمنا لا ننزع عبادته تعالى فوق أى اعتبار إنسانى بحيث لا نبقى على آصرة قربى أو صلة دم بيننا وبين أى إنسان وأن نفسى كل إنسانية عند ما يكون الأمر متعلقاً بالقتال في سبيل مجده تعالى؟ (٢٦) »

ونحنف كالفن من استنتاجاته بأن نصح بالرحمة بالذين لا تكون
هرطقاتهم جوهرية أو الذين يتضح أن هرطقاتهم بسبب الجهل أو ضعف
العقل . ولكن حيث أنه رضى بصفة عامة بالتقديس بولس هادياً له ومرشداً
فإنه رفض أن يلجأ للوسيلة البولسية (نسبة إلى بولس) التي تعلن أن القانون
الجديد يحل محل القانون القديم . والحق أن حكومة رجال الدين التي كان
من الواضح أنه كان يمكن أن تتحطم وتشيع فيها الفوضى إذا سمحت الخلافات
في العقيدة بإبداء الرأى علناً .

وفي غضون ذلك ماذا آلت إليه الروح الأرازية التي تدعو إلى التسامح ؟
لقد كان أرازوس متسامحاً لأنه لم يكن على يقين تام ، أما لوثر وميلانكتون
فقد تخلوا عن التسامح عند ما تدرجا في اليقين ، وأما كالفن فكاد يكون على
يقين منذ بلغ عامه العشرين بتبكير قاتل في النضج . وليس من شك في أن
قليلاً من علماء الإنسانيات الذين درسوا الفكر الكلاسي والذين لم يهابوا
العودة إلى الحظيرة الرومانية بالاشمئزاز من الالتجاء إلى العنف في النزاع
اللاهوتي ظلوا يرون على استحياء أن اليقين في الدين والفلسفة أمر لا يمكن
الوصول إليه ، ومن ثم فإن على المشتغلين باللاهوت والفلسفة ألا
يقتلوا أحداً .

وكان عالم الإنسانيات الذي تحدث بوضوح بعض الوقت عن التسامح
وسط صدام اليقينيات واحداً من أقرب أصدقاء كالفن حيناً من الزمن .
فسباسيان كاستيليو الذي ولد في جورا الفرنسية عام ١٥١٥ أصبح حاذقاً
للغات اللاتينية واليونانية والعبرية ودرس اليونانية في ليون وعاش مع كالفن
في شتراسبورج فعينه مديراً للمدرسة اللاتينية في جينييف (عام ١٥٤١) وهناك
شرع في ترجمة الكتاب المقدس بأسره إلى لغة شيشرون اللاتينية . وقد أعجب
بكالفن رجلاً ولكنه كره المذهب القائل بالخير وأضنى قواه تحت وطأة
النظام الجديدي الذي خضع له الجسد والعقل . واتهم في عام ١٥٤٤
القساوسة في جينييف بالتعصب والدنس والسكر . واشتكى كالفن إلى

المجلس ، ووجد أن كاستيليو مذنب بسبب الغيبة ونفى من المدينة (١٥٤٤) ،
وعاش تسع سنوات في فاقة ومسغبة وهو يحول أسرة كبيرة ، وكان يعمل
أثناء الليل في إنهاء نسخته المترجمة من الكتاب المقدس . وانتهى منها عام
١٥٥١ ، ثم بدأ مرة أخرى في سنن التكوين ١ : ١ وهو وحيد يسعى في
هدوء إلى إتمام البحث ، وترجم الكتاب المقدس إلى الفرنسية . وحصل أخيراً
(١٥٥٣) على منصب أستاذ لليونانية في جامعة بازيل . وأحسن بالعطف
على الموحدين وتمنى لو استطاع أن يساعد سرفيتوس ، وراعه دفاع كالفن
عن تنفيذ حكم الإعدام . ونشر هو وكاميلوس كوريو بأسماء مستعارة
(مارس ١٥٥٤) أول كتاب حديث من الكلاسيات عن التسامح : « هل
يجب أن يضطهد المراطقة ؟ De haereticis an Sint persequendi

وكان الهيكل الرئيسي للمؤلف مختارات من الشعر جمعها كوريو من
الابتهالات المسيحية من أجل التسامح ، من لاكتانتوس وجيروم إلى أرازموس
ولوثري بواكير حياته وكالفن نفسه . واشترك كاستيليو في الجدل بالمقدمة
والخاتمة وأشار إلى أن الناس قد ناقشوا في مدة مائة عام الإزادة الحرة
والجبر والسما والرحيم والمسيح والثالوث وأموراً أخرى صعبة ولم يصلوا
إلى أى اتفاق ، ومن يدري لعلهم لن يصلوا أبداً إلى اتفاق . وقال كاستيليو :
لا داعى لأى اتفاق ، فمثل هذه التضايا الجدلية لا تجعل الناس خيراً مما هم
عليه ، وكل ما نحن بحاجة إليه هو أن نتحلى بروح المسيح في حياتنا اليومية
وأن نطعم الفقراء ونساعد المرضى ونحب أعداءنا . وبدلاً من السخرية
أن تزعم الطوائف الجديدة ، شأنها في هذا شأن الكنيسة القديمة ، أنها على
حق مطلق ، وأن تذكره من لها عليهم السيطرة البدنية على اعتناق عقائدها
ونتيجة هذا يكون الإنسان محافظاً على العقيدة في مدينة ويصبح هرطيقاً
عندما يدخل مدينة أخرى ، وعليه أن يغير دينه كما يغير نقده عند كل حد
من حدود البلاد . وهل يمكن أن تتصور أن المسيح يأمر بإحراق رجل حياً

لأنه يدافع عن تعهيد الباطنيين ؟ لقد حلت محل الشرائع الموسوية التي تدعو إلى القضاء على الحياة كل شرطيق شريعة المسيح التي تدعو إلى الرحمة لا إلى التعسف والإرهاب وإذا أنكروا إنسان وجود حياة بعد الموت ورفض الاعتراف بكل شريعة فإنه (كما قال كاستيليو) يمكن للحكام أن يسكتوه فحسب ولكن ينبغي ألا يقتل . وفضلاً عن هذا فإن اضطهاد العقائد (كما رأى) لا طائل تحته والاستشهاد في سبيل فكرة ينشر هذه الفكرة بسرعة أكبر مما كان في وسع الشهيد أن يفعل لو سمح له بأن يعيش . ونختم كلامه بقوله أية مأساة في أن نرى من حرروا أنفسهم أخيراً من محكمة التفتيش الرهيبة يقلدون سريعا في طغيانها ، وأن يكرهوا الناس على أن يعودوا إلى الظلام السيمري بعد فجر واحد مثل هذا (٧٧) .

وعرف كالفن نزعات كاستيليو فتعرف على خطته في رسالته « المراطقة » ، وفوض مهمة الرد عليها لأذكي تلاميذه تيودور دي بيز أو بيز أو بيزا . وقد ولد تيودور في فيزيلاي من أسرة أرستقراطية ، ودرس اللاتين في أورليانز وبورجس ومارسه بنجاح في باريس ، وكتب شعراً باللاتينية ، وفتن بعض النساء بتوقد ذهنه وأكثر من هذا بنجاحه ، وعاش حياة مرحة وتزوج وسقط صريح مرض خطير ، وجرب وهو على فراش المرض تحولاً معكوساً نحو تعاليم لويولا ، واعتنق البروتستانتية وفر إلى جينيف وقدم نفسه إلى كاتالغن وعين أستاذاً لليونانية في جامعة لوزان ، ومما هو جدير بالملاحظة أن لاجئاً بروتستانتياً من فرنسا التي تضطهد الموحثون أخذ على عاتقه الدفاع عن الاضطهاد ، وقد أدى هذا بمهارة محام وإخلاص صديق ؛ فأصدر في سبتمبر عام ١٥٥٤ مؤلفاً بعنوان (كتاب صغير عن واجب الحكام المدنيين في عقاب المراطقة) *De haereticis a civili magistratu puniendis libelus* وأشار مرة أخرى إلى أن التسامح الديني مستحيل لإنسان قبل أن الكتب المقدسة وحى من لدن الله . ولكننا إذا رفضنا التسليم بأن الكتاب

المقدس كلمة الله ، فعلى أى أساس نبى العقيدة اللدنية اللى يتضح بجلاء أنه لا غنى عنها - إذا أخذنا فى الاعتبار ما فطر عليه الناس من شر - لكبح جماح الناس وللنظام الاجتماعى - والحضارة ؟ وإذن لن يتبقى إلا شكوك مهوشة تعمل على تفكيك عرى المسيحية . ولا يمكن أن يكون المؤمن مخلص بالكتاب المقدس إلا دين واحد ، أما اللديانات الأخرى فلا بد أن تكون زائفة أو ناقصة . حتماً إن العهد اللديد يبشر بسنة المحبة ولكن هذا ليس عذراً لنا لكى لا نقتص من اللصوص والمقتلة ، فكيف يبيح لنا هذا أن نبقى على الهراطقة ؟

وعاد كاستيليو إلى اللدل فى كراسة دينية بعنوان **Contra libelum Calivini** ، ولكنها ظلت نصف قرن دون أن تنشر . وسبق ديكرات فى مخطوطة أخرى بعنوان **De arte dubitand** بأن جعل من « فن الشك » أول خطوة فى البحث عن الحقيقة ودافع فى رسالته « المخابرات الأربع » عن الإرادة الحرة وعن احتمال خلاص عالمى . وفى عام ١٥٦٢ نشر رسالته « نصيحة إلى فرنسا الحزينة » ، توسل فيها عبثاً إلى الكاثوليك والبروتستانت بإنهاء الحروب الأهلية اللى كانت تجتاح فرنسا وبأن يسمحوا لكل مؤمن بالمسيح « أن يصلى للرب وفق عقيدته هو وليس وفق عقيدة غيره من الناس » (٧٨) ، وكان من الصعب أن يسمع أحد صوتاً يشد عن النغم السائد فى العصر .

ومات كاستيليو فقيراً بالغاً من العمر ثمانية وأربعين عاماً (١٥٦٣) ، وقال كالفرن إن وفاته المبكرة حكم عادل من إله عادل .

٨ - كالفن إلى النهاية ١٥٥٤ - ١٥٦٤

ولعل كالفن قد عرف ميل كاستيليو الخفى إلى مذهب الموحدين - الإيمان بآله ليس ثلاثة في واحد ، ومن ثم رفض التسليم بألوهية المسيح ، ويمكن أن يغتفر له أنه كان يرى في هذا الشك الأساسى بداية النهاية للمسيحية . وخشى من هذه المرطقة أكثر من أى شىء آخر لأنه وجدها متفشية فى مدينة جينيف ذاتها ، وفوق كل شىء بين اللاجئيين البروتستانت الفرارين من إيطاليا . ولم ير هؤلاء الناس أى معنى فى أن يستبدلوا بتجسد لا يصدق قدرأ محتوماً لا يصدق . وهاجمت ثورتهم الدعوى الأساسية للمسيحية وهى أن المسيح ابن الله . وكان لماثيو جريبالدى ، وهو أستاذ فى فقه القانون فى بادوا ، بيت صيفى بالقرب من جينيف . وتكلم بصراحة أثناء محاكمة سرفيتوس ضد العقاب بسبب الآراء الدينية ، ودافع عن حرية العبادة - بالنسبة للجميع ، فدعى للمثول أمام الخلاس ، ونفى من المدينة إذ اشتبه فى أنه يؤيد مذهب الموحدين (١٥٥٩) وكهمل لنفسه التعيين فى وظيفة أستاذ للقانون فى جامعة تينجن . وأرسل كالفن إلى الجامعة كاجمة عن شكوك جريبالدى . فأزمته بأن يوقع اعترافاً يقر فيه بالتثليث ، وبدلاً من أن يخضع فر إلى برن حيث مات متأراً بداء الطاعون فى عام ١٥٦٤ . واستدعى جيورجيو بلاندراتا ، وهو طبيب إيطالى يقيم فى مدينة جينيف للمثول أمام المجلس بتهمة مناقشة ألوهية المسيح ، ففر إلى بولنדה حيث وجد شيئاً من التسامح بالنسبة إلى هرطقته .

وأعرب فالنتينو جنتيلي ، من كالابريا ، صراحة عن آرائه المؤيدة لمذهب الموحدين فى مدينة جينيف ، فألقى فى غيابة السجن حكم عليه بالإعدام (عام ١٥٥٧) فتراجع عن أقواله وأطلق سراحه وذهب إلى ليون فقبضت عليه السلطات الكاثوليكية ، بيد أنه أطلق سراحه عند ما أكد لهم أن مصلحته

الرئيسية تكمن في دحض مزاعم كالفن . وانضم إلى بلاندراتا في بولندا ، وعاد إلى سويسرة حيث اعتقله حكام برن وأدين بتهمة الخنث بقسمه والهرطقة وقطعت رأسه (١٥٦٦) .

ووسط هذه المعارك في سبيل الرب استمر كالفن يعيش في بساطة وقد حكمه جنيف بقوة شخصية مسلحة بأوهام أتباعه . وتدعم مركزه بمرور السنين . وكان ضعفه الوحيد في جسده الواهن : كان يشكو من آلام في رأسه والربو وسوء الهضم والحصوة والتقرس ، وهضرت الحمى جسده وأبرزت عظامه وشبكت وجهه فبدت تقاطيعه مشلودة تم على القسوة والكدر . وأصيب بمرض في ١٥٥٨ - ٥٩ استمر طويلاً وتركه ضعيفاً واهناً مصاباً بنزيف متكرر من الرئتين . واضطر بعد ذلك إلى ملازمة الفراش معظم الوقت على الرغم من أنه مستمر في الدراسة والتوجيه والوعظ حتى عند ما كان يحمل حملاً في مقعد إلى الهيكل المقدس . وحرر وصيته في يوم ٢٥ أبريل عام ١٥٦٤ وهو واثق تمام الثقة من اختياره للمجد الأبدى ، وفي اليوم السادس والعشرين أقبل المأمورون وأعضاء المجلس وجلسوا بجانب فراشه ، فطلب منهم المغفرة بسبب سورات غضبه ، ورجاهم أن يتشبثوا بالعقيدة الطاهرة للكنيسة التي اتبعت الإصلاح وجاء فاريل وكان آنذاك قد بلغ العام الثمانين من عمره من نيوشاتل ليودعه الوداع الأخير ، وبعد مرور بضعة أيام قضاهها كالفن في الصلاة والعذاب وجد السلام (٢٧ مايو عام ١٥٦٤) . وكان تأثيره أعظم من تأثير لوثر ، ولكنه سار في طريق كان لوثر قد مهده ، فقد أسبغ لوثر حمايته على الكنيسة الجديدة بإحياء القومية الألمانية لتأييدها وكانت الحركة ضرورية ، ولكنها ربطت اللوثرية رباطاً وثيقاً بالأصول التوتوية ، ولقد أحب كالفن فرنسا وجاهد لكي يرفع من شأن قضية الهوجنوت ولكنه لم يكن وطنياً فقد كان اللدين بلده ، وعلى هذا فإن عقيدته ، مهما لحقها من تعديل ، استلهمت .

البروتستانتية في سويسرة وفرنسا وسكوتلندة وأمريكا ، واستولت على قطاعات كبيرة من البروتستانتية في هنغاريا وبولندة وألمانيا وهولندة وانجلترا . ولقد أضفى كالفن على البروتستانتية في كثير من البلاد تعظيمًا وثقة واعتزازًا بالنفس، مكنها من أن تعيش وتصمد لألف محنة .

وقبل وفاته بعام انضم تلميذه أوليفيانوس إلى أورسينوس تلميذ ميلاتكتون في إعداد وعظ هيدلبرج الذي أصبح تعبيراً مقبولاً لعقيدة الإصلاح اللاتيني في ألمانيا وهولندة . ووفق بيز وبولينجر بين مناهي كالفن وزونجلي في الإقرار السويسري البروتستانتي الثاني (١٥٦٦) الذي أصبح وثيقة رسمية للكنائس التي اتبعت الإصلاح الديني في سويسرة وفرنسا وتابع بيز باقتدار عمل كالفن في جينيف نفسها . بيد أنه ما أن مر عام حتى أخذ كبار رجال الأعمال الذين يسيطرون على المجالس في مقاومة محاولات مجمع الكرادلة والجمعية المبهجة بنجاح ازداد شيئاً فشيئاً ليستبدلوا بها الرادع الأخلاقي في العمليات الاقتصادية ، وبعاء وفاة بيز (١٦٠٨) دعم أغنياء التجار نفوذهم (سيادتهم) وفقدت الكنيسة في جينيف مزاياه الإدارية - - (التوجيهية) التي كان كالفن قد ظفر بها لها في الشؤون غير الدينية . وفي القرن الثامن عشر خفف تأثير فولتير من التقليد الكالفيني ، وقضى على سيطرة الأخلاق المتطهرة النزعة بين الناس . وكافحت الكاثوليكية في جلد وصبر لتسترد مكانها في المدينة ، وعرضت مسيحية خافية من الكدر ونزعة أخلاقية خالية من الصرامة ، وكان ٤٢ في المائة من السكان في عام ١٥٩٤ كاثوليك و ٤٧ في المائة منهم بروتستانت (٧٩) .

ولكن أعظم بناء قام به الإنسان له أثر كبير في جينيف هو النصب التذكارى للإصلاح الديني « المبهجل الذي يمتد في بهاء على طول سور بستان ويحتفل بانتصارات البروتستانتية وترتفع في وسطه تماثيل فاريل وكالفن وبيز ونوكس القوية .

وفي غضون ذلك كانت حكومة رجال الدين الصارمة التي أقامها كالفرن
تثبت براعم ديمقراطية ، ثم إن جهود الزعماء الكالفينيين في سبيل توفير التعليم
للجميع وتفقيههم وغرسهم شخصية مهذبة قد ساعدت أوساط الناس الأشداء
في هولنده على إبعاد الحكم المطلق الإسباني الدخيل ودعم ثورة النبلاء ورجال
الدين في سكوتلنده ضد ملكة فاتنة ولكنها مستبدة . وكان للزعة الرواقية
في عقيدة صارمة الفضل في خلق أرواح قوية للمعاهدين الاسكوتلنديين
والمتطهرين الإنجليز والهولنديين والحجاج في نيوانجلاند ، وثبتت قلب كروموويل
واهتدى بها قلم ميلتون الكفيف وحطمت سلطان آل ستيوارت المستبدين .
وشجعت الناس الباسلين والقساة على الظفر بقارة وعلى نشر أساس التعليم
والحكم الذاتي إلى أن يستطيع كل الناس أن يصبحوا أحراراً .

وسرعان ما طالب الناس الذين اختاروا كهان أبرشياتهم بأن يكون لهم
حق اختيار حكاهمهم وأصبحت جماعة المصلين التي تحكم نفسها بنفسها بلدية
تحكم نفسها بنفسها ، وهكذا أبرزت أسطورة الانتخاب الإلهي نفسها في
صنع أمريكا .

وعندما تم أداء هذا العمل أهملت النظرية البروتستانتية التي تقول
بالجبر ، ولما عاد النظام الاجتماعي إلى أوروبا بعد حرب الثلاثين عاماً وفي
انجلترا بعد ثورتى عام ١٦٤٢ و ١٦٨٩ وفي أمريكا بعد عام ١٧٩٣ تغير
الفخار بالانتخاب الإلهي إلى اعتزاز بالعمل وإنجازه وشعر الناس بأنهم
أقوى وأكثر أمناً .

وقل الخوف وأسلمت القسوة المدعورة التي ولدت رب كالفرن إلى رؤية
أكثر رحمة ألزمت بإعادة النظر في مفهوم الألوهية . وعقداً بعد عقد نبذت
الكنايس التي تسلمت زمام القيادة من كالفرن عناصر عقيدته القاسية ،
ووات الجرة المشغلين باللاهوت على أن يؤمنوا بأن كل من ماتوا في

الطفولة كتب لهم الخلاص ، وأعلن قس ميجل دون أن يسبب أى اضطراب
أن « عدد الضالين نهائياً . . . سيكون طفيفاً جداً » (٨٠) . ونحن نشعر بالشكر
لهذا التأكيد العظيم .

ونوافق حتى على أن الخطأ يعيش لأنه يخدم حاجة حيوية ما . ولكننا
سوف نجد دائماً من الصعب أن نحب الرجل الذى أظلم الروح البشرية
بأكثر المفاهيم عن الله سخفاً وكفراً فى تاريخ السخف الطويل المبجل
بأسره .

المراجع مفصلة

CHAPTER XVI

1. Acton, *Lectures on Modern Hy*, 91; Thompson, *Social and Economic Hy*, 425, 428; Ranke, *Reformation*, 151.
2. Friar Myconius in Thatcher, O. J., *Source Book for Medieval Hy*, 339.
3. Robertson, W., *Charles V*, 1, 372.
4. Pastor, VII, 349.
5. Luthér, *Works*, I, 26; Thesis 75.
6. Beard, *Luther*, 257.
7. Acton, 97.
8. *Camb. Mod. Hy*, II, 127.
9. Ranke, *Reformation*, 154.
10. Beard, 121; Smith, P., *Luther*, 2.
11. In D'Arcy, M. C., *Thomas Aquinas*, 254.
12. Ranke, 144; Beard, 158.
13. Beard, 165.
14. Luther, *Tischreden*, lxxvli, In Gregorovius, *Hy of Rome*, VIII-1, 249.
15. Gansse, H. G., in *Cath. En.*, IX, 441.
16. In Ganssen, III, 97.
17. *Ibid.*, 89.
18. *Cath. En.*, IX, 442.
19. In Pastor, VII, 354.
20. *Cath. En.*, IX, 443.
21. In Beard, 231-3.
22. *Camb. Mod. Hy*, II, 132.
23. Ranke, 160.
24. Roscoe, Wm., *Leo X*, II, 95, 105-7.
25. Pastor, VII, 867.
26. H. von Schubert in Smith, *Luther*, ix.
27. In Pastor, VII, 378.
28. Smith, *Reformation*, 700.
29. Beard 270.
30. *Ibid.*, 278-4; Ranke, 195; *Cath. Ed.*, IX, 448; Acton, 94-5.
31. Pastor, VII, 882; Beard, 272.
32. Smith, *Luther*, 56.
33. *Cath. En.*, IX, 444.
34. Smith *Luther*, 71.
35. Letter of Aug. 20, 1581, in Froude, *Erasmus*, 397.
36. In Ledderhose, *Life of Melancthon*, 88.
37. In Beard, 279.
38. In Strauss *Rutten*, 263.
39. In Pastor, VII, 889; Janssen, III 111.
40. Strauss, 225.
41. *Werke*, VIII, 203, in Beard, 352.
42. Pastor, VII, 384; Smith, *Luther*, 75.
43. Luther, *Works*, II, 68.
44. *Ibid.*, 69-70.
45. 76.
46. 78.
47. 83-99, *Italica* time.
48. 110.47.
49. 138-9.
50. *Babylonian Captivity*, in *Works*, II, 188.
51. *Ibid.*, 257.
52. In Janssen, III, 128.
53. *Works*, II, 269-71.
54. *Ibid.*, 298.

55. 802-10.
56. 299.
57. 331.
58. 3.8.
59. Ranke, 215; Pastor, VII, 400-8;
Janssen, III, 80.
60. Ranke, 220; Beard, 175.
61. Hume, M., *The Spanish People*,
331.
62. Adams, Brooks, *Civilization and
Decay*, 98.
63. Strieder, *Jacob Fugger*, 153.
64. Michelet, III, 174.
65. Thompson, *Social and Economic
History*, 428.
66. Armstrong, E., *Charles V*, I, 69.
67. Janssen, III, 178.
68. Pastor, VII, 428.
69. Lingard, *Hy of England*, IV, 225.
70. In Janssen, III, 172; Bainton,
Here I Stand, 175.
71. Strauss, 276f.
72. Beard, 421-3.
73. Janssen, III, 182.
74. Beard, 412.
75. Bainton, *Here I Stand*, 185.
76. Ibid.; Schaff, *German Reforma-
tion*, 29.
77. Bainton. *Here I Stand*, 185; of
Cath. En. IX, 446d, and the Pro-
testant authors there cited.
78. Creighton, *Hy of the Papacy*.
VI, 176.
79. Carlyle, Thos., *Heroes and Hero
Worship*, 360.
80. Bainton, *Here I Sand*, 186.
81. Acton, 101.
82. Bainton, 189.
83. Ibid., 195.
84. Taylor, H. O., *Thought, and
Expression in the 16th Century*,
II, 213.
85. Bax, *German Society*, 142; Lecky,
History, of Rationalism, I, 22.
86. Janssen, III, 246-8.
87. Bainton, 200.
88. Ibid., 205-6; Ranke, 251.
89. Luther, *Works*, III, 206-7.
90. Ibid., 211.
91. Ranke, 254
92. Bainton, 208.
93. Janssen, III, 259.
94. Ibid., 263.
95. Bainton, 214.
96. Beard, 127.
97. Janssen, IV, 98.
98. Smith, *Luther*, 155.
99. Ibid., 168.
100. 380.
101. Froude, *Erasmus*, 294.
102. Janssen, XIV, 408.
103. Luther, *Table Talk*, 118.
104. *Werke* (Walch), VIII, 2042, in
Beard, *The Reformation of the
16th Century in Relation to
Modern Thought and Knowledge*,
161.
105. Luther's *Table Talk*, 358.
106. Luther, *Werke* (Erlangen), VI,
142-8, in Maritain, *Three Refor-
mers*, 38 and Beard, *Reformation*
156.
107. In Paulsen, *German Education*,
47.
108. In Janssen, III, 240.
109. Schaff, *German Reformation*,
85-6.
110. Luther, *T. T.*, 24.
111. Smith, *Luther*, xi.
112. *T. T.*, 2.
113. Ibid., 91, 96.
114. 67.
115. 15.
116. 797; Smith, *Luther*, 362.

117. *T.T.*, 574.
118. Sermon of March 6, 1521; Janssen, XII, 316.
119. Maritain *Three Reformers*, 80.
120. Smith, *Reformation*, 658.
121. Lecky, *Rationalism*, I 22.
122. *T.T.* 577, 597; Janessen, XIV, 87.
123. Janssen, XII, 817.
124. Lecky, *Rationalism*, I, 28.
125. *T.T.*, 579-86, 6
126. Luther's *Works*, III, 235-7.
127. *Works*, II, 39.
128. *Ibid.*, 316.
129. *T.T.*, 288.
130. Romans, x, 9.
131. Mark, xvi, 16.
132. *Works*, II, 316.
133. *Werke*, XL, 436; XXV, 330, 142, 130; *Werke* (Erlangen), XVIII, 260.
134. *Werke* (Erlangen), XX, 58; LX, 107-8; *Werke* (Weimar), X-2, 276.
135. O'Brien, G., *Economic Effects of the Reformation*, 41.
136. *Works*, II, 328-9.
137. *Ibid.*, 331.
138. Romans, ix, 18.
139. Luther, *De servo arbitrio*, in Janssen, IV, 104.
140. *De servo arbitrio*, in Lecky, *Rationalism*, I, 140.
141. In Füllöp - Miller, R., *Saints That Moved the World*, 291.
142. Janssen, IV, IV, 114.
143. *T.T.*, 98.
144. *Ibid.*, 178.
145. *Works*, II, 188.
146. *Werke*, XXVIII, 142-201. in Bax, *German Society*, 188-90.
147. *Works*, III, 258-61.

148. In Janssen, III, 268.
149. In Allen, J. W., *Political Thought*, 380.
150. *Works*, IV, 25.
151. *Ibid.*, 26, 29.
152. *Works*, II, 160.
153. *ibid.*, IV, 35.

CHAPTER XVII

1. Rechar. E., *German Civilization*, 260.
2. Janssen, III, 214.
3. Pastor, IX, 134.
4. Schapiro, J. S., *Social Reform*, 84-5.
5. Richard, 260; *Camb. Mod. Hy*; II, 174.
6. Luther, *Works*, III, 204-5.
7. *Camb. Mod. Hy*, II, 188.
8. Janssen, III, 221; Schapiro, 103-14.
9. Janssen, III, 228; *Camb. Mod. Hy*, II, 177.
10. Janssen, III, 342.
11. *Comb. Mod. Hy*, II, 193.
12. Kautsky, 116-119.
13. *Ibid.*, 121.
14. 180.
15. Renke, *Reformation*, 838.
16. In Kautsky, 139.
17. *Ibid.*, 144.
18. Luther, *Works*, IV, 210-16.
19. *Ibid.*, 220-1.
20. 240.
21. 244.
22. Ranke, 450.
23. Janssen, IV, 166; Bax, *Peasants' War*, 79-84.
24. Ranke, 348-9.
25. Robinson, J. H. *Readings, in European Hy*, 2891; Bax, *Peasants' War*, 156-60.

- . Ranke, 344.
27. Bax, *Peasants' War*, 101.
28. *Ibid.*, 118-30.
29. In Janssen, IV, 208.
30. Bax, 76, 224.
31. *Ibid.*, 205.
32. 229.
33. Luther, *Works*, IV; 248-54.
34. Bax, 265-6.
35. *Ibid.*, 312-5.
36. 303.
37. *Camb. Mod. Hy*, II 191.
38. Bax., 836-7.
39. Armstrong, *Charles*, V, I, 222.
40. Ranke, 360.
41. Schapiro, 86; Smith, *Luther*, 146.
42. *Ibid.*, 165.
43. 164.
44. *Works*, IV, 261.
45. *Ibid.*, 261-72.
46. *Camb. Mod. Hy*, II, 192.
47. Ranke, 728.
48. Payne, E., A., *Anabaptists*, 11.
49. Kautsky, 164.
50. *Ibid.*, 166.
51. Allen, *Political Thought* 48.
52. Ranke, 732-3.
53. Schaff, *Swiss Reformation*, 82.
54. Janssen, IV, 114.
55. Kautsky, 176.
56. *Ibid.*, 185.
57. 187.
58. Ranke, 729.
59. Kautsky, 192.
60. Ranke, 757.
61. Kautsky, 255-6.
62. *Ibid.*, 257.
63. 260.
64. 273.
65. Ranke, 745-6.
66. Smithson, R. J., *Anabaptists*, 179-80.

67. Kanteky, 299; Ranke, 755.
68. Smithson, 181.
69. Fosdick, *Great Voices of the Reformation*, 285.
70. Payne, *Anabaptists*, 16.

CHAPTER XVII

1. Cath. En., XV, 773.
2. Schaff, *Swiss Ref.*, 6.
3. *Ibid.*
4. Hughes, *Reformation*, I, 124.
5. Schaff, 24.
6. *Camb. Mod. Hy*, II, 713.
7. Schaff, 32.
8. Ranke, 513.
9. Schaff, 52-3.
10. Fosdick, 183.
11. *Ibid.*, 173, 191.
12. Lea, *Auricular Confession*, I, 519.
13. Fosdick, 190.
14. Schaff, 59.
15. *Camb. Mod. Hy*, II, 321, 334.
16. Smith, *Erasmus*, 301.
17. Schaff, 94.
18. Bvinton, *Hunted Heretic*, 36-8.
19. Erasmus, Epistle of May 9, 1529, in Schaff, *Swiss Reformation*, 112.
20. *Camb. Mod. Hy*, II 207-10.
21. In Janssen, V, 231.
22. Schaff, 177.
23. *ibid.*
24. Bossuet, *Variations*, II, 29.
25. En. Brit., XXIII, 998.
26. Schaff, 188.
27. Smith's *Luther*, 290.
28. T. T., 801.

CHAPTER XIX

1. Kauffman Collection, Berlin.
2. *Werke*, XLII, 582, in Maritain, 171.
3. *Werke*, X-2, 304, in Maritain, 171.

4. *T.T.*, 715.
5. *Ibid.*, 752.
6. Maulde, *Women of the Renaissance*, 467.
7. *Werke*, X-2, 301, in Maritain, 184.
8. Bainton, *Here I Stand*, 299.
9. *T.T.*, 715.
10. Bainton, 301.
11. *T.T.*, 737.
12. *Ibid.*, 751.
13. ImSchaff, *Swiss Reformation*, 417.
14. In Fosdick, 71.
15. Smith, *Luther*, 354.
16. Schaff, *German Reformation*, 465.
17. Bainton, 804.
18. Smith, 320.
19. Letter to Pope Leo, 1520.]
20. Luther, *Works*, 1, 7.
21. Janssen' XI, 340; Luther, *Works*, II, 231; Bainton, 295.
22. Bainton, 295.
23. Janssen, III, 242.
24. *Werke*, VIII, 624, in Martian, 188.
25. In Carpenter, *Pagan and Christian Creds*, 207.
26. *T.T.*, 462.
27. *Werke*, XXV, 108, in Cath. En., IX, 447b.
28. *T.T.*, 319.
29. Gasquer, *Eve of the Reformation*, 173.
30. Smith, *Luther*, 407; Bainton, *Here I Stand*, 295.
31. Smith, 355.
32. *Ibid.*, 326.
33. In Janssen, XI, 253.
34. Bainton, 225.
35. *T.T.*, 100.
36. Smith, *Luther*, 322.
37. *Ibid.*, 349.
38. *Ibid.*,
39. Janssen, XII, 16; *T.T.*, 114.
40. *bid.*, 257.
41. 91, 96.
42. 780.
43. Jusserand. *Literary History of the English People*, II, 167.
44. *T.T.*, 841.
45. *Ibid.*, 413.
46. Luther, *Works*, 1, 76.
47. *bid.*, 142.
49. Bainton, *Here*, 314.
50. *Works*, III, 204, 207.
51. Preface to the Shorter Catechism.
52. *Werke* (Erlangen), XXIX, 46-74, in Jewish Encyc., VIII, 213.
53. *T.T.*, 275.
54. *Werke*, (Erlangen).XXXII, 217-33, in Janssen, III, 211-12.
55. *Werke*, (Erlangen), XXVIII, 144, in Maritain, 15.
56. Letter of Aug. 26, 1529, to Jos. Metsch, in Smith, *Luther*, 218.
57. In Froude, Erasmus,] 389.
58. *T.T.*, 61.
59. Putnam, *Books*, II, 244.
60. *Werke*, XXXI-1, 208f.
61. *Werke*, (Erlangen) XVI. in Allen, *Political Thought*, 27.
62. Bax, *Peasants' War*, 352.
63. Smith, *Luther*, xiv.
64. *Id.*, *Reformation*, 645.
65. Janssen, IV, 140-1.
66. Murray, *Erasmus and Luther*, 366.
67. Janssen, XIV, 503.
68. Janssen, V, 290.
69. Luther, Commentary on Psalm LXXXII.
70. Janssen, V, 491, 502, 505.
71. Janssen, VI, 46 - 63, 181, 190, 208-14, 348-9; Lecky, *Rationalism*, II, 15.

72. Janssen, IV, 282f.
73. Lea, *Studies in Church History*, 492.
74. *T.T.*, 889.
75. Smith, *Reformation*, 104; Pansky, Dürer, 1283; *Cath. En.*, IX, 447c.
76. Janssen, III, 198.
77. *Ibid.*, 342.
78. Robertson, J. M., *Freethought*, I, 455.
79. Erasmus, letter to Pirkheimer, Feb. 21, 1529.
80. Janssen, III, 361.
81. Strauss, *Butten*, 280.
82. Smith *Erasmus*, 233.
83. In Michelet, III, 170.
84. Smith, *Erasmus*, 384.
85. Letter of March 5, 1518.
86. Letter of October 17, 1518.
87. In Froude, *Erasmus*, 189.
88. Smith, *Erasmus*, 219.
89. *Ibid.*, 221.
90. *Ibid.*, 22; Froude, *Erasmus*, 283-4.
91. In Murray, *Erasmus*, 76.
92. Froude, 270-2.
93. Smith, *Erasmus*, 241.
94. *Ibid.*, 256.
95. Erasmus, *Eplistles*, I, ep. lxxxv.
96. *Ibid.*, ep. cccixvi.
97. Froude, 308.
98. Letter of Feb , 1523, in Froude, 310.
99. Acton, 105; Lecky, *Reformation*, I, 140.
100. *Ibid.*,
101. Bainton, *Here I, Stand*, 254-5.
102. Froude, 340, 381.
103. In Allen, *Political Thought*, 80.
104. Froude, 408.
105. *Ibid.*, 357.

106. In Froude, 400.
107. Erasmus, *Heperapistes*.
108. In Froude, 352.
109. Walpole, H., *Letters*, III, 184.
110. Beard, *Luther*, 93.
111. Acton, 89.

CHAPTER XX

1. Janssen, IV, 62.
2. Cf. *Comb. Mod. Hy*, II, 159.
3. Janssen, VI, 534.
4. Janssen, V, 277.
5. Lea, *Clerical Cellbacy*, 580.
6. Janssen, VII, 247.
7. *Ibid.*, IV, 47.
8. *Ibid.*, IX, 180.
9. *Ibid.*, XIII, 24.
10. Froude, *Erasmus*, 887.
11. Vambéry, 283.
12. Janssen, IV, 119.
13. *Ibid.*, 108-11.
14. *En. Brit.*, XI, 288.
15. Janssen, V, 271; Ranke, 614.
16. *Cath. En.*; XI, 458.
17. *Comb. Mod. Hy*, II, 219.
18. Janssen, V, 428.
19. Luther, *Works*, V, 128; Pastor, XI, 69, 81-7.
20. Janssen, V, 495f; *Comb. Mod. Hy*, II, 233.
21. Pastor, XI, 362-3.
22. *Ibid.*, 375-98.
23. Ledderhose, 177-82.
24. *Ibid.*, 188.
25. *Cath. En.*, IX, 452d.
26. In Bainton, *Here I, Stand*, 846.
27. Pastor, XI, 67.
28. Smith, *Luther*, 809.
29. *Werke* (Walch), XX, 228, in *Cath. En.*, IX, 456d.
30. Luther, *Works*, V, 163.

31. In Tawney, *Religion and the Rise of Capitalism*, 101; Bainton, *Here I Stand*, 238.
32. *Werke*, XIX, 626, in Allen, *Political Thought*, 22.
33. Bax, *Peasants' War*, 351.
34. *Werke*, XV, 276, in Bax, 352.
35. Smith *Luther*, 374.
36. Letter of Sept. 3, 1531.
37. Smith, 196.
38. In Bebel, *Woman under Socialism*, 68.
39. Janssen, VI, 81-6.
40. *Comb. Mod. Hy*, II, 241.
41. Ledderhose, 170.
42. Janssen, VI, 122.
43. *Camb. Mod. Hy*, II, 241.
44. In Smith, *Luther*, 399f.; Pastor, XI, 215f.
45. *Werke*, XXV, 124-55, in Janssen, VI, 271-2, and Pastor, XII, 216f.
46. Weber, Hermann, *On Means for the Prolongation of Life*, 48.
47. Smith, *Luther*, 406.
48. *Ibid.*, 409.
49. James, Wm., *Varieties of Religious Belief*, 137.
50. *Ibid.*
51. *T.T.*, 688.
52. *Ibid.*, 15.
53. 19.
54. 236.
55. In Robertson, *Charles V*, II, 158n.
56. Smith, *Luth*, 419.
57. Armstrong, *Charles V*, I, 138.
58. *Comb. Mod. Hy*, II, 276.
59. *Ibid.*, 278.
60. Schaff, *Swiss Reformation*, 387, 548; Janssen, XIV, 149.
61. *Id.*, VII, 139:
62. *Id.*, IV, 862-3; Schapiro, 78; Allen, *Political Thought*, 33.
63. In La Tour, IV, 161.
64. In Janssen, VII, 139.